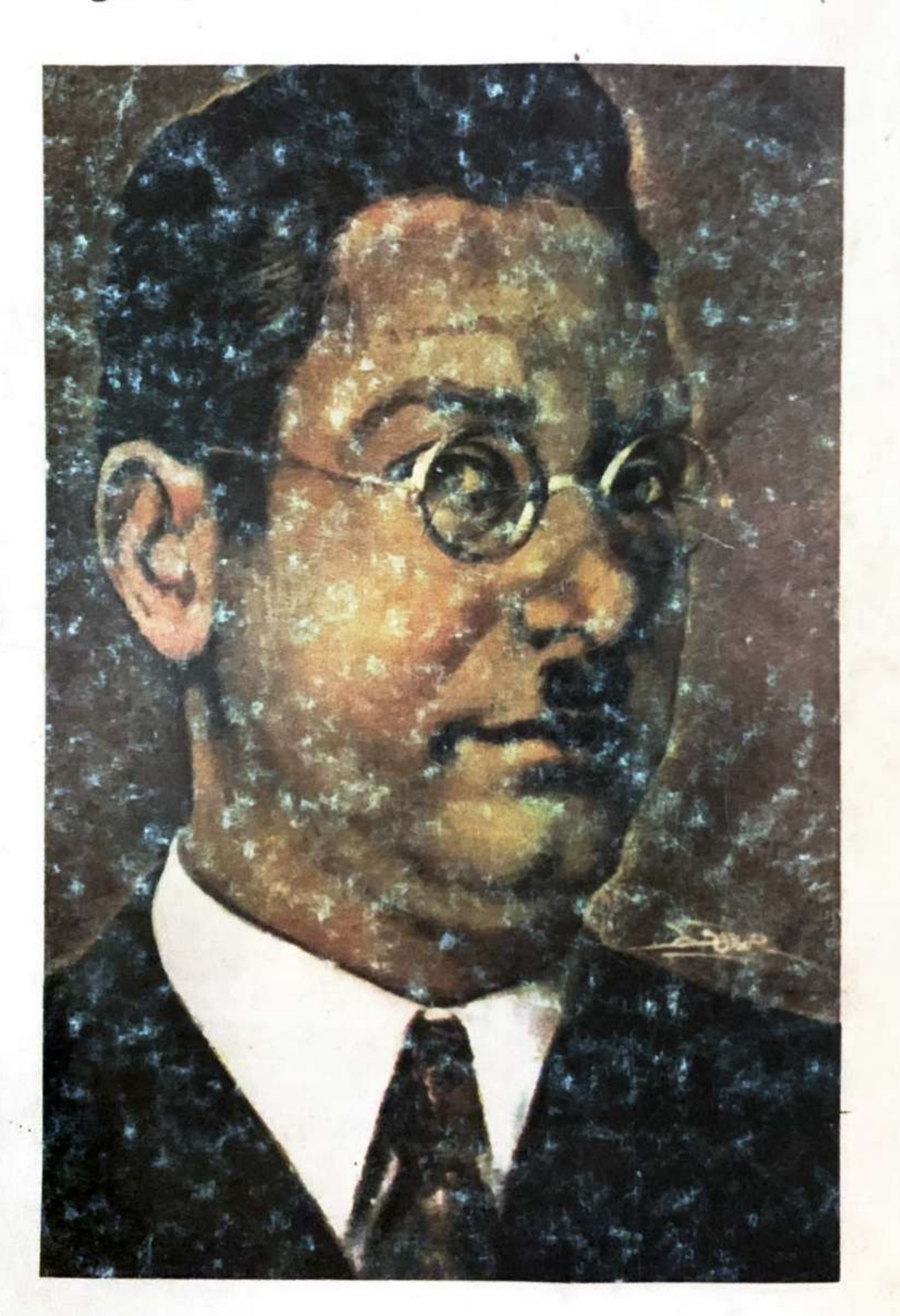
راية الحرية الأدبية

الدكتور زكي مبارك

الافتتاحية بقلم الشاعر الدكتور عبدالله محمد باشراحيل



عادل الشامي

كريمة

زكي مبارك

الناشر

مكتبة مصر

سعيد جودة السحار وشركاه

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

ت: ٥٩٠٨٩٢٠

راية الحرية الأدبية

بقلم

الدكتور زكى مبارك

الافتتاحية بقلم الشاعر الدكتور عبدالله محمد باشراحيل

الافتتاحية

عندما يبلل الندى أطيافَ النسائِم وتجترح البروق مكامن الظلمه تهمي مزون السماء.. فتحيي النبض الموات في صحراء الأعمار .. فيورق ثـم يهيـج .. فإذا بـالحقول وقـد أينع الثمر فيها .. وازدهرت روابي الحسِ البشري بدهشة المبدع وبسحر الجمال المستلقي على خضرة الأرض يداعب فتون الطبيعـة ويلامـس فصولها ويعيش أحداثهـا ويرسـم خصبهـا وجدبها بريشة الزمان .. ليتخلّق تميز العصر عن غيره .. واختلاف القدرة عـن سـواها .. تلك الطبيعة في عالم المرئيات والصـور والخيـالات والأحاسيس تتقلـب بتقلـب الظـروف والأشياء ، لتجسد حركية الحروف والمعاني للعيـان في صـورة فنـان أو مبـدع أو عبقـري أفتن للعصر قيمة وقدرة ساهمت في عشق الحياة وترسمُ قيم النبالـة والامـتزاج مـع الطـين الإنساني في مواجهة مكاره العيش .

كانت هذه المقدمة عصارة رؤية الاغتراب وأنفاس من كلمـات لازالـت تنبـض بحيويـة أديب جهبذ وفارس من فرسان العربية الذين امتطوا صهوات الريح للسبق إلى فتـح مغـالق المجهول لتشرق شموس الفضيلة .

إنه الأديب والدكاترة زكي مبارك أحد فحول الأدب وركن من أركان بنيانه .. وكأنني بـه يصرخ بأعلى صوته سوف أبقي بينكم حرَّ الفكـر وصـادق البيـان .. أُثيركم برعـود الحريـة .. وأذكركم بأن الحبَّ أفلس مخزونُه منذ قابيل وهابيل وأن العداوة طبيعة الحياة الدنيا إلا ما اسـتثنيَّ من أخيار النفوس السوية .. وما بقي هو التحايل على الحياة للبقاء .

عندما ألقت إليَّ الأخت (كريمة زكي مبارك) بمسئولية كتابة كلمة عن أبيها أحجمت فترة عن ذلك خيفةً أن تكون كلمتى إحدى النوازع النفسية التى تغري بظهور الـذات .. ولا تؤدي إلى إضافة قيمة تذكر في هذا العصـر الـذي يتكـالب عليـه النـاس حبًا للشـهرة وذيوع الصيت والإبهار المصطنع الممقوت .. وما أكثر ما أُصيب بـه عصرُنـا الحـاضر مـن نقائض ونقائص .

لذلك قمتُ أولاً بقراءة المادة التى بعثت بها الأخت الفاضلة (كريمة) .. وهي ما تجمّع لديها من مقالات لم يسبقْ أن نشرت في كتاب وقد قامت بإعدادهـا وتبويبهـا .. ووضـع الإشارات المهمة عليها .

ومررت على تلك المقالات أنفض عنها غبار السنين فإذا هـي قطـع مـن الألمـاس تبهـر القلوب قبل العيون .. وتسمو بها العقول وتشدوا بها على غصونها العنادل . إنـه رحيـق

عمر عبق نشتم أريجه إبداعًا .. وإشراقًا .. وصدى يهز ساحات الكون بهدير التجارب والبلاغة والفن ليملأ أسماع الأرض بأنه الواثب على الألم .. الرافض للظلمة .. تحس لكلماته وقعًا كالسيف في الحق وكالندى الهتون في الحب كان يستنهض الكرامة في الإنسان ويفتح للأذهان كوة تشرف بها على الحياة . وكان يتفرد بخصوصية تنشد التكامل الأخلاقي وتمقت العبودية والتبعية والخضوع والمذلة للإنسان .. تنبع تلك الخصوصية وذاك التفرد من أسلوب مترف بسحر القول وجمال اللغة .. ممعنٍ في استنطاق الرؤى ، ملدهش في حدته ، مثير في أدائه .. مرتفعٍ في تطلعاته ، متجدد في آماله ، مقنعٍ في آرائه .

وكنت قد قرأت الدكاترة زكي مبارك منذ يفاعتي في كتبه (النثر الفني في القرن الرابع)، (ذكريات باريس) ، (الموازنة بين الشعراء) ، (ليلى المريضة بالعراق) ، (التصوف الإسلامي) ، و(الأخلاق عن الغزالي) وغيرها حينما كنا نتتلمذ على ما كتبه أساطين الفكر والأدب في عالمنا العربي مثل العقاد ، طه حسين ، والرافعي وغيرهم من عمالقة الفكر العربي في تلك الحقبة التي ازدهر فيها الأدب بأولئك العباقرة من كوكبة العلماء والأدباء الذين لولاهم لأظلمت تلك الفترة من وميض الأدب العربي ..

ولكنني عندما أقرأ الدكتور زكي مبارك في هذا الوقت أجده وكأنه كان يستقرئ المستقبل ويرى صورة هذا العالم وقد أعتمت من لهيب الظلم ورانت على الأوطان سحائب الخوف ورهبة الصمت .

لقد رأى بعين المترقب وأحس بحدس النابه الموهوب بأن الأمة سوف تولد يومَ انبثاق الحرية .. وأن الموت سبيل الخلود وأن الهدف يجب أن يتسامى لخير وسعادة الإنسان .

ظلَّ يجسد القيمة بالقدرة ويؤكد الحياة بالخلاص إلى رحلة الموت لا الفناء والعدم التام.. ينظر إلى الوجود نظرة الفاحص المتأمل، العامل المنتج، ينهض بأمة لتكون كما قال سبحانه وتعالى ﴿ كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ .

كان محاربًا على جميع جبهات الفكر ولمعاركه الأدبية نكهة وخصوصية تبعث على الحيوية .. ومنافسة الوقت وتحدي الواقع .. كان يتصدى للأنا الظالمة ويقارعها وهي تحرق ظلال آماله وتشعل أعماق آلامه وكأنه يقدحُ زناد فكره بأطراف الزمن يضيء رغم الوجيعه أشرعة السديم وأخيرًا يموت وهو واقف منتصب على جحود الزمان والأضداد .

ذلك هو الإنسان المفكر الباحث الأديب العملاق الدكاترة زكي مبارك رحمه الله وجزاه عن ما قدمه للأمة خير الجزاء .

ولنبحر معاً في بحاره لنكتشف أسرار الجمال .. وأسرار الحزن .. وأسرار الفكر في هذا الكتاب الموسوم (راية الحرية الأدبية) .

وما كتبته يمثل الإعجاب بالقيمة والقدرة ويؤكد صلات القربى التي تجمعنا في الأدب والعلم نتوارث قيمها وأخلاقها وتساميها ، نتسنم فيها ذرى المجد خالداً تالداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وتظل تيجان الأدب والفكر ترصع جبهة الزمان بهؤلاء الشموس من مفكري وأدباء العصور يتربعون على ذرى الأمجاد والعلا ما شاء الله لهذه الأرضِ أن تدوم وستكتبهم الأرض في الخالدين والسماء تكتبهم في الصادقين وحسن أولئك رفيقا .

الدكتور عبد الله محمد باشراحيل

مكة المكرمة ـ فى ١٢ / ٨ / ١٤٢٤ هـ

****

أدبى أدب حق

وصل خطاب من السودان يدعونى فيه كاتبه إلى أن أصحح ما ينسب إلىَّ فى بعض الجرائد والمجلات من الخروج فى كتاباتى عما ألف الناس فى دنيوات التقاليد لئلا يؤذينى ذلك التجريح .

وأقول إنى لا ألتفت إلى ما يُكتب عنى ؛ ولا أدير بالى إلى خصومى ، لأنهم لا يصلحون للحكم فى قضية الأدب الرفيع .

الأدب ليس مناحة تقام فى أحد الميادين على موت الأخلاق ، كما يفعل المرتزقون باسم الأخلاق ، وإنما الأدب هو الفهم لأسرار الوجود والتعبير عن أسرار الوجود ، بأصرح عبارة وأصدق بيان .

إن كان فى الدنيا من يبكى على الأخلاق فسأكون أول الباكين على الأخلاق .

كان قلمى الرائد لحرية الفكر والرأى ، وما رأيت إنساناً ينتاشنى بقلمه إلا تذكرت أن لى فى عنقه ألف جميل وجميل ، وإن كان الحزن يعصر قلبي حين أتذكر أن المنتفعين بأدبى لم يتخلقوا بأخلاقى ، فقد كنت أحب أن يصيروا إلى ما صرت إليه من الاستغناء بالله عن الناس .

لأكثر الخلائق فى هذا العصر سناد ، وأنا وحدى بلا سناد ، لأنى أعتمد على صاحب العزة والجبروت ، أعتمد عليه أدبًا لا خوفًا ، لأنى آمن غضبه على أرباب القلوب .

أدبى هو الأدب الحق ، فليبك ناس على أنفسهم لأنهم زوروا عواطفهم وسخروها لخدمة الفانين بصورة ملفوفة لا تزيد فى قوتها عن ثوب الرياء .

زكى مبارك

مجلة الرسالة ١٤ / ١١ / ١٩٤٤

المقدمــــة

بقلم : كريمة زكى مبارك

هذا الكتاب يضم العديد من مقالات أديب الأمة العربية الدكتور زكى مبارك . وقد احترت فى اختيار اسم الكتاب ، وأخيراً استقر الرأى على عنوان إحدى مقالات أمير البيان الدكتور زكى مبارك ليكون عنوانا للكتاب : راية الحرية الأدبية .

فى المقالة يقول زكى مبارك :

« تستطيع الشعوب أن تجلس على عرش الملك من تشاء ، ولكنها تعجز عن خلق الأديب لأن الأديب من إبداع المبدع الوهاب » .

الله عليك يا زكى مبارك ...

يقول زكى مبارك إن الأديب أقوى من الناس ومن الزمان وإنه لا يصور غاية زمنية أو محلية وإنما يتسامى إلى غايات تشرف على طوائف الإنسانية ومراحل التاريخ* .

الأديب يسيطر على الحوادث ، ويرفض استعباد الحوادث ، والأديب أشجع منكم لأنه لا يبالى متى يموت ، وهل نسيتم أن الأديب هو الذى يصنع بقلبه ولسانه وقلمه حوادث التاريخ ؟

ليس الأديب مسمارا مأجورا يترنم بما توحى أحوالكم من إطراب وإشباع وإنما هو قيثارة سماوية يحق لها أن تصدع بغير ما تشتهون فى أيام الفرح وما تبتغون فى أيام البكاء، وإن كانت أخويته لكم تفرض عليه أن يكون سنادا لآمالكم فى جميع الأحايين .

الأدب هو الترجمان الصادق للغرائز الإنسانية ولا يجوز أن نطالب الأديب بأن يكون عبدًا لزمانه وأهل زمانه ، وإنما يجب أن يسيطر الأديب على الزمان وأهل الزمان ليؤدى رسالته فى قوة وصراحة وإخلاص .

ويرى زكى مبارك أن رسالة الأديب أن يتجه إلى آمال وطنه من حين إلى حين ، أو فى كل حين وفقا لما يجيش بصدره من نوازع وميول ، ولكن من العقوق للأديب أن نجحد فضله إذا لم يجعل الآمال الوطنية قبلته فى جميع الأحيان** .

---

* مقتطفات من مقالة على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ٨ / ٧ / ١٩٤٠ .

** مجلة الرسالة بتاريخ أول مارس سنة ١٩٤٣ م بتصرف .

والقول الفصل فى هذه القضية أن رسالة الأديب هى خلق ذوق الحياة .

وحول إحياء ذكرى أحمد شوقي بإقامة تمثال تخليدا لذكراه يقول زكى مبارك تحت عنوان : مكانة الأديب فى الجهاد * .

اقترح أحد النواب المحترمين إحياء ذكرى «شوقى» بإقامة تمثال له فى أحد شوارع القاهرة ، وتلك التفاتة لطيفة تدل على قيمة الشعر في نفس بعض النواب .

ولكن أديباً فاضلا تعقب هذا الاقتراح فى جريدة «الدستور» فقال :

يجب أولاً إقامة تمثال لمحمد فريد وتمثال لمحمد عبده وتمثال لقاسم أمين قبل أن يقام تمثال لأحمد شوقى أو حافظ إبراهيم ، ولا بأس بهذا الكلام ولكن الأديب الفاضل علله فقال :

نحن فى عصر السيادة فيه للشجاعة والبأس ، والعبادة فيه للبطولة والأبطال لا للفن والجمال ، وكل مقتحم ميدانا وداك سورا ومنتزع نصرا مقدم على من يجلس فوق رابية آمنة ليرسل من قيثارته ألحانا شجية .

ومعنى هذا التعليل أن أمثال محمد عبده ومحمد فريد كانوا جماعة من المجاهدين ، وأن أمثال أحمد شوقى وحافظ إبراهيم كانوا جماعة من المغنيين .

ومن يعش فى مصر يرى العجب وإلا فكيف يجوز القول بأن صورة الشاعر هى صورة من يجلس فوق رابية آمنة ليرسل من قيثارته ألحانا شجية ؟؟!

وكيف يجوز القول بأن الشعراء ليسوا إلا جماعة يسبحون للفن والجمال ولا صلة لهم بالبطولة والأبطال ؟؟

إن هذا الناقد لا يعرف كيف يحيا الشعراء ، ولا يفهم من الشعر إلا أنه غناء والأدب عنده متعة يلهو بها الفارغون من أهل العبث والمجون .

فمتى يعرف أن حامل القلم هو الوطنى والمجاهد الأول وأن معانى البطولة تعتلج فى صدره قبل أن تعتلج فى صدور القادة والزعماء » .

ترى هل لو طالبت بإقامة تمثال للأديب الشاعر زكى مبارك فى أحد ميادين القاهرة أجد من يرد علىّ بما قاله أحد النواب المحترمين ؟

لا أظن ، فمصر الحبيبة تخلد دائماً وأبدا أبناءها البررة فها هى قد أقامت منذ أشهر قلائل عدة تماثيل فى ميادين القاهرة منها تمثال لأحمد شوقى وآخر لطه حسين وثالث لنجيب محفوظ ... شكرًا لك يا قاهرة ... وصدق من سماك قاهرة .

---

* مقدمة المقالة من على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ٢٨ / ٩ / ١٩٤٢ م .

عزيزى القارئ :

ترى كيف يجب أن تكون الصلة بين الكاتب والقارئ ؟

يرى زكى مبارك أن الصلة بين الكاتب والقارئ منوعة الألوان ، فهناك كاتب يحبه القارئ ، وكاتب يعجب به القارئ ، وكاتب يظفر بالحب والاعجاب .

يقول زكى مبارك*:

ومرد الأمر إلى ذاتية الكاتب ، فإن كان أدبه أدب وجدان فهو جدير بالحب ، وإن كان أدبه أدب ذكاء فهو خليق بالإعجاب ، وإن جمع بين الوجدان والذكاء فهو الكاتب المنشود ، وهو الذاتية الكاملة فيما يرى أصحاب الأذواق وأرباب العقول .

والظاهر أن الأدب الحق يأخذ زاده من الذكاء ومن الوجدان ، فإن خلا من هذين الزادين فهو عرضة للضعف وإن خلا منهما معا فهو إلى فناء .

وقد يظن بعض الناس أن الذكاء والوجدان من المواهب الثوابت وأن من حق الموهوبين أن يتكلموا حين يريدون ... وهذا توهم ، فما يستطيع أعظم عقل أو أكبر قلب أن يجود بالمعانى فى كل وقت وإنما هى بوارق تصدر عن العقل والقلب من حين إلى أحايين .

ومع هذا فمن المؤكد عندى أن العقول تراض وأن القلوب تراض ، ولكن كيف ؟

هناك أغذية لا يعرفها مؤتمر الأغذية ، وهى التأملات فى دقائق الفروق بين الحيوات الحسية والمعنوية ، وهى فروق لطاف لا يدركها غير قلب الأديب وعقل الفيلسوف .

والظاهر أيضًا أنه لابد من التزود بما سميته « الحاسة الفنية » وهى حاسة لا توهب لجميع الناس ، وإنما يختص الله بها من يشاء ، وإلا فكيف جاز أن يكون النوابغ فى كل أمة أحادا وإن زاد أبناؤها على عشرات الملايين ؟

إن الوجود كتاب مفتوح ولكنه لا يقرأ بسهولة ، ولا يجتلى أسراره غير أفراد ، فكيف نصل إلى لبابه المكنون ؟

أعتقد أن مسئوليتنا نحو أنفسنا خطيرة فنحن نضيع فرص التأمل ، ونحن نهيب ما يغضب المجتمع ونحن نجعل السلامة شارة النصر المبين .

الأصل فى الأدب أن يكون ثورة عقلية وذوقية والأصل فى طبيعة الأديب أن تكون قوة موحية ؛ قوة تعطى وتمنح وعنها تصدر أقباس الفكر وألوان الخيال .

وليس معنى هذا أن يعيش الأديب عيش المحاداة للمجتمع ، فالمحاداة المقصودة عناد بغيض ، لكن معناه أن يستقل الأديب عن الموحيات الخارجية ، موحيات الظروف بصورة تجعل أدبه من وحى الخلود .

---

* كلمة على صفحات الرسالة من مقاله بتاريخ ٢١ / ٦ / ١٩٤٣ م .

ويظن ناس أن الكاتب المحبوب هو الذى يحدث قراءه عما يألفون وهذا خطأ فى خطأ، وإنما الكاتب المحبوب هو الذى يمضى بقرائه إلى شعاب من الفكر والروح والوجدان... فمن غفلة بعض الكاتبين أن يأنسوا إلى العامية الفكرية ؛ عامية الرأى المبذول بغير حساب على اختلاف عهود التاريخ . وما قيمة الكاتب إن لم يشعر القارئ بأنه هداه إلى أفق جديد من آفاق العقل والروح ولو بلمحة سانحة فى أثناء الحديث ؟

يجب أن يكون للكاتب ذاتية عقلية وروحية ، عساه يخلق فى القارئ وجدانا يحس به حقائق الوجود . فليس بكاتب ولا مفكر من يكون محصوله نفاضة من أضابير زهد فيها العنكبوت .

والأدب عند كل أمة وفى كل عهد سمو وعلاء ، وهو التعبير الصحيح عن المطامح الكريمة فى السمو والعلاء ، ولهذا كان من أساسه الأصيلة أن يكون طريف الفكرة جميل الأسلوب .

وليس المراد طرافة الفكرة أن تكون رأياً لم يسمع بمثله الناس ، لا ، وإنما المراد أن يكون تعبير الكاتب عنها تعبيرا ذاتيا يجعلها من الطريف بحيث لو تحدث عنها غيره لعدت من الحديث المعاد .

أما جمال الأسلوب فله عندى مقياس يخالف المعروف من المقاييس ، والكاتب صاحب الأسلوب فى نظرى هو الكاتب الذى يشغلك بنفسك حين يوجه إليك الحديث ، ومعنى هذا أن تبرز الفكرة بصورة قهارة ينسى فيها القارئ أنه فى صحبة كاتب ولا يدرك إلا أنه يواجه معضلات يعترك فيها العقل والوجدان .

وهذه البراعة لا تتفق للكاتب ولا تنصاع إليه إلا بعد أن يكون إمامًا فى لغته إمامة صحيحة كونتها الرياضيات الطوال على الأداء المبين بالأسلوب الرشيق .

ويرى زكى مبارك أن الأدباء هم الجيش المرابط فى الميادين الفكرية ، ويستهل زكى مبارك كلمته بهذه السطور[*] :

هو جيش الأدباء الصابرين على مكاره الحياة الأدبية ، وهى حياة لا يصبر على مصاعبها الثقال إلا من تقهره الفطرة على الأنس بالأدب فى جميع الأحوال .

وقد شهد التاريخ واعترف بأن الأمم لا يقام لها ميزان إلا يوم يثبت أن لها حظًا من الروحانية الفكرية والأدبية لأن الفكر والأدب لا يكونان من أنصبة الشعوب إلا بعد النضج المنشود فى العقول والقلوب .

---

[*] من كلمة لزكى مبارك على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ٦ / ٧ / ١٩٤٢ .

ويقول زكى مبارك :

وأقول للمرة الأولى بعد الألف أن الأديب المفكر ليس أجيرا لزمانه وليس أجيرا للوطن ولا للمجتمع فمن توهم أن الأديب المفكر مسئول أمام قوة غير الضمير فهو من أكابر الجاهلين ؟

نحن نخدم الوطن بأقلامنا خدمة لا يعرفها المتحذلقون من عبيد الشواغل اليومية ، نخدمه صادقين لا كاذبين ولا ننتظر منه أى جزاء لأن خدماتنا تجل عن الجزاء .

وماذا يملك الوطن حتى يكافىء المجاهدين من أرباب الأقلام ؟؟ أيمنحهم الألقاب ؟؟ أيمنحهم الأموال ؟؟

وأى لقب أفخم من لقب الأديب ؟؟ وأى ثروة أعظم من روح الأديب ؟؟

وفى المقال نفسه يقول زكى مبارك تحت عنوان : " أين الأمة العربية" :

عند الأمم الأوروبية تقاليد أدبية تستأهل التسجيل فهنالك يؤمن الكاتب بأمته فيؤلف كتابا فى مئات أو ألوف من الصفحات لينشر بعد موته بأعوام طوال . فما معنى ذلك ؟

معناه بأن الكاتب يثق بأن الضمير الأدبى فى بلاده سيعيش ويعيش إلى أن ينصفه من زمانه ولو بعد حين ... وَمَعْناه أن الكاتب يؤمن بالخلود ... ومعناه أن الكاتب يشعر بنائرة الحقد بعد أن يموت .

ومعناه أيضًا أن الكاتب يعرف كيف ينتقم وهو فى غيابة الفناء أو حصانة البقاء .

فأين الأمة العربية لنودعها دفائن صدورنا من أبناء هذا الزمان ؟

وأين من يفتش فى دفاترنا بعد الموت ليرى ما سطرناه فى أخلاق هذا الجيل ؟

جهادنا فى خدمة القلم أضيع من الضياع ولولا الإيمان بأننا نؤدى خدمة قومية لقصفنا القلم بلا رحمة ولا اشفاق ... وعند الله عند الله وحده الجزاء » .

والآن مع كتاب : «راية الحرية الأدبية» أقدمه للقارىء تحقيقا لرغبة زكى مبارك بالتفتيش فى دفاتره بعد الموت ليرى القارئ ما سطره فى أخلاق هذا الجيل .

لقد أخذت أبحث وأنقب وأجمع مقالات قد لا يستطيع معظمنا الرجوع إليها على صفحات الجرائد والمجلات ؛ صفحات جديرة بالحب والإعجاب يَستمتع بها كل من يقرأها فهى بقلم أديب الأمة العربية : **زكى مبارك**

تمهيـــد

بقلم : عادل الشامى

بداية أقول إننى كشاب انتفعت ببعض ما علمته الأيام لكاتبنا الكبير الدكتور زكى مبارك ؛ فقد كان زكى مبارك يسوى حساباته كل عام مع قومه وزمانه ليرى ماذا ربح وماذا خسر .

إن هذه الطريقة لعمرى لهى ذات فائدة كبيرة خاصة لو بدأ كل شاب وسار عليها طيلة حياته ، بحيث يسأل نفسه فى نهاية كل عام ماذا ربح وماذا خسر ؟

إن الخسارة أو الكسب ليست فى المال فقط ، بل يندرج تحت بند الربح والخسارة الأعمال التى نؤديها والأقوال التى قد نرسلها بلا روية ولا تفكير .

يقول زكى مبارك فى استهلال مقالته على صفحات مجلة الرسالة فى الثامن من يناير سنة ١٩٤٠ .

كتب إلىّ أحد تجار الورق يقول : « إنه يرجو أن أرسل إليه ما بقى له عندى ليسوى حساب تجارته سنة ١٩٣٩ ... »

وأنا أيضا أريد أن أسوى حسابى مع قومى ومع زمانى ... ربحت فى العام الماضى أشياء وخسرت أشياء .

وأعظم ربح ظفرت به فى السنة الماضية هو الصداقة العظيمة التى تفضل بها قراء مؤلفاتى ومقالاتى ، فأنا اليوم أشعر شعورا قويا بأن لى أهلا وعشيرة فى سائر الأقطار العربية ؛ وهذا الشعور يزحزح ما يعترض طريقى من عقبات وأشواك ، وبفضل ذلك الشعور أكاد أنسى الأعاصير التى تثور فى وجهى من حين إلى حين .

والكاتب كالموسيقار يسره أن يعرف أنه موصول الأواصر بالعواطف والقلوب ، فمن حدثكم أنه لا يهتم بسخط القارئ ورضاه فاعرفوا أنه يقترف إثم الغرور أو الكذب السخيف.

بعد ذلك تحدث زكى مبارك عن بعض خسائره ومنها على سبيل المثال لا الحصر قوله:

«... وكنت أشتهى أن أزور الحجاز لأكتب عن وطن الرسول كتابا لا يعرف الزور ولا الرياء ، فأين ضاعت أحلامى ؟ »

من هذا أرى أن المسئولية كبيرة ؛ وكبيرة جدا وملقاه على عاتق الشباب لمحاسبة نفسه كل عام ماذا ربح وماذا خسر فى السنة الماضية ، وذلك حتى يتفادى الخسارة مستقبلا إن وجدت ، أو يزيد من المغانم التى حققها .

أيضا انتفعت بدرس من دروس الكاتب الكبير والمربى الفاضل الدكتور زكى مبـارك ، فما هو هذا الدرس ؟

هو الخوف الشديد من أحاديث المجالس ، فلا يجب التكلم أبدا فـى الشئون الدينيـة أو السياسية أو الاجتماعية حين الاتصال بالناس ، أو حين زيارة الأندية .

يقول الدكتور زكى مبارك فيما يقول على صفات مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤١/٨/٤ :

« إن التحريف الذى ابتليتُ به آرائى المدونة فى مقالاتى ومؤلفاتى قـد آذانـى فكيـف يكون حالى لو أرسلت نفسى على سجيتها وحدثت الناس بما أراه فى الأدب والحياة ؟

ارحموا أنفسكم من أوزار التحريف لما يصدر عنكم واعرفوا جيدا أن المبـادئ لا تخـدم بالقيل والقال بين أجواف الجدران ، وإنما يخدم المبادئ القول الصحيـح الـذى يعجـز عـن تحريفه أصحاب الأغراض المراض .

ثم أوصيكم بأن تكونوا رقباء على أنفسكم فلا تقولوا فى السر ما تعجزون عن نشـره فى العلانية ، وما أوصيكم إلا بما أوصى به نفسى ، فأنا لا أقول كلمة فـى مجلس خـاص إلا إذا عرفت أنى أملك نشرها على الجمهور بلا تهيب ولا إشفاق » .

وقد انتفعت كثيرا من وصية زكى مبارك فى كل أعمالى ، ولهذا فأنـا بـدورى أوصـى كل شاب بالحرص على كتمان ما فى يده من أعمال سواء كان محاميا أو محاسبا أو مؤلفا أو .... أو .... حتى ترى أعماله النور بحيث لا يجوز التحريف فيها .

عزيزى القارئ :

إن زكى مبارك بلا شك من جيل غير جيلنا ، ولكن يجدر بجيلنا أن ينتفع بحديث زكى مبارك عندما يوصى الجيل الجديد بأشياء وأشياء .. ويستحسن نقل مقتطفـات مـن كلمـة لزكى مبارك فى هذا الموضوع تحت عنوان : « فى بناء الجيل الجديد » حيث يقول زكـى مبارك على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٣/٥/١٠ :

أعتقد أن الأساس لبناء الجيل الجديد هو خلق الإيمان بالعدل فى تقسيم الحظوظ بحيـث يكون من المفهوم عند الجميع أن فى مقدور كل فرد أن يصل إلى أعظم المنـاصب إذا زود نفسه بالزاد الذى يؤهله لما يتسامى إليه بلا احتياج إلى وسيط أو شفيع .

ولكى نصل إلى هذه الغاية يجب أن نـروض أنفسنا على فهـم المراد مـن العـدل فقـد يصرخ ناس ثم يصرخون بدعوى أنهم لم يؤهلوا أنفسهم لخوض معـارك الحيـاة واقتحـام أسرار المجد ، وهذه آفة لم يسلم منها الناس فى أى زمان .

نحن فى الغالب نطالب بأكثر مما نستحق وندعى لأنفسنا حقوقا لم نبذل فى سبيلها مـا يجب بذله من الجهود ثم نطيل التوجع والتفجع والتحسر على انعدام العدل . وهـل عدلنـا مع أنفسنا حتى نطالب غيرنا بالعدل ؟

لا يجوز تضييع لحظة واحدة بلا استفادة علمية أو أدبية ، ولا يجوز تضييع لحظة واحدة فى القيل والقال إذا كنا نريد أن يكون لنا فى الحياة السامية مكان .

وبعد لأى يختتم زكى مبارك كلمته بقوله :

وخلاصة القول إنى أدعو إلى محاسبة النفس قبل محاسبة الحكومة والمجتمع ، وأرجو أن يؤمن كل فرد بأنه حجر الأساس فى بناء الحكومة وبناء المجتمع إن صحت النية على أن نكون من رجال الأخلاق » .

وأرى أن كلمة زكى مبارك لا تحتاج إلى تعقيب .

ولقد تعلمت الكثير جدا من أديب الأمة العربية الدكتور زكى مبارك ، وهل يصدق القارئ أن زكى مبارك تحدث عن أدب المعاش من سنوات وسنوات ؟

إن أدب المعاش كما يرى زكى مبارك يعنى فن الحياة ؟ وهو الأدب الذى يعلم الناس كيف يقتصدون وكيف يدخرون ، وكيف يواجهون مطالب الحياة فى الشباب والمشيب بجيوب سليمة من مرض الإفلاس .

يقول زكى مبارك فيما يقول - على صفحات مجلة الرسالة فى ١٩٤٢/٩/٢٨ - وقد كان معلما ومفتشا بوزارة التربية والتعليم يقول :

« إن المعلم الحق فى نظرى هو الذى يروض نفسه ويروض تلاميذه على تدبير المعاش، فلا يمكن لمدرس يبدد مرتبه فى الأسبوع الأول من الشهر أن يجد عقله فى الباقى من الأسابيع » .

وبعد لأى يقول زكى مبارك :

«ومهما نهيتكم عن الإسراف فلن أنهاكم عن البر بالفقراء والمساكين ، ولى هنا غاية تجارية عرفت بالتجربة أن الله يعوض ما ننفقه على المعوزين أضعافا مضاعفة ، ومن الواجب أن نستغل كرم الله أجمل استغلال فى حدود ما نطيق » .

ويستطرد زكى مبارك قائلا :

« وأنا مع هذا أرجو من يؤلفون كتب المطالعة لتلاميذ المدارس أن يكثروا من الحث على الادخار ليساعدوا على إنشاء جيل جديد ؛ جيل متماسك لا يتباهى أبناؤه بالإسراف والتبديد ، وإنما يتباهون بالبر والأفضال .

عزيزى القارئ :

إن زكى مبارك يرى أن فن الحياة هو الاعتماد على النفس ، لأن ميادين الحياة فى كل أرض تتسع للعيش ، والعيش يطلب بالعمل لا بالسؤال ، وإن المثال الصحيح للأخلاق هو أن تعرف ما لك وما عليك . فتحب لأخيك ما تحب لنفسك ، وتبغض لأخيك ما تبغض لنفسك ، ويكون رأيك فى تقدير المشكلات الاجتماعية هو الميزان .

ومما قاله زكى مبارك :

إن الاستقامة السليمة هى التى تنبعث من النفس كما يستقيم العود حين تكتمل قواه ، أما الاستقامة التى توجبها قوى خارجية فهى استقامة العود الذى يستر ضعفه بأسندة من الجريد ، وهذا حال الأخلاق التى لا تستقيم إلا بأسندة من القانون .

ويرى زكى مبارك أن آفة الاعتماد على الحكومة زلزلت الثقة بالكفاية الفردية ، وهل يتهالك المتعلمون على الوظائف الحكومية إلا ليقال : إنهم وصلوا إلى شىء فى بلد يرى الوظيفة كل شىء ؟

الأساس الذى أراه لبناء المستقبل أن تكون روح الشعب ممثلة فى كل فرد ، فيكون الرجل حاكما ومحكوما فى آن واحد ، حاكما لهواه ومحكوما لنهاه ، ثم تتلاقى قوى الأفراد كما تتلاقى القطرات الطاهرة من الغيوث فتخلق نهرا فى مثل عظمة نهر النيل .

وأخيرا يقول زكى مبارك :

« ولنكن رجالا يستفتون ضمائرهم فى جميع الشئون ولا يخافون الناس لأن النزاهة الروحية تخلق الأمان والاطمئنان ولأن الصدق يحمى صاحبه من عدوان الباغين الظالمين .

عزيزى القارئ :

يدعونا زكى مبارك إلى التمسك بالصدق فى أفعالنا وأقوالنا ، وهو يرى أن الصدق لا يقوم بثمن لأنه فوق التقويم وفوق التثمين ، وما فاز فائز بغير الصدق ولا خسر خاسر إلا بسبب مجانبة الصدق .

يقول زكى مبارك على صفحات مجلة الرسالة فى أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ :

تعود الصدق مع الله فى سرك قبل جهرك ، وإن صدقت مع الله فستصدق مع الناس.

أصدق مع الله لتذوق نعيم الصدق ، ولتؤمن بأن كل شىء ما خلا الله باطل وأن رضاه أنفس من جميع الحظوظ .

أيضا يقول زكى مبارك :

أنا أخاف عليك غضب المحكمة السماوية لا لأنها قد تسارع إلى البطش بك ولكن لأنها قد تملى عليك أن تفضح نفسك باقتراف الآثام الغلاظ من أمثال الزور والبهتان» .

عزيزى القارئ :

أنا أقدم لك اليوم كتابا جديدا لأمير البيان زكى مبارك ، يقول زكى مبارك فيما يقول على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ١٨ / ١٠ / ١٩٤٣ ، فى كلمة نقتطف منها بعض السطور من هنا وهناك :

الكتاب هو سر العظمة الأوربية .

هل تذكرون كلمة كارليل حين قال إن إنجلترا تفضل آثار شكسبير على أقطار الهند لو أكرهتها الحوادث على الاكتفاء بأحد هذين المغنمين ؟

والكتاب هو السر فى عظمة أجدادنا .. وقد كان من أجدادنا من يحج بيت الله ويقف فى عرفات للسؤال عن كتاب .

كان المسلمون حين يستنفرون إخوانهم للدفاع عن بلد من بلاد الأندلس يقولون إنه وطن النوابغ من المؤلفين والشعراء .

عزيزى القارئ :

وأخيرا أقول لك إن زكى مبارك كان يعلمنا الكثير من الدروس التى تفوق العد والإحصاء وهى مما يجب الالتفات إليها فى كل زمان ومكان .. ولو حاولت أن أقدم للقارئ بعض ما طالبنا به زكى مبارك من التمسك بالفضائل لضاقت صفحات هذا الكتاب عن استيعابه .

فهنيئا لك عزيزى القارئ بهذا الكتاب الجديد الذى نقدمه من تأليف الكاتب والشاعر زكى مبارك ، وكما يقول زكى مبارك :

إن الكاتب الحق هو الذى يشغلك بنفسك ويوجهك إلى مصيرك المنشود ويفرض عليك درس غرائزك وأهوائك من دون أن يفكر فى حملك على الإعجاب بخصائصه الإنشائية .

إن الشاعر لا يفكر فى إرضاء الناقدين وإنما يفكر فى تأدية الرسالة الموحاة إليه من عالم الغيب ، أو عالم الطبع ، ولا يهتم بعد ذلك أن يقال :

إنه عرف شيئا وغابت عنه أشياء ؛ والشاعر الإنسان يجد لعواطفه صدى فى جميع البلاد، أما الشاعر "المحلى" فأفقه ضيق محدود ، وما أريد الغض من العواطف التى توحيها الأطوار المحلية ، وإنما أريد أن يتغلغل الشاعر والكاتب فى أعماق الأرواح والقلوب بحيث يحدث قراءة عن آفاق روحية وعقلية لا يهتدون إليها إلا بوحى من العقل الملهم والقلم البليغ .

والآن ......

الآن مع زكى مبارك وراية الحرية الأدبية .

عادل الشامى



كأنك في دار الكتب

كأنك في دار الكتب إذ تدخل إحدى الغرف التي خصصها الدكتور زكي مبارك لمكتبته في داره بمصر الجديدة. فقد تكدست خزانات شتى المؤلفات العربية والأجنبية قديمها وحديثها، حتى بلغ عددها حوالي سبعة آلاف مجلد. وترى الدكتور مبارك يشير إلى نجله الذي رقى سلما خشبيا، ليحضر المرجع من مكانه المرتفع

الدكتور زكي مبارك يقول:

مؤلفاتي قيّمة ولاداعي للتواضع

عرف القراء في الأعداد الثلاثة الماضية، كيف يؤلف الأساتذة: العقاد، والبشري، وهيكل، وماذا يربح كل منهم من مؤلفاته. وهذا هو الكاتب الكبير الدكتور زكي مبارك [illegible] في هذا العدد كيف يؤلف وكم يربح من التأليف.

كان في صباه من تلاميذ [illegible] الأزهر القديمة من الأزهريين. كما كان من زملاء هؤلاء في الثورة المصرية. وحضر [illegible] وترك الأزهر إلى الجامعة المصرية القديمة. فكان التلميذ الأول لدكتوراها — الأزهري السابق — طه حسين.

وتمتاز كتابته بالبساطة والوضوح والإلمام [illegible] بالموضوع الذي يكتب فيه. وهو حين يكتب لا [illegible] الخصوص إلى المكتب. ويجد [illegible] الكتابة [illegible] بين تلول بعضها فوق بعض من الكتب والجرائد والمجلات. مكثرا [illegible] من التدخين. وشرب الشاي. وعلى هذا كان [illegible] حتى وهو في [illegible] وقلمه [illegible] فإذا نأى فعليل من المرض في الصحراء [illegible] من منزله بمصر الجديدة. [illegible] مطواعا كما كان

والدكتور زكى مبارك هو المصرى الوحيد
نال درجة الدكتوراه ثلاث مرات ، من
. باريس ، وهو من كبار المطلعين ، وفى
ته الخاصة نحو سبعة آلاف من المجلدات فى
ب وتاريخه ، والتربية ، وعلوم الدين
رها . كما انه من اكثر المؤلفين انتاجا ،
مؤلفاته : « مدامع العشاق » و « حب ابن
ربيعة وشعره » و « النثر الفنى فى القرن
ابع » و « التصوف الاسلامى » و « ليلى
يضة فى العراق »

وللدكتور ديوان شعر أخرجه فى السنين
خيرة ، واذا كان النقاد لم يعدوا الدكتور من
ل الشعراء ، فالواقع ان كثيرا من العواطف
اجحة ، والحب العميق ، وسمو الخيال ،
سعى وراء المثل العليا ، والدعوة اليها .
ر بوضوح فى كل ما للدكتور من آثار

وفيما يلى اسئلة شتى ألقتها عليه «الاثنين»
لاجوبة التى رد بها

...

– ما هى أحب الاوقات اليك عند الكتابة
التأليف ؟

– هى أوقات الليل حين يهدأ البيت وأشعر
لصفاء

– هل تميل الى جو خاص عند الكتابة
التأليف ؟

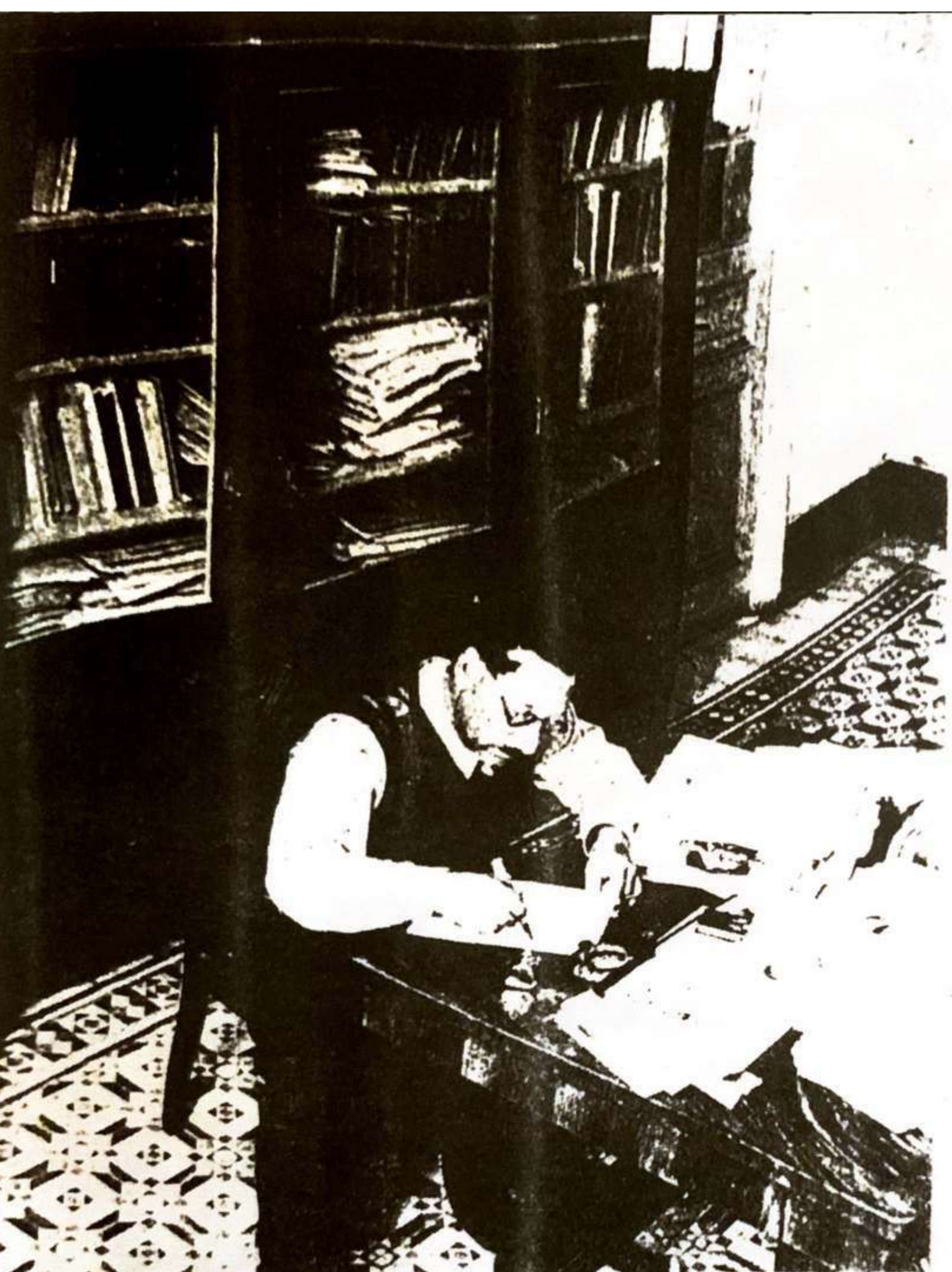
– الجو الذى أحبه هو الشعور بالهدوء
طلق ، ولا يكون ذلك الا حين يأوى أبنائى
ى مضاجعهم ، أو حين أعرف انهم مشغولون عنى
اجباتهم المدرسية

– ما هى أعز ذكرى عندك لاعز كتاب ؟

– كتاب « النثر الفنى » عزيز على جدا ،
لانى أخذت به الدكتوراه من السوربون ونشرته
حدى دور الطباعة فى باريس ، ولانه حين ظهر
ى مصر باللغة العربية كان سبب الخصومة بينى
وبين الدكتور طه حسين بك ، وهى خصومة
عادت على الادب بالنفع الجزيل ، وقد فترت
تلك الخصومة مع الاسف ، ولم يبق لى عدو
ترشه بقلمى حين أشاء

– أهذا أعز كتاب عليك ؟

– أعز كتاب على هو كتاب « التصوف
الاسلامى » لانى انتزعت به درجة الدكتوراه
فى الفلسفة برتبة الشرف من الجامعة المصرية .
فى وقت كنت فيه خصما لمدير الجامعة ، وعميد
كلية الآداب . وكان ظفرى بتلك الدرجة
شاهدا على ان الجامعة قد تعرف أحيانا معنى العدل



على مائدة الطعام يكتب

على مائدة الطعام يحلو للدكتور زكى مبارك أن يكتب بين تلول من الكتب والجرائد والمجلات . . وتراه مستغرقا فى كتابة بعض خواطره ، ممسكا بسيجارته المشتعلة بيسراه

– هل تعتقد انك مؤلف أو أديب ؟

– أنا مؤلف فى كتاب «الاخلاق عند الغزالى» وكتاب « النثر الفنى » وكتاب « التصوف الاسلامى » ، وفى الرسالة التى حققت بها نسب كتاب الام ، وفى شرح الرسالة العذراء ، وفى كتاب عبقرية الشريف الرضى . وأنا فى سائر مؤلفاتى أديب تهمه صحة الفكرة وطرافة الخيال وعذوبة الاسلوب

– وما هى أهم مؤلفاتك من الوجهة الادبية ؟

– مؤلفاتى كلها مهمة ، ولا موجب للتواضع السخيف ، ومع ذلك أعتقد ان كتاب « ليلى المريضة فى العراق » كتاب نفيس جدا ، وما رجعت الى النظر فيه الا عجبت من الثروة الادبية والفكرية التى تواجه القارىء فى ذلك الكتاب العجيب

– يقول خصومك انك تكثر من الثناء على نفسك

– هذا صحيح . وله سبب معقول ، وهو اساءتى بحالتى الذاتية

(البقية على صفحة ٤٣)

ـ ما هو عدد مؤلفاتك ؟ وما هى الكتب التى طبعتها أكثر من مرة ؟

ـ لا أذكر عدد مؤلفاتى ، وإن كنت أعرف أنها قاربت الثلاثين مجلدا ، أما الكتب التى تكرر طبعها ، فهى «الموازنة بين الشعراء» و«البدائع» و«حب ابن أبى ربيعة» و«عبقرية الشريف الرضى» و«مدامع العشاق» ، وقد نفدت طبعة كتاب «الأخلاق عند الغزالى» وسأطبعه مرة ثانية حين تعتدل أسعار الورق بعد انقضاء محنة الحرب .

ـ هل انتفعت بالتأليف من وجهة مادية ؟

ـ جواب ذلك عند الناشرين ؛ أما الكتب التى نشرتها بنفسى فلم أخسر فيها شيئا ، وأنتظر أن تكون لى مكاسب جزيلة من كتاب «ليلى المريضة فى العراق» وكتاب «التصوف الإسلامى» وكتاب «الأسمار والأحاديث» وكتاب «عبقرية الشريف الرضى» ولى كتب ستملأ جيوبى ذهبا حين تطبع .

ـ ما هى تلك الكتب ؟

ـ سأفاجئك بها ، يا شيطان ، حين تعتدل أسعار الورق .

ـ هل ترى أن التأليف يصلح مهنة ؟

ـ لا أثق بذلك فى الوقت الحاضر ، لأن القراء فى مصر وفى سائر الأقطار العربية لا يشترون من الكتاب الواحد غير ألفين أو ثلاثة آلاف ، وهذا لا يكفى لأن يعيش الكاتب من التأليف برخاء .

ـ وما هو السبب فى قلة إقبال القراء على المؤلفات ؟

ـ يرجع السبب إلى تقصير الصحافة فى التنويه بالمؤلفات الجديدة ، وقد حملنى ذلك على البخل بإهداء مؤلفاتى إلى الصحفيين ، ومنهم إخوانك بدار الهلال .

ـ لو أهديتنى كتابا لقرظته فى مجلة «الاثنين» .

ـ سأهديك كتاب « ليلى المريضة فى العراق» وأنا أعرف أنك لن تشير إليه بحرف واحد لأن الصحفيين لا يعرفون واجبهم فى تشجيع التأليف فإن وفقك الله وكتبت كلمة فى التنويه بكتاب ليلى فسأهدى إليك مجموعة مؤلفاتى وثمنها لا يقل عن أربعة جنيهات ، وهى أجمل ما تزدان به مكتبة الصديق أميل بك زيدان .

راية الحرية الأدبية

للدكتور زكى مبارك

فيما كتب الأستاذ الزيات والدكتور عزام عن « البلايا التى تكابدها البلاغة فى هذا العصر » تذكيرٌ بغضبات ابن قتيبة فى القرن الثالث، والجرجانى فى القرن الخامس. وقد جاء هذا التذكير فى الوقت المطلوب، جاء بعد انحراف قد يزعزع مركز مصر الأدبى فى الشرق، إن لم تسنده الأقلام المصرية بأسندة متينة من الحق والصدق واليقين(*) .

وأقول من جديد إنه لا حياة للأدب فى مصر إن لم تكن لأهله عقيدة أدبية، عقيدة يرحّب صاحبها بجميع المتاعب فى سبيل الأدب الصحيح، ولا يبالى أين يكون مصرعه ما دام على وفاق مع ملائكة الفكر وشياطين البيان. والعقيدة الأدبية توجب أن نكون صادقين فيما نكتب وفيما نقول، بحيث يطمئنّ القراء إلينا كل الاطمئنان، وبحيث لا تخفى عليهم خافية من سرائرنا الفكرية، ولو جنحنا فى التعبير إلى الرموز والتلاميح.

القارئ صديق - وإن لم يتعرف إلينا بصورة شخصية - وللصديق حقوقٌ أهمُّها اطّراح الرياء، فمن العبث أن يخطب قومٌ وداد القارئ وهم لا يَلقونه إلا مرائين .

والأصل فى الأدب أنه تعبيرٌ طريف عن أغراض الحياة والأحياء . وإنما قلت « تعبير طريف » لأبدد الشبهة التى تقول بأن الأدب هو تصوير المشاعر والعواطف بالصدق الذى يماثل صدق الصورة الشمسية، فالقارئ لا يفرح بأن الكاتب حدثه عما يجول فى صدره بالحرف، وإنما يسره ويبهره أن يجد فى تلك الصورة ألوانًا لم يلتفت إلى مثلها من قبل، على شرط أن لا يزيغه التلوين عن الصدق. وعلى شرط أن يكون الجانب الطريف أظهر الجوانب فى الأداء.

فأين نحن من هذه المعانى فى هذا الزمان ؟

من المحقق أن الأدب عندنا فى ازدهار، ولكنى مع ذلك أعانى ضروبًا من التخوف. فالجماهير فى مصر لم تشعر إلى اليوم بأن الأدب صار قوتًا لا تطيب بدونه الحياة. ولم نسمع أن الجماهير مستعدة للمساعدة على نشر كتاب يعجز عن نشره أحد كبار المؤلفين. ولم نسمع أن كتابًا أعيد طبعه عشرين مرة فى أشهر معدودات، كما يقع ذلك فى بعض الممالك التى تعانى شهوات العقول.

(*) ١٩٤٢/١٢/١٤ مجلة الرسالة العدد ٤٩٣ .

فما أسباب هذا الجمود ؟

أخشى أن أقول إننا لم نَصر كتّابًا ولا مؤلفين بالمعنى الصحيح للكتابة والتأليف.

أخشى أن أقول إننا عجزنا عن خلق الجاذبية الأدبية، وسيحكم علينا التاريخ بما لا نريد، فسيقول أقوامٌ إن مصر عانتْ زمنًا لم يعرف أدباؤه كيف يرفعون البراقع عن الأقلام، ولم يفكروا فى رفع الأمية الفكرية عن عقول القراء.

أعوذ بالله من بعض ما أرى وبعض ما أقرأ وبعض ما أسمع !

وبالله أستعيذ من زمن تضعف فيه الأبوّة الروحية، أبوّة الباحثين والمفكرين !

ومع هذا فالأمة المصرية هى هى لم تتغير ولم تتبدل، الأمة التى تستمع كل قول وتستجيب لكل نداء، ولم يَفتُر نشاطها الذهنى فى أى وقت، ولكن أين من ينتفع بالحيوية المكنونة فى ضمير الأمة المصرية ؟

انتفع السياسيون من أمثال : مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول، لأنهم جاهدوا وناضلوا وكافحوا، ولأنهم حددوا أهدافهم تحديدًا لا يتطرق إليه الارتياب، ثم رحبوا بجميع المتاعب فى سبيل تلك الأهداف.

فماذا صنع الأدباء ليسيطروا بالقوة الروحية، كما سيطر أولئك بالقوة السياسية ؟

قد يقال إن الوطنية وتَرٌ حسّاس، فهى السرّ فى نجاح أولئك الرجال.

وأقول إن النزعة الإنسانية أقدم وأعمق من النزعة الوطنية، فلو جاهد الأدباء جهاد الصدق لكان لهم فى أمتهم تأثيرٌ لا يصل إليه كبار الوطنيين، ولكان من السهل أن تكون مبادئهم شرائع يعتصم بها السياسيون.

وأعجب العجب أن يكون فى الأدباء من يطلبون الاستقلال لأمتهم ولا يطلبونه لأنفسهم، كالأدباء الذين يعيشون تحت وصاية الأحزاب السياسية راضين وادعين ناعمين، كأنهم ظفروا بكنوز قارون، وكأن آلهة الفن هى التى ألهمتهم ذلك المذهب من مذاهب المعاش، مع أن القلم أكبر وأعظم وأشرف من أن يتشوف صاحبه إلى الاستقلال بظلال الأحزاب.

لا عيب فى أن يكون للأديب حزب ينتمى إليه إذا اقتنع بالتحزب فى سبيل القومية. ولا عيب فى أن تكون للأديب مطامع سياسية، ولكن العيب كل العيب أن يكون الأدباء ذيولاً تجرجرهم التقلبات الحزبية، وتدوسهم سنابك الأهواء.

إن جهاد مصر الأدبى لا يقل عن جهادها السياسى، فقد استطاع فريق من أدباء مصر أن يرفعوا اسم وطنهم فى الشرق، ولكنهم مع الأسف عجزوا عن رفع اسم الأدب فى وطنهم، لأنهم غفلوا عن واجب المصابرة تحت الراية الأدبية، واكتفوا بالتغنى تحت الراية الوطنية.

ألم أقل لكم إن الأديب ليس أجيرًا للوطن ولا أسيرًا للمجتمع ؟

وما قيمة الوطن إن لم يفرح بأن ينبغ فيه المفترعون لأبكار المعانى ؟

فى القسم المصرى بمتحف اللوفر فى باريس تمثالان ناطقان : تمثال الفلاح المتربع تحت الشمس وهو يتذوَّق السكون والخمود، وتمثال الكاتب المتربع وهو مهمومٌ يستعد للانشاء. وتلك صورة مصر فى القديم والحديث، فمن أبنائها من يفرح بالنعيم البليد، ومن أبنائها من يفرح بالشقاء السعيد. والأشقياء بالمعانى هم السعداء، يوم يوضع للسعادة تعريفٌ صحيح.

ألم يأن للأدباء أن يعرفوا واجبهم نحو الأدب ؟

ألم يأن للزمن أن يسمح بأن تقوم فى مصر دولة أدبية لا تعرف غير الصدق فى البيان عن أوهام الأهواء وأحلام القلوب وأوطار العقول ؟

أمن المستحيل أن يقول أديبٌ « أنا » فى هذه البلاد ؟

ألا يوجد فينا من يتوكل على الله وحده ليملك الغنى عن الناس فيكتب ما يكتب ويقول ما يقول فى صراحة وإخلاص ؟

عذرت من عاشوا فى زمان الظلم، فما عذر من يعيشون فى هذا الزمان ؟

إن حرية التفكير مكفولة للجميع، على شرط السلامة الفكرية، فما الذى يوجب أن يكون الأديب إمَّعة لا ينطق أو يصمت إلا وفقًا لبعض الموحيات الأجنبية عن جو العقل والروح ؟

وما الموجب لأن يتفاضل الأدباء بالقدرة على الرياء، وهو سناد المهازيل، وعماد المعاليل، ودعام المناخيب ؟

لقد وُضع الورق فى التسعيرة الجبرية قبل أن يوضع الفول، ومع هذا لا يفهم ناس أن قوت العقول يسبق قوت البطون !

إن الأدب الكاذب ينفع، فكيف يضر الأدب الصادق ؟

والأدباء المستعبدون يُفلحون، فكيف يخيب الأدباء المستقلون ؟

جرِّبوا الصدق مرةً واحدة، يا أدباء هذا الزمان، وحاولوا مرةً واحدة أن يكون لكم وجودٌ منزَّه عن التبعية، ولو كانت فى أشرف الأوضاع، ليصح لكم القول بأنكم من دعاة الحرية والاستقلال.

إن محنة الأدب فى هذا العصر محنة عاتية، وهل توجد محنة أقسى من محنة العبودية ؟ ولأى سبب ؟ للقوت الذى لا يبخل الله به على ضعاف النمال !.

إن الأديب المصرى لم يُخلق بعد، الأديب الذى يستوحى نجوم السماء لا نجوم الأرض، الأديب الذى لا يخاف الجوع، لأن له زادًا من الحب والنسيم، الأديب الذى لا يخشى التوحد، لأن التوحد هو أنس الأسود .

التصوفُ خلق أول مرة فى مصر، فى عهود سبقت عهود الفراعـين. عنـا أخـذ النـاس معانى الروحية، فهل يعاب علينا أن ندعو إلى الصوفية الأدبية ؟

ولكن أين الأديب ؟ أين لا أين، فقد طوقت المنافع ألباب الأدباء فى هذا الزمان ؟ !

إن وُجد الأديب المصرىُّ المنشود فسيكون المرجع لأقطاب السياسة وأعيـان المـال، لأن الأدب هو الميزان لفهم مطالب الحياة وحقائق الوجود.

وهنا تظهر إحدى الدقائق الروحية : فالميزان لا يستفيد مما يَزِن، وإنما يسـتفيد الـوزان، فيا أدباء مصر كونوا موازين لا وزّانين.

آه ثم آه !!

إن الذى يملك بعض المنافع فى هذه البلاد يعتز ويستطيل، فكيف يجوز لحامل القلـم أن ينسى نعمة اللّه عليه فيتمسّح بهذا الركن أو ذاك ؟

وما الذى يمنع من أن نجرّب حظنا مع اللّه، وقد جربنا الحظوظ مع الخلائق ؟

لقد عفا اللّه عن سفهاء الأدب فـأورثهم الخلود، برغـم تردّيهـم فـى هـوّة الـتزلف إلى الوزراء والأمراء والخلفاء.

قال أبو نواس فى مدح الأمين :

علقتُ بحبل من حبال محمد أمِنتُ به من طارق الحدثانِ

فغضب اللّه عليه وعلى الأمين وأوردهما موارد البلاء.

واعتزّ البحترى بصحبة المتوكل فضاع الأول وهلك الثانى.

أنا أدعو الأدباء إلى التخلق بأخلاق الصوفية... هل تذكرون بعض مذاهب الصوفية ؟

اسمعوا هذا الحديث : انتفع الصوفية بسماحة الإسلام، وهـو دينٌ يـأبى أن يكـون بـين المسلم وربه وسيط، فقرروا أنهم أرفع من الأنبياء، وهذا كفـرٌ بظاهر القـول، ولكنـه فـى الجوهر غاية الإيمان، لأن المهمّ أن تصحّ الصلة بصاحب العـزة والجـبروت، والأنبيـاء عبـاد اللّه قبل أن يكونوا مرسلين وبعد أن كانوا مرسلين، وهم أشرف مـن أن يدّعـوا مشـاركة الخالق فى طاعة المخلوق.

ومشكلة الأدباء أهون من مشكلة الصوفية، فنحن لا ندعوهم إلى الترفع علـى الأنبيـاء، وإنما ندعوهم إلى الـترفع على النـاس. ندعوهـم إلى أن يعرفـوا أنفسـهم. ندعوهـم إلى أن يعرفوا نعمة اللّه عليهم. ندعوهم إلى التنسـك فـى سـبيل المبادىء الروحيـة. ندعوهـم إلى إنقاذ الأدب من مزالق الرياء.

فلان الذى يكتب فى المجلة الفلانية عن الدين والأخلاق لا يستبيح المرور بشارع فؤاد ولا عبور جسر قصر النيل، مخافة أن يقول الناس إنهم رأوه يسير هنا أو هناك .

فكيف تعبدون اللّه يا عَبيد الناس، وهل يعبد اللّه من يخاف الناس ؟

إطرحوا هذه البراقع. إطرحوها، إطرحوها، واللّه المسئول عن أقواتكم إن ضاعت بسبب الصدق فبينكم وبين الله عهدٌ وثيق، عهد يقضى بأن لا تكون العزة لغير الصادقين، واللّه لا ينقض الميثاق .

فى كل ميدان فرصٌ ينفع فيها التمرين والتدريب، إلا الأدب، فهو موهبة ربانية لا تنال بجهاد الأنفس والأموال، ولا يظفر بها الملوك، إلا إن كانوا موهوبين.

تستطيع الشعوب أن تُجلس على عرش المُلك من تشاء، ولكنها تعجز عن خلق الأديب، لأن الأديب من إبداع المبدع الوهاب، ومن كرم اللّه على الأنبياء أن جعلهم فصحاء. وهل فات موسى أن يسأل اللّه تأييده بلسان هرون ؟

الأدب سلطنة لا يجوز عليها الذل والكفر بالأدب كفرٌ بحق اللّه فى اصطفاء من يشاء ثم ماذا ؟

ثم يبقى القول بأن إيمان الأدباء باللّه ضعيفٌ ضعيف، فما زالوا يتوهمون أن لهم حوائج مع الخلائق، وهذا شِرْكٌ لا يرضاه اللّه ولا نرضاه.

أنا أعرف السر فى انهيار دولة الأدب فى جميع الأجيال، فقد كان الأدباء يجافون اللّه ويصافون الناس.

فيا أيها المبدع الأول والأخير لأنوار القلوب وأضواء العقول، تفضلْ فاجذبنا إليك، حتى لا نرى روحًا سواك، ولا نشهد إلا إياك، ولا نستجير بغير حماك، ولا نعتمد إلا عليك فما يعتمد على الخلائق غير الأذلاّء .

الأدب خير ما أبدعتَ، فهو منك وإليك، ولك الحمد وعليك الثناء.

* * *

روحانية الحياة المدرسية(*)

للدكتور زكى مبارك

مهنة التعليم توحى إلى النفس طمأنينة لا توحيها أية مهنة، لأن التعليم يقوم على أساس من شرف الغرض لا يعادله أى أساس. والإحصائيات تثبت أن المعلمين أقل الناس تعرُّضًا للآفات النفسية، بسبب تلك الطمأنينة الروحية... وبرغم كثرة التشكى من الغبن الذى يلاحق مهنة التعليم فإن حال المعلمين فى مصر من أحسن الأحوال، فأكثرهم بحمد اللّه صاروا من المياسير، ولعلهم الطائفة الوحيدة التى أعفاها اللّه من التعطل فى هذا الزمان .

والمتأمل يلاحظ أن اللّه يبارك فى أعمار المعلمين وفى أرزاقهم بقدر ما يضمرون من الاخلاص، وبقدر ما يقاسون من العناء، لأنها مهنة لا يستريح فيها غير من يرحب بالشقاء، إن جاز أن يكون مع الإخلاص فى هذه المهنة شقاء.

والآفة التى تكدر حيوات المعلمين هى آفة الأسلوب القديم فى الترقيات؛ فترقية المدرس بمدرسة ابتدائية هى نقله إلى مدرسة ثانوية، وترقية المدرس بمدرسة ثانوية هى نقله إلى مدرسة عالية أو نقله إلى التفتيش.

وكنت أرجو أن يكون الأمر بالعكس. كنت أرجو أن تكون المدرسة الابتدائية هى المكان المختار لأكابر المدرسين، ليستطيعوا خلق الروحانية فى الحياة المدرسية، وليكون ذلك شاهدًا على الإيمان بقدسية التعليم .

المبتدئ هو الذى يحتاج إلى المدرس الكبير العقل والروح، المدرس الذى صقلته التجارب وراضته على فهم الغرائز والنفوس.

والتلاميذ فى المدارس الابتدائية يحتاجون إلى رياضة روحية يقوم بها مدرسون روحيون، وهم الذين صاروا فى حكم الآباء، ليكون انتقال التلميذ من البيت إلى المدرسة انتقالاً من رعاية أبوية إلى رعاية روحية.

والحق أن المدرسة الابتدائية هى الأساس، فإن استطعنا أن نخلق فى تلاميذها الشوق إلى الحياة العلمية فسيقل خوفنا عليهم حين يتحولون إلى المدارس الثانوية.

(*) مجلة الرسالة العدد ٥١١ بتاريخ ١٩٤٣/٤/١٩ .

والحق أيضًا أن العُرف الذى قضى بأن يكون المدرس فى الثانويات أعلى من المدرس فى الابتدائيات قد زعزع قدسية التدريس.

يضاف إلى هذا أننا أوجبنا أن تتأثر الترقيات بتلك الاعتبارات؛ فالمدرس فى الثانوى مرتبه أكبر من المدرس فى الابتدائى، وكان ذلك لأن المدرس يبدأ عمله فى المدارس الابتدائية، ثم يتحول إلى المدارس الثانوية بعد أعوام قصار أو طوال.

وليس عندى من الاقتراحات ما يصلح لتغيير هذا المنهاج، فقد فكرت كثيرًا فى حل هذه المشكلة، ولكنى لم أصل إلى شىء، فهل أستطيع القول بتحويل بعض مدرسى التعليم الثانوى إلى التعليم الابتدائى ؟

وهل أستطيع القول برد جماعة من المفتشين إلى التدريس طائعين لا كارهين ؟

إن مهنتنا لن ترتفع إلا إذا رحب بها كبراؤنا، ولو دعوناهم إلى التعليم بالمدارس الأولية، وهى النواة الأصيلة للتعليم والتثقيف.

الطفل فى مدارسنا يتيم، لأننا نبخل عليه بأكابر المدرسين.

قلت مثل هذا الكلام منذ أعوام فى مجلة الرسالة فسخر منه سعادة الأستاذ عوض بك إبراهيم، وأشار إلى أحد مريديه أن يكتب كلمة فى جريدة الدستور يقول فيها : إن وزارة المعارف عملت باقتراحى فعينتنى رئيسًا للمدرسة الأولية بقصر الشوق !.

وأين من يعرف أنى أعتقد أن الذى فاتنى فى الحياة التعليمية هو أن أكون رئيسًا لمدرسة أولية ؟

لو سمحت الظروف بأن أكون مربيًا لمئة طفل لرجوت أن أخلق منهم أشبالاً يكونون فى طليعة الجيل الجديد.

ما هذا التعالى الذى لا يليق بمهنتنا العالية ؟

المدرس جندىٌّ أمين، والجندىُّ الأمين لا يقف إلا فى مظان الحتوف... وتعليم الأطفال مَتعبَة لا يضطلع بها غير كبار الرجال.

المهم هو النص على تنزيه مهنتنا من الظواهر الخوادع، فلا يكون فيها فاضل ولا مفضول إلا بمقدار التفاوت فى الإخلاص.

المعلم فى المدرسة الأولية يستطيع مساواة الأستاذ بالجامعة إن صدق من الوجهة المعنوية. وهو لصدقه سينسى فروق الرواتب، لأن أساتذة الجامعة لا يصلون إلى مناصبهم إلا بعد جهود لا يستطيعها غير أفراد، فمن حقهم أن يمتازوا برواتب تعينهم على متابعة ما يجد من التراجم والتآليف، وعلى مسايرة حيوات العلوم والآداب والفنون.

المعلم فى مدرسة أولية يقيم بيته وهو فى صباه، أما الأستاذ بالجامعة فلا يقيم بيته إلا بعد أن يكتهل، فعلينا أن نعترف بأن من واجب الدولة أن تراعى حقه فى الجهود التى بذلها من شبابه ومن أمواله ليصلح للحياة الجامعية.

وخلاصة القول أنى أرى روحانية المدرسة تتبع روحانية المدرس، وأرى أن نلتفت إلى المدارس الابتدائية بأكثر مما نصنع، كأن نختّصها بأكابر المدرسين، وكأن نغّير النظرة المألوفة إلى طبقات المدرسين، بحيث لا يكون طول الثواء بالمدرسة الابتدائية مانعًا من أن يظفر المدرس بمثل نصيب زميله فى المدرسة الثانوية من الدرجات والترقيات.

ويوم يكون من حق المدرس أن يفتخر بأن وزارة المعارف رأت أن يقضى حياته كلها فى التعليم الابتدائى لمزايا تعليمية يكون من حقنا أن نطمئن إلى سيادة الروحانية فى الحياة المدرسية.

أقول هذا وأنا أعرف أنى أطلب غرضًا لا يتحقق إلا بعد رياضات نفسية تحتاج إلى آماد؛ فالمدرسون فى جميع بقاع الأرض يريدون الفرار من المدارس الأولية والابتدائية، ولا يرضى الرجل منهم عن حاله إلا إذا صار إلى التعليم الثانوى ثم العالى. وهذه نزعة تأخذ وقودها من قوى النفس، وليس لها فى نظر التعليم سناد.

* * *

أترك هذا وأنتقل إلى مسألة ثانية، هى صلة التلميذ بالمدرسة، الصلة التى توجب أن يحبها أصدق الحب، على نحو ما كان التلاميذ فى بعض العهود الماضية.

والواقع أن تلميذ اليوم تجتذبه قُوًى خارجية لم يعرفها التلاميذ من قبل... وهل ننسى أن المساجد كانت قبل عشرين سنة ملتقى التلاميذ فى أوقات المراجعات ؟ فأين نحن من ذلك الحال الجميل ؟

لابد من جهاد لجذب التلميذ إلى المدرسة، بحيث يحبها حب العقل، وهو أصدق الحب.

يجب أن نصل إلى إقناع التلميذ بأن روح المدرسة هو الروح الصديق، وأن أوقاته فى رحابها هى أوقات الصفاء.

فى كلام القدماء : فلان علمه أكبر من عقله، وفلان عقله أكبر من علمه، فما معنى ذلك ؟

معناه أن ملكة الفهم تختلف عن ملكة التحصيل بعض الاختلاف.

وعلى ضوء هذه الفكرة نريد أن نعرف المنهج المختار فى سياسة التعليم فنقول :

أيهما أنفع : قراءة كتاب عن خزان أسوان أو زيارة ذلك الخزان ؟

وأيهما أفضل : نظر الخريطة عشرين مرة أو رسمها مرة واحدة ؟

وحفظ مقامات بديع الزمان أنفع، أم إنشاء مقامة على غرار تلك المقامات ؟

ثم أثب إلى الغرض فأحكم بأن إنشاء عشرين سطرًا أنفع فى تكوين الذهن من قراءة كتاب، لأن الإنشاء يوقظ القوى النفسية، ويروضها على التفكير السديد.

والتعليم الحق هو الذى يقضى بتقوية الملكات الإبداعية، هو الذى يخلق عاقلاً لا ناقلاً، وبين العقل والنقل مراحل طوال.

وليس معنى هذا أنى أغض من قيمة الاطلاع، لا، ولكن معناه أنى أدعو إلى أن تكون سياسة التعليم قائمة على إعزاز قيمة الفكر عند التلاميذ، فلا يقرأ أحدهم سطرًا إلا وهو يحاول أن يأتى بأروع منه وأبدع، ولا يسمع درسًا إلا وفى خاطره أنه مسئول عن التعقيب عليه بالمبتكر الطريف.

ما السبب فى أن يكون الجو المدرسى غير محبوب فى بعض الأحوال ؟

لو أمكن جذبَ التلميذ بالعقل إلى جو المدرسة لتمنى أن تكون مأواه إلى آخر الزمان.

ولكن التلميذ يُسأل عن المواظبة الصورية، ولا يُجذب إلى المواظبة الروحية.

وفى العقوبات المدرسية أن ينسخ التلميذ صفحات من كتاب، وهذا النوع من العقوبة موجود بالمدرسة الفلانية، وهو عقوبةٌ حقًا وصدقًا، فما يمكن أن يؤذَى التلميذ بأصعب ولا أعنف من أن ينسخ كلامًا هو عن فهمه غير مسئول.

هرب الشيخ محمد عبده من الدرس ورجع إلى الريف فأقام به ثلاث سنين، لأنه طولب بإعراب البسملة قبل أن يفهم الإعراب.

ومئات من التلاميذ يحضرون الدروس بالجسم لا بالروح، فهم غائبون لأنهم لا يفهمون، وإن لم تفطن المدارس إلى تقييد ذلك الغياب !

ودروس القواعد دروس غير محبوبة، لهذا السبب، أعنى أنها لا تقدم إلى التلاميذ مع التعليل، ولو عللت القواعد بذكر مراميها الأصيلة لأحبها التلاميذ، لأن الحياة موجودة فى إضافة لفظ إلى لفظ بغاية من القوة والجاذبية، ولكن أين من يفكر فى التنبيه إلى تلك الحياة ؟

وخلاصة القول أن الغاية من التعليم هى إثارة الشوق إلى فهم الوجود، وتنمية المواهب تنمية تغنى التلميذ عن المدرس بعد حين، وتجعل منه روحًا يتطلع إلى السرائر الكونية،

والحقائق الوجودية، تطلع المتشوف إلى إدراك ما غاب عن الأسلاف، ولو كانوا من فطاحل العلماء.

وكمية المعلومات ليست بالغاية العالية، وإنما الفهم الصحيح هو الغاية، ولو تعلق بأقل مقدار من المفهومات.

وتصحيح غلطة واحدة فى علم من العلوم أدل على قوة الذاتية من استيعاب جميع العلوم.

ونظم خمسة أبيات نظمًا صحيحًا فيه روح الشاعرية يدل على قيمة الفتى بأكثر مما يدل حفظه لجميع الدواوين.

المهم هو إيقاظ روح الفكر عند التلميذ، بأن نجعل جميع الدروس وسيلة إلى هذه الغاية، ولن يتم ذلك إلا إذا استطعنا أن نشغل روحه وفكره وعقله بتعقب ما يرى وما يسمع تعقب الشغف والاشتياق.

دخل التلميذ مصطفى كامل على الوزير على مبارك وحاوره بأسلوب غير مقبول، فقال الوزير للتلميذ : إقرأ هذه اللوحة لأعرف مقدار ذكائك « وكانت طرة كثيرة التلافيف عجز عن قراءتها التلميذ ».

قال الوزير : أنت لا تجيد غير الصياح !

فقال التلميذ : هل يتفضل الوزير فيخبرنى عن عدد السلالم التى يصعدها كل يوم إلى مكتبه هذا منذ أعوام ؟

فقال الوزير : التحدى تافه ولكنه معقول.

والواقع أن التعليم عندنا لا يثير التطلع إلى استكشاف المجاهيل، ولا ينقل خيال التلميذ من أفق إلى آفاق إلا فى أندر الأحوال...

عمل المدرس لا يتجه إلى تقديم الحقائق، وإنما يتجه إلى إيجاد الحقائق عن طريق التلاميذ. وأريد أن أقول إن المدرس لا يُخبر ولكنه يَستخبر، إلى أن يعرف من تلاميذه الخبر اليقين، وكأنه به من الجهلاء.

طريقة التلقين طريقة عقيمة، وهى لا توقظ عقول التلاميذ وقد ترميهم بالخمود.

والدرس هو الفرصة لتنبيه العقول الغافية، فى الحدود التى تسمح بها براعة المدرس، والمدرس البارع هو الذى يسوس الدرس سياسة تقضى بأن يشعر كل تلميذ بأنه قد يتلقى سؤالاً بعد لحظات.

هل تذكرون الواجبات المدرسية التى يؤديها التلاميذ فى البيوت ؟

إنها ثقيلة جدًا، وبغيضة جدًا، فما السبب فيما تتسم به من الثقل والبغض ؟

يرجع السبب إلى أنها لم تسبق بالتشويق إلى إيجاد الحقائق.

ويرجع السبب إلى أننا لم نصل إلى خلق الجاذبية المدرسية.

ويرجع السبب إلى أننا لم نفكر جديًا فى إبداع شخصية التلميذ...

* * *

وأنا أختم هذه المقالات بتوكيد ما قلته فى صدر مقال اليوم وهو أن مهنة التعليم فى مصر مهنة سعيدة وأصحابها سعداء.

المدرس المتبرم ليس بمدرس، لأن التدريس من أقوى موجبات الابتسام.

ولو أردنا شكر اللّه على أن جعلنا مدرسين لعجزنا عما نريد من الشكران.

للمدرس فى كل يوم جهاد، وهذا مغنم جميل.

إن صحت دعوتنا إلى تعميم التعليم فسيكون فى مصر ألوف وألوف من المدرسين؛ فهل تستطيع مالية الدولة أن تستجيب لما يطمح إليه ألوف وألوف ؟

القناعة هى التاج لمهنتنا السامية، وغِنى القلوب يستر فقر الجيوب. وهل افتقر منا أحدٌ حتى نتوجع ونتفجع بشبهة من الحق ؟

نحن أغنياء وأغنياء، فللّه الحمد وعليه الثناء.

* * *

(راية الحرية الأدبية)

المعلم المصرى فى مائة سنة(*)

بقلم الدكتور زكى مبارك

مهنة شاقة لا مجد فيها ـ بأنشاء المدارس الحديثة عرف المعلمون وجع الدماغ ـ المعلم الأولى وكيف حارت الحكومة فى أمره وحار هو فى أمر الحكومة ـ هل مشكلة المعلمين أعقد من القضية المصرية ؟

ليتهم اختاروا لهذا الموضوع كاتبًا سواى، فقد شقيت بمهنة التدريس، ثم شقيت وشقيت، فلم أرها فى مصر الاخليقة بالوصف الذى رأيته فى مجلة المسيولاييك منذ سنين.

مهنة بلا مجد Metier sans gloire

لم أعش مائة سنة كما ينتظر قارىء هذا الحديث. وانما اشتغلت بالتدريس عشرين سنة كانت على كاهلى أطول من عمر نوح، لأننى خبرت التدريس فى نواحى كثيرة، فاشتغلت بتدريس اللغة الفرنسية واللغة العربية، وشربت العلقم فى مدارس البنين ومدارس البنات، وتوليت التدريس فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية، وعانيت المصاعب فى المدارس المصرية والفرنسية والامريكية. فأنا فى هذه المهنة كالذى عاش عشرات المئات من السنين.

وأقول بلا تردد إن المعلم المصرى كان دائما سىء الحظ، ولا أستثنى غير أساتذة الأزهر الشريف قبل أن يعرف الأزهر نظامه الجديد، وإليكم بعض البيان :

كان أساتذة الأزهر فى الأيام الخالية يعيشون فقراء، لأن مرتباتهم كانت تعد بالقروش، ولكنهم كانوا يعيشون فى نعمة سابغة من الاحترام والتبجيل، فقد كان كل أزهرى يرى من واجبه أن يقبل أيدى المشايخ الذين يراهم وإن لم يكونوا من أساتذته، وكان المشايخ يشعرون جميعًا بعاطفة الأبوة، ويتمثلون ظلال الجنة فى كل حين.

وكان الأزهرى يعود إلى بلده فلا يجرى لسانه الا بكلمة : « كان شيخنا يقول، وكان شيخنا يأمر بكيت، وكان شيخنا ينهى عن كيت »، وكان أهل الريف لا يحسبون مشايخ الأزهر الا جماعة من الملائكة المقربين.. وحسن السمعة وبعد الصيت من أطيب الأرزاق.

(*) مجلة الهلال ١٩٣٧/٤/١ .

ولكن دنيا التعليم لم تقف عند الأزهر وحده، فقد جاء محمد على إلى مصر، جاء وفى رأسه أقباس من المدنية الحديثة، فجعل من همه أن يصل مصر باسباب التمدن الحديث، وكذلك تبدأ « المائة سنة » التى نتحدث عن أخبارها فى هذا المقال.

أنشأ محمد على طائفة من المدارس المدنية، وبانشاء هذه المدارس عرف المعلمون وجع الدماغ، فقد انقسموا إلى طائفتين : طائفة تعلم العربية والشريعة الإسلامية، وطائفة تعلم اللغات والرياضة والجغرافيا والتاريخ.

وكان بين هاتين الطائفتين تحاسد وشقاق، فقد كان المعلم من الطائفة الأولى يقبض فى الشهر مائتى قرش، وكان المعلم من الطائفة الثانية يقبض فى الشهر خمسمائة، وكانت تلك بداية النفرة بين هاتين الطائفتين.

وكان معلم اللغة العربية والدين ينظر إلى معلم الرياضة نظرة ملؤها الحذر والريب، فقد كان معروفا فى البيئات المصرية أن العلوم الحديثة ليست الا طلائع الزيغ والخروج على الدين، وكان معلم العلوم الحديثة يتهم رجال الطائفة الأولى بالرجعية والجمود.

وقد ظلت هذه الوساوس حية فى أنفس المعلمين إلى عهد قريب، وكانت أساس الفرقة بين طائفتين تقومان على تخريج الجيل الجديد.

وكان يتفق فى أحيان كثيرة أن يثور المعلمون بعضهم على بعض بالتجريح والاغتياب فى أثناء الدروس، فنشأ عن ذلك داء وبيل : هو هوان الاساتذة فى أنفس التلاميذ، ومن ذلك العهد عرف فى الجو المدرسى لون جديد من الثرثرة، هو التهكم والسخرية من المعلمين.

* * *

ولم يقف البلاء عند هذا الحد، فقد أعلنت الحكومة أن المعلمين تعوزهم أشياء، وأنه لابد من إرسال بعثات إلى الأقطار الأوربية، وعند ذلك صغر الأساتذة فى أعين التلاميذ من جديد، وشعر الاساتذة بأنهم فى بيتهم غرباء.

ومنذ ستين سنة أو تزيد رأت الحكومة أنه لابد من انشاء مدرستين للمعلمين، مدرسة للعلوم العربية ومدرسة للعلوم الحديثة، فأنشأت بذلك جيلين يقتتلان، وزاد فى الفرقة ما صنعه المستر دانلوب حين قضى بأن يأخذ مدرس العربى ثمانية جنيهات وأن يأخذ مدرس العلوم الحديثة اثنى عشر جنيها، فكان المعلم يوزن فى أعين الناس بغطاء رأسه، وكان ذلك بداية الحرب بين العمامة والطربوش.

وظلت هذه الفرقة بين الطبقتين إلى أن جاء موسم تعديل الدرجات الذى قضى به الخوف من بأس المشايخ بعد الثورة المصرية، فهو عدل لم يقع عن ترفق، وإنما أملته الظروف.

على أن النزاع بين هاتين الطبقتين لم ينمح بالرغم من تساوى الدرجات، فما زال أبناء دار العلوم يرون أنفسهم مضطهدين، وما زالوا يرون معهدهم نفسه لا يتولاه إلا رجل تخرج فى المدارس المدنية، وما زالوا يتطلعون إلى المناصب العالية التى حرمتهم منها التقاليد، تقاليد وزارة المعارف التى توسع مسافة الخلف بين العمامة والطربوش.

وبهذه المناسبة أذكر أن المعلمين قاسوا فى مطلع النهضة الحديثة ما يقاسونه فى هذه الأيام، فكان فيهم المعلم الفنى، والمعلم ذو الخبرة والكفاية، وكان المعلمون الفنيون ينقسمون إلى طبقتين : طبقة المتخرجين فى المدارس المصرية، وطبقة المتخرجين الذين أتموا دراستهم فى المعاهد الأوربية، وكان بين الطبقتين نزاع شديد يمثله قول بعض المفتشين : « لو كنت من الذين شربون ماء التاميز لكان مرتبى اليوم سبعين جنيها » وقد اعترضت على قوله « شربون » فقال : تلك لغة من يذهبون إلى أوربا فيفقدون الافصاح !

ومما زاد التطاحن فى بيئات المعلمين انقسام معاهد التعليم إلى أميرية وأهلية ، فقد كان من المألوف أن تعتمد المدارس الأهلية على مدرسين غير فنيين. وكان من أثر ذلك ان كثر الطعن بالحق وبالباطل فى المدارس الاهلية، ومضت وزارة المعارف فأصدرت قانون التعليم الحر، وهو قانون كان يجب اصداره، ولكن تطبيقه أحيط بمكاره كثيرة. فكان من ثمراته ان قام المدرسون بالمظاهرات. وكانت المظاهرات فنا لا يحسنه غير التلاميذ، ثم تبين أن الأساتذة يجيدونه اجادة تامة، ولهم فيه قواعد وأفانين !

ثم ماذا ؟ ثم دخل فى هيئة المعلمين عنصر جديد . وهو المعلم فى المدارس الأولية. وقد استطاع ذلك المعلم أن يضيف إلى المشكلة لونا جديدًا، فقد حارت الحكومة فى أمره، وحار هو مع الحكومة. فما نعرف أيهما الظالم وأيهما المظلوم !

كانت الحكومة تعطى ذلك المعلم أربعة جنيهات، وتمنحه علاوة كبيرة جدا هى خمسة وعشرون قرشا فى كل ثلاث سنين، فإذا بلغ خمسة جنيهات كان عليه أن يقنع بها حتى يموت.

ولكن ذلك المعلم الجاحد لم يرض بتلك النعم السوابغ، فمضى يتأفف ويتذمر، ويتشكى ويتلوم، وينشىء النقابات والمجلات، ويذرع الأرض من رشيد إلى اسوان، عساه

يظفر بمن يستمع إلى ما فى صدره من شكاية أو رجاء. وظل كذلك حتى ظفر بتعديل موعود، هو البدء بخمسة جنيهات، والوصول فى نهاية العمر إلى ثمانية جنيهات.

وحياة هذا المعلم الأولى لم تخل من فكاهة، فقد ثار مرة على العمامة والجبة والقفطان، ولكن وزير المعارف الاسبق حلمى عيسى باشا كلف المديرين بمراقبة أولئك المعلمين، وأفهمهم بأن الطربوش والجاكته والبنطلون ملابس لا ينظر إليها الفلاح بعين الارتياح، وكانت مشكلة شغلت بها الجرائد زمنا غير قليل.

بقى التفتيش. وقد حدثنا كثير من المدرسين فى هذه المسألة بالذات، ولو صح ما سمعت لكان من الواجب أن ننتهز هذه الفرصة فنصنع من تلك المشكلات ألوانا من الأقاصيص.

يقولون إن بعض المفتشين يذهب إلى المدارس غيلة، والعياذ باللّه، فيقف على السلم يتسمع، ولا يظهر إلا إن تنبه له أحد الفراشين.

ويحكون أن مفتشا ذهب إلى احدى القرى فرأى شيخا فى الطريق فصرخ : يا أستاذ، يا أستاذ الساعة ثمانية وأنت رايح فين !! فقال ذلك الشيخ : أنا محام شرعى ولست مدرسًا، وللّه الحمد !

ومن المؤكد أن المفتشين ليسوا جميعًا كذلك، ولكن المفهوم فى الجو المدرسى أن المفتش رجل يغلب عليه التحكم والسيطرة، وحضوره إلى المدرسة يكاد يشبه حضور الجلاد إلى أفنية السجون.

وتجاريبى فى هذا الباب لا تدل على شىء، لان المفتشين الذين زاروا دروسى فى مدرسة التوفيق القبطية والجامعة الامريكية كانوا يتلطفون معى أشد التلطف، لأنهم كانوا فى الأغلب من الاصدقاء، ولأنهم كانوا يعرفون أنى قد أعرض لهم يوما فى الصحف، ولكن لا مفر من التصريح بأن التفتيش فى المدارس لا يخلو من عنف، وأن التفتيش المدرسى كالنقد الأدبى يعتمد على التجريح ولا أقول التنكيل .

ثم ماذا ؟ أتحسبوننى سأسكت ؟ هيهات !

لقد حدثتكم عن المعلم فى المدارس الاولية والإبتدائية، والمدرس فى المدارس الثانوية.

فما رأيكم فى أساتذة المدارس العالية ؟ اسمعوا.

لقد كان يظن أن الاساتذة فى المدارس العالية ينعمون بما ينعم به أمثالهم من كبار الموظفين، ولكن الأمر بالعكس، فالاساتذة فى المدارس العالية هم أيضا من المظلومين.

فإن أردتم الدليل على ما يقاسى أساتذة المدارس العالية من الغبن فتذكروا ما يصنع أساتذة كلية الحقوق الذين يصلون الليل بالنهار فى سبيل الانتقال من سلك التعليم إلى سلك القضاء.

وهل هناك دليل على غبن المعلمين أنصع من الدليل الآتى :

حدثونى كم مرة راعى فيها أولو الأمر أن يكون وزير المعارف من المعلمين ؟

امتحنوا ذاكرتكم أيها القراء، ودلونى على رجل واحد تولى وزارة المعارف وهو يحمل إجازة التعليم ؟

وهنا أدخل فى بحث شائك : فقد كان المفهوم دائما أن مدارس المعلمين لا يؤمها غير الفقراء، لأنها كانت مجانية، ولانها كانت قديما تعطى التلاميذ نفقة شهرية وتقدم إليهم الغداء.

الآن فهمت أن المناصب العالية فى مصر لا تمنح إلا لمن كان لهم سابقة فى الثراء.

وكان الأمر كذلك لان منصب الوزير كان محفوفًا دائما بظلال من الطنطنة لا يقدر على تكاليفها غير الاغنياء.

ولكنا قرأنا فى الجرائد أننا فى عصر الديمقراطية وأن من العمال من يصيرون بحكم الشعب وزراء. فما الذى يمنع من اجراء هذه التجربة فى هذه البلاد ؟

إن الايام المقبلة ستكون أيام كد وكدح. والمعلمون هم أصلح الناس للنضال. وهم بحكم مهنتهم تأدبوا بأدب الانبياء. ألم تسمعوا أن اللّه قضى على جميع الانبياء برعاية الغنم وهم أطفال ليتعودوا الصبر، وليعرفوا كيف يكون النظام وحسن التصرف ؟

إن مركز المعلم المصرى لن يرتفع إلا إذا صار من التقاليد أن يكون وزير المعارف من المعلمين . أتريدون أن يكون المعلم طول عمره موقوف الامانى على شهادة الناظر والمفتش ؟

اتقوا اللّه فينا يا حكام هذه البلاد. فنحن الذين علمناكم وعلمنا أبناءكم. ونحن الذين قومنا الألسنة الفصيحة التى تصول وتجول تحت قبة البرلمان.

من الظلم الفادح أن يظل المعلم فى مصر مغلول الامانى، مصفد الاحلام. من الظلم الفادح أن يكون المعلم المصرى فى الذيول بين الطبقات العالية، وأن لا تستطيع زوجته أن ترفع رأسها فى حضرة سيدة زوجها رئيس قلم فى بعض الدواوين.

ولكن، أليس للمعلمين ما يعوض عليهم هذا الغبن الممقوت ؟

بلى، فقد تغديت على مائدة أحد الكبراء منذ أيام، وكان على المائدة كثير من القضاة والمحامين، فرأيت المدرسين موضع الحديث، ولكن كيف ؟ كانت التوابل الشهية محصورة فى النوادر التى تقع فى قاعات الدروس، وكانت السخرية من نوادر المدرسين أفعل من الابسنت فى إيقاظ الامعاء.

ومن سوء الحظ أن « خوجة العربى » كان البطل فى جميع الروايات، فكنت أشعر بامعائى تنقبض، وقد وقف الطعام فى زورى مرات، ولم ينقذنى الا القول بأنى مدرس ترجمة، والمترجمون فيما رأيت أعلى من المدرسين.

* * *

أنا أنكر أن يقيم المعلمون مظاهرة، وأرجو أن تسرع الحكومة إلى اكرامهم بالانصاف لقد استطعنا أن ننقل المسألة المصرية من وضع إلى وضع، أفلا نستطيع أن ننقل مسألة المعلمين من وضع إلى وضع ؟ وهل تكون مشكلة المعلمين أعقد من المسألة المصرية ؟

زكى مبارك

رأى صريح فى التعليم الإلزامى (*)

بقلم الدكتور زكى مبارك

« اهتمام الحكومة بصب ابناء الشعب فى قالب واحد جهد ضائع، وهو تبديد للثروة القومية ».

حضرة الأستاذ محرر الهلال.

أرجو أن يتسع صدر مجلتكم الغراء لكلمة صريحة يوحيها الحرص على سلامة البلاد من الانحراف الذى تصير به الاوهام حقائق فى بعض الاحيان.

وهذه الكلمة قد تؤذينى، لأنها تصورنى بصورة من يقاوم نشر التعليم بين جميع الطبقات، وفى ذلك ما يشجع بعض خصومى على مناوشتى بلا ترفق، باسم الغيرة على المنفعة القومية.

وما أقدمه إليكم ليس بجديد إلا من حيث التفاصيل، أما الفكرة فى جوهرها فقديمة عندى، وقد شرحتها فى بعض مسامراتى بنادى المعارف فى بغداد، ثم شرحتها مرة ثانية فى مدرسة فاروق الأول بين جماعة من اقطاب التربية منهم الاساتذة الاجلاء عبد السلام الكردانى وشفيق غربال وعبد الواحد خلاف.

على أنى استطيع مصاولة من تحدثه النفس بتزييف الرأى الذى أدعو إليه فى هذا المقال الجرىء : فقد صرح وكيل وزارة المعارف أمام مجلس النواب بأن من حق الوزارة ان تقف قليلا لتنظر مبلغ النفع الذى غنمه المجتمع من المضى فى تعميم التعليم، ومعنى ذلك أن هذه مشكلة قومية تحتاج إلى درس عميق، فمن حقى ومن حق جميع المشتغلين بخدمة الوطن فى الميادين العلمية، بل من واجبنا جميعا ان نساعد وزارة المعارف على درس ما يحيط بمشكلة التعليم الالزامى فى نزاهة واخلاص.

وأسارع فاقرر ان العلم وسيلة لا غاية، فالعلم لا يراد لذاته الا عند طوائف قليلة من المجتمع، وهى طوائف أعدتها المقادير لترقية المواهب الانسانية، ولا تخلو منهم أرض ولا جيل، وهؤلاء لا يهمنا أمرهم فى هذا المقال، لأنهم لا ينتظرون التوجيه إلا من مواهبهم الذاتية.

(*) مجلة الهلال ١٩٤٠/٦/١ .

إنما يهمنا الكلام عن العلم الذى تفرضه الدولة على جميع الافراد لتحقق لهم أكبر نصيب من النفع، وأنا أرى ان العلم حين يبذل لجميع الناس قد يصل بهم إلى نوع من الترف يضر أكثر مما يفيد.

يجب أن يكون مفهوما بصراحة ان الجمهور يتعلم ليعيش، وتلك هى الغاية الاصيلة من اقبال الجمهور على العلم، فإن تسبب العلم فى تعطيل المعاش فهو أقبح من الجهل، وهو عبء يبهظ الكواهل بلا نفع ولا عناء .

ويجب أيضا ان نفهم ان جهودنا فى تعميم التعليم قد تذهب ادراج الرياح إذا لم تكن استجابة لاشواق وطنية يهتف بها ضمير الشعب كما يهتف بالشوق إلى العدل والحرية.

فهل يشعر الجمهور المصرى فى أعماق ضميره بانه يجب على كل أب ان يحبس ابنه فى المدرسة الأولية بضع سنين ؟

أفى الحق أن الفلاح الفقير والصانع البائس والعامل الاجير يشعرون بان من الواجب أن تخلو حياتهم من أطفالهم باسم العلم ليرجعوا إلى مساعدتهم على العيش بعد أعوام وقد ذاقوا لذة الترف واللين وفقدوا القدرة على الخشونة المطلوبة لحياة المزارع والمصانع ؟

أفى الحق ان الطفل الذى نروضه على النظافة والاناقة بضع سنين يصلح بعد ذلك لصحبة الفأس والمحراث فى الحقول، أو يصلح لحمل الاثقال إذا اشتغل عاملا تحت امرة المقاولين، أو صانعا ينحت الحجر ويصهر الحديد ؟

ضمير الشعب لا يهتف بالدعوة إلى تعميم التعليم، كما يهتف بالدعوة إلى الحرية والعدل، وانما نقلت الدعوة إلى تعميم التعليم نقلا حرفيا عن بعض الامم الأوربية والأمريكية، فهى بضاعة وردت من وراء البحار ولم يتسامع بها الشعب إلا عن طريق الجرائد والمجلات.

من السهل ان يقول باحث كالدكتور طه حسين بوجوب تعميم التعليم، ومن السهل على أمثاله أن يوصوا باعطاء كل فرد نصيبه من العلم لتتحقق المساواة بين جميع الافراد.

ولكن هذه الفكرة لا يحسها الشعب، وهل صدرت هذه الفكرة إلا عن رجال لم يكتب لهم الاتصال إلا بجمهور واحد هو جمهور المياسير من سكان الحواضر ؟

فى مصر جماهير كثيرة جدا، وكذلك الحال فى جميع البلاد، ولا يمكن الطب لادواء هذه الجماهير إلا إذا راعينا ان كل جمهور يحتاج إلى دواء خاص.

فمن أين عرف الداعون إلى تعميم التعليم ان ضمير الشعب يوجب ان يحبس جميع الاطفال فى المدارس الأولية بضع سنين ؟ ان ضمير الشعب لا يؤمن بغير مواجهة الحياة فى المزارع

والمصانع ليشعر الآباء بأن الابناء يعاونون بسرعة على تحقيق غايات المعاش، ومن قال بغير ذلك فهو متأنق يسره أن نحتفل بدفن آخر أمى كما احتفلت بذلك بعض أمم الشمال.

وسيأتى يوم قريب أو بعيد تنعدم فيه الأمية فى مصر ما دامت وزارة المعارف مسئولة أمام الشيوخ والنواب عن ذلك المطلب الظريف، ولكن ذلك اليوم سيكون من الأيام القاسية فى التاريخ، لأننا لن نصل إليه إلا بعد أن نقوض المجتمع أبشع تقويض.

إن التعليم فى مصر وفى كل أرض يغير الاطفال والشباب من حال إلى أحوال، التعليم فى جميع الاقطار يمضى بالمتعلمين إلى حياة الترف ويوحى إليهم حب المدن وبغض الريف، ولا يمكن لامة أن تعيش فى قوة وحيوية إذا جاز لها أن تروض ابناءها على حب المدن وبغض الريف، لأن الريف هو الذخيرة التى نعتمد عليها فى تكوين الزراع والصناع والجنود، والريف فى مصر هو أطيب ما نملك لأنه عدتنا الاصيلة ولأنه الملاذ عند الكوارث.

وهل انتفعت فرنسا بتعميم التعليم ؟

ولكن هل عمم التعليم فى فرنسا حتى تضرب بها الامثال ؟

فى فرنسا نحو عشرين فى المئة من الاميين، ومع ذلك أحست بازمة شديدة فى حياتها الزراعية فهى تعتمد على ناس من ايطاليا وبولونيا لتأمن شر الخراب الذى يهدد المزارع.

وقد بدأنا نشعر فى مصر بمثل الازمة التى يعانيها الفرنسيون، فالريف المصرى فى هذه الاعوام يعانى الكرب من تمدن الفلاحين، وقد صار من عادة كل فلاح ان يشرب الشاى ويغشى القهوات ويسمع الراديو، وبذلك صارت الفلاحة عنده أمرا بغيضا لا يقبل عليه غير الاغبياء !

وما رأيكم فى الشبان الذين يتخرجون فى كلية الزراعة وهم يعدون بالمئات أو الألوف ؟

كان المظنون أن يكون هؤلاء زراعا نافعين، فهل حققوا ذلك الظن الجميل ؟

وكيف وهم يتمنون جميعا أن يكونوا موظفين يتذوقون الخمود فى المكاتب والدواوين؟

وإنما كان ذلك لان التعليم بطبيعته ينفر من الحياة الزراعية والصناعية ويروض أهله على حياة الترف البغيض.

وإنما ذكرت المتخرجين فى كلية الزراعة لان علومهم قامت على اساس ترغيبهم فى الحياة الزراعية، ومع ذلك ظلوا عبيدا للحياة المدنية التى تعرف لذات السهرات، والتى تأنف من الانس بصحبة المواشى والفؤوس والمحاريث.

فكيف تكون مصاير الاطفال الذين نشغلهم بقشور التعليم بضع سنين إذا قهرتهم الحياة على خشونة العيش فى الحقول؟

نحن نعرف مصاير هؤلاء الاطفال المساكين، فعهدى بهم يتشهون هجر الريف لتصح لهم المباهاة بانهم من أهل المدنية ولو كلفهم ذلك قبول العيش الخسيس.

ان الشخصية الخلقية قد انحطت فى مصر بسبب شيوع التعليم، فالمتخرج فى مدرسة أولية يرى نفسه من الاشقياء ان عجز أهله عن وصله بالمدارس الابتدائية والثانوية، والمتخرج فى مدرسة ثانوية يرى نفسه من التعساء ان قصر به الحظ عن دخول احدى الكليات، وحملة الدرجات العالية لا يرضيهم إلا أن يكونوا من كبار الموظفين، فإن لم تصح أحلام أولئك وهؤلاء فالدنيا عبء ثقيل لا خلاص منه إلا بالانتحار أو الموت.

تلك هى الشخصية الخلقية التى تعانيها مصر فى هذه الأيام.

فأين عهدنا بالفلاح المؤدب الذى لا يعرف من العلم غير واجباته الدينية والذى يأنس بمواشيه أكثر مما يأنس الحضرى برؤية الغانيات فى المشارب والمراقص ؟

وأين عهدنا بالمتعلم الصادق الذى يرى الانس كل الانس فى صحبة القلم والكتاب ؟

قولوا كلمة الحق مرة واحدة يا بنى آدم من أهل هذه البلاد ؟

هل تشعرون حقيقة بأن دنياكم تعرف شيئا من اعتدال الموازين ؟

هل بقيت البشاشة فى الريف كما كانت لعهد الآباء والاجداد ؟

وهل بقيت الرغبة الصحيحة فى طلب العلم كما كانت إلى عهد قريب ؟

وكيف تكون الرغبة فى العلم ونحن نسوق إليه من يرغب ومن لا يرغب بلا تفرقة بين الاذكياء والاغبياء ؟

وعمن أخذنا هذه البدعة وهى بعيدة كل البعد عن الفطرة ؟.

أفى الحق أن الدنيا لا تعمر إلا إذا صار أهلها جميعا من العلماء ؟

سأمضى إلى آخر الشوط لأمزق أوهام بعض الناس ابشع تمزيق.

يقال اننا نعلم الشعب كله ليساير الحياة الأدبية والعلمية والفنية.

آمنت وصدقت.

ولكن ما رأيكم إذا قلت أن المتعلمين عندنا لم يقيموا الدليل على أنهم أهل لذلك الظن الجميل ؟

فى مصر من الموظفين والمعلمين والمحامين والمهندسين والاطباء ما يقرب من ثلثمائة ألف فأين يقع هؤلاء مما تريدون فى مسايرة الحياة الأدبية والعلمية والفنية ؟

وما هو الكتاب الذى استطاع صاحبه ان يبيع منه ألفى نسخة فى العام الواحد لهذه المئات من الالوف ولو بلغ ذلك الكتاب من الجودة ما بلغ ؟

فى الازهر وحده سبعمائة مدرس، فكم عدد الطبعات التى ظهرت من « رسالة التوحيد » للشيخ محمد عبده وهى فى موضوع يتحمس لدرسه الازهريون أجمعون ؟

وكلية الحقوق تخرج فيها مئات وألوف، فكم عدد الطبعات التى ظهرت من « شرح القانون المدنى » للمرحوم فتحى زغلول ؟

وقد ارتجت مصر لوفاة مصطفى كامل منذ نحو ثلاثين سنة، ومع ذلك لم تنفد طبعة الكتاب الذى ألفه شقيقه على فهمى كامل فى ترجمته، فقد وجدته معروضا للبيع فى احدى مكاتب الاسكندرية، وكان يجب أن يطبع فى العام عدة مرات لو كان المتعلمون يقرأون.

وإلى أين صارت خطب سعد زغلول ؟ هل طبعت غير مرة واحدة ؟

وأين كتاب « المرأة الجديدة » الذى ألفه قاسم أمين ؟

قولوا الحق، أيها الناس !

قولوا إن تعميم التعليم لم يصل بكم إلى الغرض المنشود لانه لم يصدر عن حاجة أحسها الشعب، وإنما هو تقليد فى تقليد.

وما الموجب لتعذيب أبناء الامة فى المدارس إذا صح أنهم لا ينتفعون بالتعلم وهو توجيه إلى مسايرة الحياة الادبية والعلمية والفنية ؟

نحن نتعسف ونتكلف.

نحن نريد ان يقال اننا على رأس الامم العربية فى العلوم والآداب والفنون.

ونحن بالفعل فى مقدمة الامم العربية، ولكننا لم نصل إلى هذه الغاية النبيلة بتعميم التعليم، وانما وصلنا بفضل جهود الافراد الذين هدتهم مواهبهم إلى التمكن والتفوق.

فمصر اليوم زعيمة الأمم العربية بفضل خمسين أو ستين رجلا برعوا فى العلوم والآداب والفنون، وهم فى الاغلب من الذين بنوا مواهبهم بأيديهم ولم يكن للحكم عليهم فضل، وهل تستطيع الحكومة خلق العلماء وفى موظفيها الكبار من يبخل على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش ؟

الرأى كل الرأى ان نرجع إلى الفطرة فنترك الفلاحين فى حقولهم، والصانعين فى مصانعهم، ونترك حياة العلم لاهل الرغبة والشوق من الذين أعدتهم المقادير للتسلح بأسلحة التعليم والتثقيف.

السياسة الحق هى فى التوازن الصحيح، ولا يتم التوازن إلا يوم يكون فى الحياة فاضل ومفضول وراجح ومرجوح، فكل دعوة إلى المساواة بين الحظوظ العلمية لن يكون لها نصيب غير الاندحار لأنها خروج على الفطرة والطبع.

من واجب الحكومة ان تعلم أبناء الشعب جميعا، ولكن كيف ؟

تعلمهم فى مناطقهم بحسب ما توحى به ظروف العيش، فيكون لسكان الشواطئ علوم، ولسكان القرى علوم، ولسكان المدن علوم، وقد يتم ذلك وهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون.

اما اهتمام الحكومة بصب ابناء الشعب فى قالب واحد فهو جهد ضائع، وهو تبديد للثروة القومية، ثروة السواعد الشداد التى يمحقها الترف واللين، وهما غاية التعليم المبذول فى هذه الأيام.

أما بعد فهذه كلمة صريحة، وهى وصيتى إلى أمتى، فإن نشرها محرر الهلال فذلك واجبه فى تأييد من يهتف بكلمة الحق، وان طواها فله عذر مقبول هو مسايرة المجتمع، ولكن إلى متى نترك المجتمع فريسة للاوهام والاضاليل ؟

نحن الذين ضللنا المجتمع حين أوهمناه ان المواطن الكامل هو الذى يقرأ ويكتب ليتابع أخبار لندن وروما وباريس وبرلين، فلنقل مرة واحدة ان الرجل قد يكون مواطنا كاملا وهو لا يعرف غير ما تقع عليه عيناه من دخان المصانع وغبار الحقول.

أيها الجهلة من الزراع والصناع والجنود، انتم عماد الوطن وبفضل جهلكم يعيش العلماء.

زكى مبارك

كلمات صريحة :

فى التربية والتعليم [*]

للدكتور زكى مبارك

شعار التلميذ ـ فى مدارس البنات ـ ضرب التلاميذ ـ النداء فى المدارس ـ بين النظار والمدرسين ـ أخطار تهدد بعض المدارس الأهلية.

شعار التلميذ :

كنت اقترحت على حضرة صاحب العزة مراقب النشاط المدرسى أن يشير بأن تكون ملابس التلاميذ جميعًا من قماش واحد، وبهندامٍ واحد، لَيسلم أغنياؤهم من آفة الازدهاء، وينجو فقراؤهم من آفة الانضاع، ولنضمن سلامة أولئك وهؤلاء من عوادى التنافس البغيض.

ثم مضيت فكتبت كلمة وجيزة فى جريدة (الأهرام)، أردت بها التمهيد لعرض هذا الموضوع على « مؤتمر التعليم »، فكيف استقبله كبار المربين بوزارة المعارف ؟

اتفقوا على صواب الفكرة، ولكن معالى الوزير رأى فى تنفيذها إرهاقًا للآباء فى مثل هذه الظروف، فقد يكون فيهم من يعجز عن إمداد أبنائه بأثواب جديدة فى العام الدراسى الجديد.

ولا ريب فى أن معالى الوزير لم يرد غير الرفق بالآباء، ولكن ما رأىُ معاليه فيمن يحدثه بأن التلاميذ لن يرفقوا بآبائهم أبدًا، ولن يكون فيهم من يفهم أن الناس جميعًا يعانون قسوة الغلاء ؟

إن التلميذ طفل، والطفل يعتقد أن أباه على كل شىء قدير، وإذا فرضنا المستحيل وقدْرنا أن الطفل قد يراعى ظروف أبيه، فلا يكلفه ما لا يطيق فى هذه الأيام، فمن يضمن سلامة هذا الطفل من الألم المكبوت، وهو يرى من بين التلاميذ من يرجعون إلى المدارس وهم فى اختيال بما أعدوا للعودة المدرسية من الزينة والرُّواء ؟

---

[*] مجلة الرسالة ٢٧/١٠/١٩٤١ .

ليس فى مصر تلميذ واحد يقدر ظروف أبيه، وإن فعل فسيشعر فى قرارة نفسه بأن أباه ضعيف الحول، وأن الدنيا بخلت عليه وعلى أبيه بما يبعد عنهما شبهة العوز والاحتياج.

وما وجودُ المصلحين إذا عجزوا عن رأب هذا الصدع بوسيلة لا تكلفهم غير قليل من الالتفات، كأن يراعوا أن التلميذ جندى والملابس واحدة لجميع الجنود ؟

قد لا يخطر فى بال وزير المعارف أن فى مصر آباء يقتلون أنفسهم بالبلاء الذى يسمى «التقسيط» فأولئك الآباء يزوّدون أبناءهم بما يشتهون عن طريق الدَّين، فيظهرون بمظهر الغنى، مع أنهم يستعجلون الفقر بخطوات سراع !

و« شعار التلميذ » وقاية من هذا الداء، فقد يستطيع التلميذ الفقير أن يقضى العام كله بثوب واحد، ما دام يتعهده بالصيانة والتنظيف، ولن يكون فى ذلك ما يحرجه أمام رفاقه، لأنه لم يلبس غير الثوب المطلوب.

ومن أعجب العجب أن نفكر فى الطب لجميع أمراض المجتمع ثم ننسى الطب للأمراض التى يتعرض لها التلاميذ، وهم بحكم أسنانهم الصغيرة معرَّضون للآفات النفسية، لأنهم يعجزون عن مقاومة آفات النفوس، ولأن رفاقهم لا يعفونهم من الغمز والتلويح، إذا رأوهم فى أثواب لا تعفى لابسيها من التعرض للازدراء... وكل ثوب لا يكون ابن يومه هو فى نظر التلميذ علامة فقر وإملاق... وكان اللّه فى عون من له أبناء يتعلمون فى المدارس المصرية، ولو كان من الأغنياء !

وهنالك ظاهرة غريبة لا يلتفت إليها أكثر المربين، فالتلميذ الذى يستحى من شكوى حاله إلى أبيه، لا يستحى من الشكوى إلى أمه، وليس بينه وبينها حجاب، والأم مرأة لا مرء، وإحساس المرأة بتفاوت الأزياء أحدّ من السيف الصقيل.

فماذا تصنع الأم ؟ إن بلّغت الشكوى إلى زوجها كدرته بلا موجب، لأنها تعرف عجزه عن تحقيق ما يريد ابنها « الطفل »، وإن كتمت شكواها وشكواه عاش البيت فى جمر لا يطمسه غير رماد لا يحتمل عصف الرياح.

ومن المزعج أن الأغنياء لا يكتفون بإصباغ الأثواب الجميلة على أبنائهم المنعَّمين، وإنما يزوْدونهم بالمال فى كل يوم، ليُقبِلوا على « مَقصف المدرسة » إقبال الأفاعى على الأوطاب. وللمنصف أن يتصور كيف يكون حال التلميذ الذى لا يجد فى جيبه غير قرشٍ واحد بجانب التلميذ الذى يجد فى جيبه عشرات القروش ؟

ذلك تلميذ يشترى شطيرة مكوّنة من الخبز والفول بقرش أو نصف قرش، وهذا تلميذ يلمّ بجميع ما فى المقصف من ألوان وأصناف، ثم يشاء له « أدبه » أن يزهد فى الماء فلا يشرب غير منقوع المنجة أو الليمون.

وليكن مفهومًا أن طبقات التلاميذ فى الحاضر هم طبقات الرجال فى المستقبل، ومعنى هذه اللفتة أن تناحر الطبقات فى الغد توضع بذوره فى المدرسة، المدرسة التى أقيمت لتشييد صروح الأخلاق !

فما أعجبَ ما نصنع بأبنائنا، وهم فى أصل الفطرة أبرياء !

ثم ماذا ؟ ثم يشاء الأغنياء - عفا اللّه عنهم - أن لا يعود أبناؤهم إلى المنازل إلا فى سيارات خصوصية !

وهنا أذكر حادثًا رواه أحد المفتشين، قال :

« اتفق مرةً أن يدوم عملى فى التفتيش على إحدى المدارس إلى الحصة الأخيرة، فخرجت وقد أُعييت، ولم أكد أخرج من باب تلك المدرسة حتى واجه الصفير آذانى من كل صوب، فشعرت بدُوَار مخيف، وبدا لى أن لا نجاة من أخطار السيارات التى تنتظر أبناء الأغنياء. ثم جمعت ما تبدد من قواى ونظرت حوالىّ فرأيت التلاميذ الفقراء يتسللون إلى الطريق فى ذلة وانكسار، كأنهم طرائد لعار ورثوه عن آبائهم المساكين ! ».

فما الموجب لأن يرجع بعض التلاميذ إلى منازلهم فى سيارات خصوصية، وفى طنطنة تجسِّم ما بين الطبقات من فروق لا يسكت عنها الناس إلا عاجزين ؟

ما الموجب لذلك ولأكثر التلاميذ مواصلات أنفعُها المشى على الأقدام ليعَّودوا مواجهة الصعاب، إن كان المشىُ عشر دقائق من جملة الصعاب ؟

إن سعادة سامى بك راغب وكيل وزارة المالية يصل إلى مقرْ عمله عن طريق «المترو» ثم « الترام » وكأنه فى مثل حالى !

ومنذ يومين صادفت الأستاذ خيرى بك مراقب منطقة القاهرة حيران فى ميدان باب الحديد، لأنه وجد جميع قطارات « الترام » مشغولة - ومن ذلك فهمت أنه لا يقتنى سيارة - وقد اشترك مع بعض زملائه فى « تاكسى » ليصل إلى وزارة المعارف فى الوقت المحدد . وكبار الموظفين فى مصر لا يقتنون سيارات، إلا أن يكونوا من محدَثى النعمة ومن هواة الشهرة بالترف والنعيم... وهل أنسى أن الأستاذ نجيب بك حتاتة حدثنى أنه لم يعرف المستر دنلوب إلا فى الترام، وكان المستر دنلوب فى الأيام الخوالى طاغية وزارة المعارف ؟

وخلاصة القول أن الأغنياء فى مصر لا يعرفون ما يجنون على أنفسهم وعلى أمتهم بما يتورطون فيه من إعلان الغنى والثراء.

أيكون للغِنى هذا البريق الذى يزيغ الأبصار والبصائر ؟

ألا يرعوى بعض الأغنياء عن إعلان غناهم بتلك الطرق البهلوانية، ليقوا بلادهم شر الفتنة المخوفة من حقد الفقراء على الأغنياء ؟

كل شىء جائز، إلا أن تمتد ألسنة هذه النار إلى المدارس، وهى فيما نرجو محاريب لا يتوجَّه إليها غير من تنزهوا عن التكبر والاستعلاء.

أما بعد فما رأى وزير المعارف ؟

ما رأيُهُ فى الدعوة إلى أن تكون المدرسة كالمسجد، وفى المسجد حصيرٌ واحد لجميع المصلين، ولو كان فيهم وزراء وأمراء ؟

يجب أن يكون « شعار التلميذ » واحدًا لجميع التلاميذ، ولو كان فيهم أبناء فلان وفلان، لأنهم جميعًا جنود، والملابس واحدة لجميع الجنود، فإن لم يراع هذا وزير المعارف فسنسجل عليه أنه فرَّط قليلاً فى حق هذا الجيل.

فى مدارس البنات :

يظهر أنه لا مُوجب للخوف من التنافس بين تلميذات المدارس فيما يتصل بالأزياء، فالمرايل واحدة للجميع، وهى تستر ما تحتها من الملابس القطنية أو الصوفية أو الحريرية، إن صح أن عند البنات من العقل ما يكفهن عن التطلع إلى ما تحت « المرايل » من أثواب!

ومع ذلك فلابد من أن تحرص ناظرات المدارس على النظر فى هذه الدقائق، لنضمن سلامة التلميذات من التنافس فى الأزياء.

والناظرة أمٌّ ثانية، وتعقُّبها لهذه الشؤون لا يعدْ من الفضول، وستظفر بالثناء من الأغنياء قبل الفقراء.

أما المقصف فحاله فى مدارس البنات كحاله فى مدارس البنين وهو مصدر شر وبلاء، ومن الواجب أن لا يباع فيه غير الأطعمة الضرورية، بحيث لا تجد التلميذة غير «تصبيرة» تدفع الجوع الذى يطرأ قبل وقت الغداء، أما تزويد المقصف بكل ما لذّ وطاب فهو فرصة لنمو العادات السخيفة، كالتباهى بالغنى والترف والنعيم...

وبِدعةَ صبغ الوجوه بالألوان قد وصلت إلى بعض تلميذات اليوم، ولعلها وصلت إلى بعض المعلمات !

فلتنظر فى ذلك ناظرات المدارس، فالتلميذات سيكن فى المستقبل ربات البيوت، والرياضة على إيثار اللون الطبيعى ستنفعهن كل النفع، فاللون الخمرىُّ أجمل الألوان، والإبقاء عليه غاية من الغايات القومية، لأنه من خصائص هذه البلاد، ولأنه الوشيجة التى تقرّب بناتنا من أخوانهن فى الحجاز والعراق. وهل استطاع السواد أن يحجب الجمال الفتان عند أخواتهن فى السودان ؟

إن القول بأن «البياض نصف الحُسن» مدسوس على الرسول، وهو فرية أذاعها الوافدون على العرب من الأقطار الرومية، فلندفع عن اللون المصرى شر الأصباغ المجلوبة من بلاد لا تعرف من الجمال غير الطلاء.

ضرب التلاميذ :

العقوبات البدنية ممنوعة بأمر وزارة المعارف المصرية، وتلك العقوبات موضع خلاف بين رجال التربية والتعليم، وقد اجازها بعض الإنجليز والألمان، بحجة أنها عقوبات طبيعية.

والواقع أن بعض التلاميذ «يستأهلون الضرب» ولكن إقرار هذا المبدأ قد تكون له عواقب سود، كما شهدت الحوادث التى ساقت مجترحيها إلى القضاء.

والواقع أيضًا أن المدرس قد يكون مسئولاً عن شيطنة التلميذ فى بعض الأحيان، فهو قد يحاسبه على كل لفتة وكل لفظة بأسلوب يحمله على العناد، وإذا عاند التلميذ أستاذه كان ذلك بداية الاختلال فى الصفوف.

التلميذ لا يجهد نفسه وقت الدرس بقدر ما يصنع المدرس، ومعنى ذلك أن الإجهاد قد يعرِّض المدرس لسرعة الانفعال، ولا كذلك التلميذ، فهو فى راحة نفسية تجيز له أن يضحك من غير موجب، وقد يرسل النكتة لمنظر يراه من المدرس أو من بعض التلاميذ.

وهنا تسنح الفرصة لإبراز قدرة المدرس على ضبط النفس، ولو شئت لقلت إن من واجب المدرس أن يرحب من وقت إلى وقت بشيطنة التلاميذ، لأنها من مظاهر الحيوية، ومن الشواهد على أنهم أصحاء.

وهل تكون المدرسة فى كل أوقاتها كدحًا فى كدح، ونضالاً فى نضال ؟

إن العلة الأساسية هى الشعور بأن التلميذ مسئول عن النظر إلى الدنيا بعين المدرس، وهذا شعور خاطئ، فالمدرسون والتلاميذ يمثلون جيلين مختلفين، ولا يتم بينهما التوافق إلا إذا روعى هذا الاختلاف.

وإذا شعر التلميذ بأن أستاذه يتجاوز عن هفواته فى بعض الأحاديث أضمر له الحب، وانساق إلى الطاعة بأدب وإخلاص. أكتب هذا وتحت يدى وثائق تشهد بأن ضرب

التلاميذ لا يزال مباحًا فى بعض المدارس الأولية والابتدائية، أما المدارس الثانوية فتلاميذها يستطيعون الدفاع عن أنفسهم إذا اشتجر القتال !

الضرب ممنوع، ممنوع، ممنوع.

والمدرس الحق هو الذى يشغل تلاميذه عن اللهو بجذبهم إلى موضوع الدرس بحيث لا تضيق صدورهم من التلميذ الذى لا يراعى أدب الاستماع، ومتى صار التلاميذ من جنود المدرس أصبح من حقه أن يقول إنه من كبار المربين.

الغداء فى المدارس :

أكثر المدارس الأهلية والأجنبية لا تقدِّم لتلاميذها طعام الغداء، فما سبب ذلك ؟

يرجع السبب إلى أن المصروفات المدرسية بدون الغداء تبدو هينة، فإذا أضيف إليها الغداء ظهرت عسيرة الاحتمال.

والمدارس التى لا تغذى تلاميذها تسمح لهم بالخروج ساعتين، ليتغدوا فى بيوتهم أو حيث شاءوا. وفى أغلب الأحوال يأخذ التلاميذ من آبائهم ثمن الغداء، ثم يتغدون فى المطاعم السوقية، وقد يؤثرون الجوع ليدخروا من تلك القروش ما يعينهم على قضاء بعض السهرات... والمهم هو النظر فى الساعتين اللتين يقضيهما التلميذ بعيدًا من المدرسة وبعيدًا من البيت، فماذا ترونه يصنع فى هاتين الساعتين ؟

هل ترونه يصنع ما كان يصنع أمثاله يوم كانت الدنيا بخير، ويوم كان التلميذ يذهب إلى أقرب مسجد فيصلى الظهر ثم يراجع دروسه بشغف وشوق ؟

يظهر أن الأمر لم يعد كذلك، ويظهر أن لامفر من وصف هاتين الساعتين بالمشئومتين، ففيهما يعرف التلميذ أشياء لا تخطر للمدرسة فى بال.

وإذن يجب منع التلاميذ من الخروج وقت الظهر، ويجب أن يتغدوا فى المدرسة، لا فى السوق ولا فى البيت، وفى مثل هذه الحال تعدُّ لهم المدرسة غداءً قليل التكاليف، لتبقى السهولة فى المصروفات. وأهونُ طعام تعدُّه المدرسة سيكون أنفع للتلاميذ من طعام السوق، وأصون لهم من الجرى فى الطرقات.

فإن لم تستطع هذه المدارس أن تغذّى تلاميذها وأن تصونهم من قضاء ساعتين بلا رقابة مدرسية ولا بيتية، فيجب حتمًا أن تسير على النظام الذى اختارته بعض المدارس الأجنبية، وهو قضاء اليوم الدراسى فى وقتٍ موصول، بحيث ينتهى فى منتصف الساعة الثانية، ثم يخرج التلاميذ إلى بيوتهم ليقضوا بقية النهار تحت رعاية الآباء.

وأرجو أن يسمع بعض خلق الله هذا الكلام، وما أحب أن أزيد.

بين النظار والمدرسين :

توجد أزمة مكبوتة بين النظار والمدرسين، ومَرَدُّ هذه الأزمة إلى الوهم الذى يقول بأن الناظر هو صاحب الأمر كله فى الدار المدرسية، بحيث لا يتصرف المدرسون أقل تصرُّف إلا بعد الاستئذان.

وهذه الحال تُشعر المدرس بأن الصلة بينه وبين الناظر صلة رسمية لا تعليمية، والفرق بين الصلتين بعيد، فالصلة الرسمية لا تصل بالمدرس إلى حب الدار المدرسية، أما الصلة التعليمية فتصل به إلى الشعور بأنه فى داره وبين عشيرته الأقربين.

ويؤلمنى أن أصرِّح بأن المدرسين لا يحبون مدارسهم إلا فى أندر الأحيان، فما سمعنا أن مدرسًا فى قنا رفض النقل إلى القاهرة بحجة أنه يشعر بأن بينه وبين مدرسته صلة روحية، وإنما سمعنا أن المدرس يطلب النقل من مدرسة إلى مدرسة لأسباب بعيدة كل البعد عن المعانى التعليمية.

فهل يكون للصلات بين النظار والمدرسين أثرٌ فى خلق هذا العقوق ؟

أنا أتمنى أن يوجد عندنا المدرس الذى يرى فى أحجار مدرسته شمائل قدسية، فلا يرضى بفراقها ولو كانت فى الواحات.

وأتمنى أن يوجد عندنا الناظر الذى يشعر بالأبوَّة للتلاميذ والأخوَّة للمدرسين.

بأيديكم أيها النظار والمدرسون أن تخلقوا فى الجو المدرسىّ روحانية تعوّض ما يفوتكم من المناسب المحفوفة بالبريق الخلاب، فإن غفلتم عن هذا الجانب فستظلون فى الأكتواء بالمهنة التى لا تسعد غير من يُقبل عليها بصدق وإخلاص.

أخطار تهدد المدارس الأهلية :

للمدارس الأهلية تاريخ بعيد، فقد عاونت على نشر التعليم، وأمدت الأمة بجمهور كبير من المثقفين.

ولكن هذه المدارس معرَّضة لأخطار قد تأتى على بنيانها من الأساس، لا قدر اللّه ولا سمح، فلتلك المدارس على الأمة حقوق.

هذه المدارس لا تفكر فى استبقاء المدرس، ولو وثقت به إلى أبعد الحدود، فهو عندها ضيف يرحل متى شاءت أو شاء، والرباط بينها وبينه عَقدٌ يُشترَى بمليمين وتخط فيه كلمات عديمة المدلول، وإلا فكيف يجوز أن يبقى المدرس بلا علاوة ولا ترقية ولو أفنى شبابه فى تلك المدارس؟

هل سمعتم أن مدرسة أهلية أغنت مدرسيها عن التطلع إلى الوظائف الأميرية ؟

لبعض تلك المدارس عذر مقبول، كأن تكون قليلة المال، أو مثقلة بـالديون، فما عـذرُ المدارس التى أمدت أصحابها بالثراء العريض وجعلتهم من أعيان البلاد ؟

ولو كان هذا المسلك ينفع تلك المدارس لقلنا إن لها غاية اقتصادية، ولكن هذا المسـلك لا يجلب عليها غير الضرر، ولا يسوق إليها غيرالبوار. وما قيمـة مدرسـة يشعر تلاميذها بأن أساتذتهم ليسوا إلا معلمين ضاقت عنهم المدارس الأميرية فلم يجدوا سعة فى غير المدارس الأهلية ؟

لو كان لأصحاب تلك المدارس نصيب من الفهم الصحيح لقواعد الاقتصاد لجعلوا من وسائلهم إلى الثروة أن ينافسوا الحكومة فى تزويد مدارسهم بأكابر المدرسين، ويومئذ تشعر الحكومة بأن لها منافسين أقوياء، فيرتفع قدر المدرس، وترتفع أقدار المدارس، ويُنقَض الوهم القائل بأن التعليم « مهنة بلا مجد ».

وعند الله يحتسب المدرسون جهادهم فى خدمة التربية والتعليم فهو عز شأنه لا يضيع أجر المجاهدين الصادقين.

* * *

في ضيافة الهلالى باشا*

للدكتور زكى مبارك

كانت جريدة الأهرام نشرت أن جماعة من الوزراء سيزورون المنوفية، وأن فى منهاج الزيارة شهود اجتماع يعقده النواب والشيوخ فى سنتريس، فاستفسرت من حضرة الأستاذ شافعى البنا عن المراد من ذلك الاجتماع، فقال إنه للترحيب بالوزراء وهم فى الطريق إلى عاصمة المنوفية، وإنما اختيرت سنتريس لأنها الملتقى لبلاد مركز أشمون، ولأنها أول بلد على بحر شبين بعد عبور القناطر الخيرية.

قلت لنفسى : إن اسمى يخطر فى البال حين تذكر سنتريس، فما الذى يمنع من دعوة وزير المعارف للتفضل بزيارة دارى هناك ؟

وكان المفهوم عندى أن الدعوة ستقابل بالاعتذار الرقيق، فقد كنت أعرف أن الوقت لا يتسع للزيارات، ولكن الهلالى باشا أعزه اللّه تقبل دعوتى بأحسن القبول، كأنى وجهتها إليه وهو فى أسيوط وطن الشهامة والجود.

وفى مكتب الوزير دار الحديث على الصورة الآتية :

- أهلاً بنابغة سنتريس !

- هذا اللقب لا يكفى يا معالى الوزير فى تحيتى.

- وكيف ؟

- لأن الأستاذ عباس حافظ هو الذى منحنى هذا اللقب فى مناوشة أدبية، وهو يريد أنى نابغة سنتريس فقط، ولست مفكرًا عالميًا، كما أريد لنفسى. وللأدباء مسالك تعجز عنها الشياطين !

- كنت أحسب أنك منحت هذا اللقب لكثرة ما تتحدث عن سنتريس.

- لو صح هذا لجاز أن أكون أيضًا « نابغة أسيوط » فلى فيها قصائد، وسأنشر عنها كتابًا بعد حين.

- أسيوط أوحت إليك أشياء ؟

- هى مدينة موحية، ولعلك توافق على أن لشارع الهلالى هناك جاذبية تفوق الوصف، وما دخلت أسيوط إلا جعلته طريقى إلى النيل.

---

* هذا المقال رياضة للقلم على الوصف الخالى من المبالغات، وهو أصعب الأوصاف.
مجلة الرسالة العدد ٥٠٦ بتاريخ ١٥ مارس ١٩٤٣ .

- لذلك الشارع تاريخ، فقد كان مع الأراضى التى حواليه بستانًا من بساتين جدى، وكان البستان هو الممر الموصل بين قصره بالمدينة ودهبيته بالنيل، فأين أنا من تلك الحياة ؟ وأين منى ذلك الثراء ؟

- إن ثروة جدك لم تضع، يا معالى الوزير، فلها صورة باقية هى علمك وفضلك، وفى بعض الآثار أن ذكاء المرء محسوب عليه، فالذكاء رزقك، وهو أطيب الأرزاق.

- من فضل الله على أهل الأدب أن يحبب إليهم المعانى.

- وفى سبيل المعانى سترى أنى بخلت على جيبى بثمن شجرتين عظيمتين قامتا فى مدخل البيت.

- وما حديث الشجرتين ؟

- إن تكلا باشا صاحب جريدة الأهرام بنى فى ضواحى سنتريس قصرًا لا يعلو عليه غير هاتين الشجرتين، فأنا أعزهما كل الإعزاز لأطول بهما قصر الرجل الذى قلت فيه :

ينازعنى فى سِنتريسَ منازعٌ   له من جَدًا (الأهرام) مرتَبَعٌ خَصبُ

إلى آخر القصيدة التى سأثبتها فى الطبعة الثانية من ديوانى.

- سأزور دارك، مع الشكر لدعوتك الكريمة، وإن كان مكانى فى رحلة الوزراء إلى المنوفية مكان الضيف.

- وزير المعارف لا يكون ضيفًا بالمنوفية، لأن المنوفية تمد مصر بجماهير كثيرة من المعلمين، وأنت وزير المعلمين، وسيكون الجميع ضيوفك هناك.

كان يجب أن أدعو الوزراء الذين يشتركون فى رحلة المنوفية، ولكن كيف أدعوهم وقد ضاق الوقت ؟

دعوت معالى الأستاذ فؤاد باشا سراج الدين بالتليفون فتلطف بالقبول، ولم يفته أن ينص على أن اسم سنتريس اسم جميل.

ومررت على معالى وزير العدل، وهو رجل أبغضه بعض البغض، لأنه يريد بجهاده ونضاله أن يكون الرجل الأول فى المنوفية لا فى سنتريس ! فقال حين رآنى : ما كنت أعرف أن الهلالى باشا يعزك إلى هذا الحد . ففهمت أن الهلالى باشا حدثه عن دعوتى قبل أن أصل إليه بلحظات.

ثم رجوت الأستاذ شافعى البنا أن ينوب عنى فى دعوة من لم أستطع دعوتهم لضيق الوقت، وهو أخ نعمت بمودته شهورًا طوالاً فى غياهب الاعتقال.

* * *

فى عصرية اليوم الذى يسبق يوم الاحتفال دخلت سنتريس لأرى كيف استطاع أبنائى بمعونة بنى أعمامهم إعداد حديقة الدار لاستقبال الوزراء.

وهناك وجدت نواب مركز أشمون يتحاورون فيما ينبغى أن يقال.

سمعت كلمات لم تعجبنى، فسارعت إلى تفنيدها فيما بينى وبين نفسى، لأتخذ منها مادة أنتفع بها فى إحدى المقالات، ولأشير عليهم بإخفائها عن الوزراء، إن خفت أن يقولوها فى حضور الوزراء.

فقلت فى نفسى : وما العيب فى ذلك ؟ هل نُقِلتْ أطيان المنوفية إلى القليوبية أو الغربية ؟ إن الذى وقع لا يزيد عن أن العائلات الكبيرة تفرعت إلى عائلات صغيرة، ومن هنا تعددت المِلكيات فى المنوفية، وهذا باب من قوة الشخصية، فلكل فلاح فى هذا الإقليم وجود صحيح، وهو لهذا صورة نموذجية من الرقى المنشود.

وسمعتهم يقولون : يجب أن نعرض مطالب المنوفية على الوزراء فقلت فى نفسى : الأفضل أن يقال إن المنوفية فى استعداد لمعاونة الوزراء على إصلاح سائر الأقاليم، لأنها تملك أكبر عدد من المفكرين.

والتفتّ فرأيت الأخ العزيز محمد أفندى محمود عمدة سَمَلاى يجذب يدى ليُسرّ فى أذنى كلمات، فما تلك الكلمات ؟

هو يرى أن نقيم الزينات على باب البيت وأنا أرى أن يبقى البيت بصورته الطبيعية، لأنى أبغض الحسن المجلوب.

ثم غلب رأيه وحضر الفراشون لتزيين مدخل البيت، فسمعت منهم كلمات غير مفهومة، ولكنى تظاهرت بالعلم وتركتهم يتصرفون فى حدود ما يحسنون.

« شُوَيَة كُرُنات، شُوَيَة كُرُنات ».

فما هذا من الوجهة اللغوية ؟

الكلمة الأولى مفهومة، فالشُّوَية مؤنث الشُوىّ، والشوىّ مصغر شىّ المخفف عن شىء، ولكن ما «الكُرُنات» ؟

دار ذهنى مرة ومرات إلى أن عرفت أنها منقولة من الكلمة الفرنسية Couronne وعلى هذا تكون الكُرُنات هى التيجان.

لا بأس، فللأدب الفرنسى فى عقلى ديون، ومن حقه أن يزور دارى مع الوزراء.

* * *

أما بعد فنحن فى صبيحة الاحتفال، وقد تجمّعت خلائق فى سنتريس يعجز عن عدّها الإحصاء.

وهذا هو « البُرْجاس »، فما البُرجاس ؟

هو لعب الخيل، وتلك كلمة قاموسية هُجرت فى أكثر البلاد، وبقيت مأنوسة فى سنتريس.

لم يكن منظورًا أن يحضر الوزراء فى الميعاد. ومن الذى يَفرض على رجال مكدودين أن يحضروا يومَ راحتهم في الميعاد ؟ لم يبق إلا أن تتمتع تلك الجماهير بلعب الخيل، وفى لعب الخيل متعة ذوقية تذكّر أبناء المنوفية بماضيهم فى الفروسية.

وبجانب لعب الخيل تقوم المزامير والطبول فى لونها القديم والحديث : فتسمع مرةً « يا نخلتين فى العلالى » وتسمع مرة « بالك مع مين يا شاغل بالى » .

ثم تنظر فترى بُنَيّات المدارس الأولية من سملاى وسنتريس فتلتفت إلى ماضى صِباك، يوم كنت تخطب طِفلةً وهى فى المهد، لأنك سمعت أن أمها من رائعات الجمال...

أما الأطفال فقل فيهم ما تشاء. ولقد سرّنى أن أرى أطفال سملاى وسنتريس فى صحة وعافية. وأى أطفال ؟

الحمد للّه على نعمته، فما فيهم سقيمٌ ولا ضعيف، وإنما هم الطلائع لجيل سيكون برعاية اللّه أقوى الأجيال.

إن وزارة الصحة لا تخاف على سنتريس حين تتعرض بلاد مركز أشمون لإحدى الآفات، فهواء سنتريس شفاء من كل داء، وهل تذكر وزارة الصحة أن بلدنا كلفها شيئًا من المتاعب ؟

إن اللّه يعلم أن سنتريس تعتمد على رعايته السامية؛ وإن اللّه يعلم أن أهل سنتريس أحوج الناس إلى رعايته السامية، فهو بكرمه وفضله ولطفه يقيهم الأسواء.

قضاء لحظة تحت سماء سنتريس تُذهب همومى ولو كانت أثقل من الجبال، فلهذا البلد روحانية منقولة عن اعتماد أهله على واهب الخيرات والثمرات، ورعاية اللّه لمن يتوكلون عليه لا تحتاج إلى بيان.

* * *

حضرت ثُلّة من الشُّرطة للمحافظة على النظام، ولكن الأهالى لم يحوجوهم إلى تعب، فقد عرف كل فرد واجبه، وسادت الرغبة فى أن تكون الحفلة غاية فى الصفاء.

ومع هذا أنظر فأجد رئيس نقطة النعناعية يشكو من أن أحد أقربائى يحاول الشغب فى الاحتفال، وبعد التحرى ظهر أن حامد أفندى عثمان يطلب من الحاضرين إمضاء عريضة ترفع إلى وزير المعارف، ليتفضل الوزير بإنشاء مدرسة ابتدائية فى سنتريس.

عند ذلك ابتسمت وقلت : يسرنى أن يعرف حضرة الضابط أن معالى الهلالى باشا يحب هذا النوع من الشغب. والمطالبةُ بإنشاء مدرسة ابتدائية فى سنتريس شغبٌ لطيف. ثم أخذت العريضة لأقدمها إلى معالى الوزير بنفسى، وستكون أجمل هدية أقدمها إليه.

وأقبل الخيّالة يَعدُون ويَركضون تبشيرًا بقدوم الزائرين، فهتفت الجماهير بحياة جلالة الملك، وصدحت الموسيقا بالسلام الملكى ثم تعالت الهتافات بأسماء الوزراء وباسم رئيسهم الجليل، شفاه الله وعافاه.

كان مع الركب جماعة من المحررين والمصورين، وهم جميعًا أصدقاء، وكان فرحى بلقائهم فرح الأديب بالأديب.

وبعد تناول القهوة وقف النائب المحترم سليم أبو العلا فألقى خطبة طويلة تحدث فيها عن أعمال الذين حضروا من الوزراء، وقد قوبلت خطبته بالإعجاب.

وكانت النية أن يخطب الأستاذ عبد البر زهران، ولكن الوقت لم يتسع لما يريد. ثم نهض معالى الأستاذ صبرى باشا أبو علم فألقى كلمة لطيفة شكر بها نواب مركز أشمون، واعتذر بلطف لمن ضاق الوقت عن سماع ما أعدوا من الكلمات الجياد.

وفى تلك اللحظة تموَّجت تلك الجماهير لتزور دارى مع الوزراء، فكان منظر لن تنساه سنتريس، ولو طال الزمان.

لقد أقيمت فى بلدنا حفلات كثيرة سمع فيها أهل بلدنا أصوات رجال مشاهير من رؤساء الوزارات، ولكنى أستبعد أن يكونوا فرحوا بقدر ما فرحوا فى هذا اليوم السعيد.

أمرُ الوزراء الوفديين عجَبٌ فى عَجَب !! إنك تنقدهم كيف شئت فى المجالس والمنتديات، ولكنك لا تستطيع صدَّ الجماهير عن الوفاء لهم إلى أبعد حدود الوفاء.

لم أكن وفديًّا فى أى يوم، ولا دعوت هؤلاء الوزراء للتفضل بزيارة دارى إلا لغاية أدبية، هى أن تَضيفِهم سنتريس، وهى المكان الذى اختاره للاحتفاء بهم نواب مركز أشمون، فما الذى يملك من السحر هؤلاء الوفديون ؟

كان السرادق الذى أعدَّه النواب يضيق برغم رحابته عن إعلان الفرح بقدوم أولئك الوزراء، فلما وجدت الجماهير فرصة للترحيب بهم فى حديقة الدار تدافعوا تدافع الأمواج، وأعلنوا فرحهم بهتاف يشق أجواز السماء.

وفى هذا الزحام وقف وزير المعارف ليسمع النشيد :

سنتريسٌ فــى ســرور   وهنـــاء وحبـــور

وقف برجاء من الأديب محمود عبد العزيز، برغم ذلك الجو الضجّاج.

أين الوقت؟ أين؟

إن الوزراء سيصلون الجمعة فى شنوان، فمن الواجب أن نعفيهم من الخطب الطوال.

قال الأستاذ عبد السميع الطوخى فقرات من خطبته، وقال الأستاذ محمد شما أبياتًا مـن قصيدته، ودعانى وزير العدل إلى أن ألقى خطبتى، فماذا أقول؟

قلت : إن الحاضرين جميعًا فى ضيافة الهلالى باشا... وطويت خطبتى. فما الذى كـان فى الخطبة المطوية؟

الجواب عند شجرات الورد فى حديقة دارى، وهى قد حدثتنى أن الزهـر يعيـش يومًـا أو يومين، أما جذور أشجار الورد فهى فى صلابة الجلمود، ومنها تتخـذ « البيبـة » التى تعجز عن إحراقها النيران.

دعابة الهلالى باشا هى زهر الورد.

وصلابة الهلالى باشا هى جذع الورد .

وهل منعت وداعة هذا الرجل من أن يكون أحزم الرجال ؟

* * *

التصريح بعد التلميح فى توجيه الجيل الجديد(*)

للدكتور زكى مبارك

كنت أُوهم قرائى أن غايتى من المصاولات القلمية هى إيقاظ الحياة الأدبية بعد أن طال عليها الهجود . وذلك غرضٌ نبيل ولكنه أصغر من الغرض الذى أتسامى إليه، وهو نقل المجتمع فى أخلاقه وآدابه من حال إلى أحوال.

وقبل المضىْ فى شرح الغرض الذى أرمى إليه بهذا المقال أذكر أن المجتمع المصرى مجتمع سليم، فقد نهض بأعباء لا ينهض بها من يكون فى مثل حاله من التعرض لمكاره التقلبات الدولية. وخِبرتى بطبقات المجتمع فى كثير من البلاد الشرقية والغربية دلتنى على أن المجتمع المصرى مفطور على التماسك، وأقنعتنى بأن شبان مصر على جانب من الأخلاق التى تصوغ أكابر الرجال، وإلا فكيفَ سَلِمتْ مصر من التصدع برغم ما تعانى من حوادث وخطوب ؟

هذا حق، وإذن فلا خوف على مصر ما بقيتْ تلك المناعة من الانحلال.

ولكنى مع ذلك خائف على مصير بلادى. ففى كل يوم أرى جماعات تغرى الشبان بالرجعة إلى العصور السحيقة، عصور الجمود والخمود.

ومن عجيب ما يقع فى مصر أن تكون الدعوة إلى الأخلاق مقصورة على أناس لا يعيشون إلا بأسندة من المجتمع، مع أن العقل يوجب أن تصدرُ الدعوة الأخلاقية عن رجال أقوى من المجتمع، رجال يقيمون البراهين على أنهم فى حيوية ذاتية تعصمهم من المداهنة والرياء، وتضمن لهم النجاة من مزالق التصنع والازدلاف.

الدعوة إلى الأخلاق تصدُر عن الأقوياء لا عن الضعفاء، لأن الأصل فى الخُلُق أن يكون قوة روحية وعقلية وذوقية تصل بصاحبها إلى شرف الثقة بالنفس فى غير ازدهاء ولا اختيال.

أما صدور تلك الدعوة عن أناس لا يستطيعون مواجهة أمواج الحياة إلا إن أمددناهم بالعون والرعاية فهو عمل لا نرضى عنه إلا إذا نوينا التصدق والإفضال.

(*) مجلة الرسالة فى ١٩٤١/١٠/٦ .

وأقول بصراحة إنى لا أستريح إلى من يدعوننا فى كل يوم إلى التخلق بأخلاق العصور الذواهب، بعد أن عرفتُ ما عرفت من أخبارها السود، فقد كان الرجل يُسجن وتُستصفَى أمواله بلا تحقيق، لأتفه الشبهات، وكان التاريخ يُكتَب بالأجر فيجوز فيه الكذب والتهويل بلا حساب.

فى العصور الماضية وُجد حكام و لم توجَد شعوب... وإنى أحب أن يكون فينا رجل مثل عمر بن الخطاب، ولكنى أكره أن نعيش على النظام الذى عاش عليه عصر عمر بن الخطاب... وأنا أرّحب بعودة هرون الرشيد، ولكنى أكره أن يعود عصر هرون الرشيد، فما يسمح عقلى بقبول الصورة التى عاش عليها المسلمون فى عهد ذلك الخليفة العظيم، وإن لُوِّن عهدهُ بروائع الألوان.

وما رأيكم فى الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى وُلد فى بلادنا الغالية ؟

كان غاية الغايات فى إيثار العدل، وأنا أتمنى أن يعود، إن كان للأموات إلى الدنيا مَعاد، ولكنى أكره أن يعود عهدُه مرةً ثانية، فقد كانت الأمم الإسلامية فى تناحُر وشقاق، وكانت الإدارة الحكومية أضعف من أن تجمع الشمل، وترأب الصدع، وترتق الفُتوق، فكانت أيامه قنطرة تحمل أثقال الفِتن من جانب إلى جانب، بلا نِظام ولا وثاق، وهى أيام لها سوابق ولواحق، وبشؤمها المأثور هوت الأمم الإسلامية إلى المهاوى التى سجّلها التاريخ.

وخلاصة القول أن « السّلف الصالح » لا يتمثل فى غير الحكام العادلين، وهم آحاد أو عشرات، أما الشعوب فى تلك العهود فلم يكونوا يحتكمون إلى غير السيف، وقد كان وحده الفَيْصل فى أكثر ضروب الخلاف.

ماذا أريد أن أقول ؟

أريد النص على أن التعلق بأهداب العصور الماضية ضلال فى ضلال، وأن الذين يريدون أن يردّونا إليها ليسوا إلا أحياءً يحملون قلوب الأموات، وإن تردّوا بأردية الصالحين والأتقياء !

لم يكن للشخصية الفردية وجود صحيح فى العصور الخوالى، ولا كان أحد يجرؤ على مواجهة الحكام بنقد ما يقع فى أعمالهم من جور واعتساف، إلا نوادر من المعارضات قام بها أفراد من الزهاد والصوفية. نوادر فَرِح بها عشاق الصراحة والعدل فسجلوها بطنطنة وتهليل، لأنها كانت فى أنظارهم من جملة الغرائب والأعاجيب... وهل يُنَصّ على شىء إلا إن كانت فيه غرابة توجب الالتفات؟

وخلاصة القول أنى أدعو إلى مدنية العصر الحديث، فهى آخر ما اهتدت إليه العقلية الإنسانية، وإن لم تخلُ من نقائص وعيوب. وسنساير هذه المدنية إلى أن تجيء مدنية أفضل منها وأنفع، على فرض أن العقل الإنسانى يرتقى من يوم إلى يوم. ولعله يكون كذلك بفضل ما يرتطم فيه من مآثم الطغيان الدولى؛ وهو طغيان يخلق النفرة من البغى والعدوان، ويؤرّث نار الثورة على الظلم والظالمين.

والحق أن عيوب المدنية الحديثة ليست بشيء بجانب مزاياها الأساسية، وإنما يقع الخطأ من الغفلة عما لها من محاسن، والوقوع فيما لها من عيوب. ولو كان لنا جميع فضائل الأقوياء وجميع مساويهم لتبدَّل الحال غير الحال وصرنا على جانب من المَنعة نصاول به من نعاصر من كبار الشعوب، ولكن الخوف يساورنا من ناحية واحدة، هى صعوبة التسلح بالفضائل وسهولة التردى فى العيوب.

وهنا نقطة دقيقة لا أحب أن يَغفُل عنها قرائى، فقد يتوهمون أنى أنهاهم عن اتباع ما ورثوا من محمود التقاليد، - وهذا وهمٌ فظيع - ففى التقاليد القديمة أشياء وأشياء تستحق الإعجاب. وليس عندى ما يمنع من أن يكون فينا من يساير المحمرد من تقاليد القرن الثالث أو الرابع، على شرط أن يحسّ تلك التقاليد إحساسًا يمنحها قوة الفاعلية الأخلاقية، أما متابعة السلف بلا وعى ولا إحساس فذلك ضربٌ من الجمود البغيض، لأنه يردّنا إلى الحيوانات التى تسير فى طريقها المرسوم بلا تبّصر ولا إدراك. وبالإشارة يكتفى اللبيب !

لك أن تساير ما تشاء من المبادئ الأخلاقية، ما دمت تؤمن بالمبدأ الذى ارتضيته منهاجًا لحياتك... وقد أصل إلى أبعد الحدود فأقول : إنه لا خوف عليك من التخلق بأبغض الأخلاق فى نظر المجتمع، على شرط أن تكون اقتنعت فى سريرة نفسك بأنك على هدًى وأن معارضيك فى ضلال. فالذى نشكوه هو ضعف العزيمة الخُلُقية، كأن نرى جماهير تسير سير القطيع بلا إرادة ولا تمييز، وتلك بداية الخذلان.

يجب حتمًا أن تكون لك إرادة صحيحة فيما تنصرف عنه وما تُقبِل عليه. ولا قيمة لطواعيتك لآداب المجتمع إن خلَتْ تلك الطواعية من النية... وهل يثاب من يقرأ القرآن على طريقة الببغاء ؟

لقد أنكر قومٌ صحة الصوم بالنسبة إلى من لا ينوى الصيام. فما معنى ذلك ؟ معناه أن العمل بلا نية ضياع فى ضياع.

وأنت قد رأيت ناسًا تأدبوا بأفضل ما أُثِر من آداب المجتمع، ثم ظلوا متخلفين. ورأيت ناسًا ثاروا على المحمود من تقاليد المجتمع، فما ضرَّهم ذلك ولا فاتهم شيء من الطيبات. فهل تعرف سرّ هذه الظاهرة الحيوية ؟

يرجع السرّ إلى أن النية هى الأصل فى موجبات الضر والنفع؛ فالذى يساير التقاليد الحميدة خضوعًا للمجتمع بدون أن يكون له فى الإيمان بها نصيب يظل طول عمره ضعيف الكفاية الأخلاقية؛ وقد يُنسى فلا يشهد يوم الحساب، لأنه صار أداة آليّة، ومن كان كذلك فلا مكان له بين من يستحقون الحمد، ومن يستأهلون الملام... والذى يثور على المجتمع وهو مؤمن بأنه على حق ـ وإن كان فى الواقع من المبطلين ـ هذا الثائر قوى جدًا من الوجهة الأخلاقية، وهو أقرب إلى الله ممن يسايرون التقاليد الحميدة وهم غافلون عن مدلولها الصحيح.

وهنالك طبقة منحطة أبشع الانحطاط، وهى الطبقة التى تثور على التقاليد المحمودة بلا نية ولا إرادة ولا عزيمة، وإنما تصنع ما تصنع على سبيل التظرف السخيف، لأنها سمعت أن الثورة على تقاليد المجتمع تعد أصلاً من أصول التمدن الحديث، وهذه الطبقة هى التى تعوّق الوثبات الإصلاحية، وهى التى تعطى الحجة لأهل البلادة من دعاة الخضوع لقديم التقاليد، بلا تفريق بين الزائف والصحيح.

وهؤلاء المتظرفون السخفاء هم خصومنا الألداء. فإليهم يرجع السبب فى نفرة الجمهور من الوثبات الإصلاحية، وإن كان حالهم أقل بشاعة ممن يسايرون القديم على علاته ليسرقوا ثقة المجتمع الغافل عن مسالك أهل الرياء والرأى عندى أنه لا قيمة لأى عمل إن لم يَصدُر عن النفس بحرارة وإيمان، وإن كان فى ذات نفسه من جلائل الأعمال، لأن القيمة الأخلاقية ترجع فى جوهرها إلى النية الصحيحة فيما نأتى وما ندع، بغض النظر عن الاهتداء إلى طريق الصواب. وقد ينتفع المخطئ أعظم الانتفاع بما يزاول من أخطاء، لأن الله لا يحاسب من يقعون فى الخطأ عن جهل، ولأن أعمالهم حين تتسق مع ضمائرهم تصون الشخصية الخُلقية من الانحلال، ولا كذلك من يعملون الصالحات بغير نية أو عقيدة، فأعمالهم لا تقدم ولا تؤخر.

وفى رياضة النفس على التطبع بكرائم الأخلاق أواجه الموضوع بعبارة أوضح وأصرح فأقول :

إن عندنا اليوم جمهورين يقتتلان حول القديم والحديث من التقاليد، ولكنه اقتتال غير منبعث عن عقائد راسخة الجذور فى الصدور، ومن أجل هذا ظل عديم الجدوى فى إيقاظ الحياة الأدبية والاجتماعية، وقد ينقضى هذا العصر بدون أن نشهد ثورة فكرية تحل عقال الأفئدة والعقول كالثورة التى شهدها من عاصروا محمد عبده وقاسم أمين.

ولكن ما أسباب هذا الجمود الدميم ؟

ترجع الأسباب إلى نوع الحياة التى يحياها المفكرون فى هذا الجيل، وهم فريقان : فريق يعيش فى ظل الوظائف الحكومية، وفريق يعيش فى ظل المنافع السياسية.

أما الفريق الأول فأسير للمثل المغربى : « صاحب الوظيف وصيف » وانطباق هذا المثل على الموظفين لا يحتاج إلى بيان. فالموظف فى مصر يهدَّد فى رزقه وأرزاق أبنائه حين يتعرض لغضب المجتمع؛ والمجتمع يغضب لأضعف الأسباب؛ وهو يريد أن يكون الموظف أداة حكومية كالأداة التى تسجل حضور الموظفين فى الصباح بدون أن تعرف ما تصنع، فإن استباح الموظف لنفسه حرية الفكر والقول فله الويل!... أليس فى الدنيا أناس يحرِّضون الرؤساء على مرءوسيهم بالخطابات السرية أو بالغمز المرذول فى بعض المجلات ؟

وعلى هذا يكون الأمل ضعيفًا جدًا فى انبعاث الحياة الفكرية من بيئات الموظفين، مع أنهم صورة الاستنارة الفكرية فى جميع البلاد، بفضل حظوظهم من التثقيف والتهذيب.

وأما الفريق الذى يشتغل بالسياسة من أهل الفكر والعقل فالأمل فى ثورته على غفلة المجتمع أضعف من الضَّعف، لأن هذا الفريق يفكر دائمًا فى المعارك الانتخابية، وهى معارك لا يفوز فيها من يتعرض للقال والقيل، ولو كان من أكابر الحكماء.

السياسى لا ينجح أبدًا إلا إذا راعى أهواء المسُوسين، وفيهم الأحمق والعاقل، والبليد واللبيب، على تفاوت فى هذه الصفات لا يسرنى أن أقول رأيى فيه بغير التلميح.

وعلى هذا يضعف الأمل فى انبعاث الثورة الفكرية من بيئات السياسيين، كما ضَعف الأمل فى انبعاث تلك الثورة من بيئات الموظفين.

فإلى أين تسير بلادى الغالية ؟ وكيف يجوز أن يمرّ بها زمن طويل أو قصير وهى محجوبة عن أقباس الحرية الفكرية ؟

هذا رجل يظاهر التمدن القديم ليقتات من فُتات الرجعيين، وذاك رجل يظاهر التمدن الحديث لينتفع بجاه أدعياء التجديد، وذلك مخلوق يساير أولئك وهؤلاء بلا بصيرة ولا يقين، لأنه فى حقيقة أمره حيران، أو لأنه أَلِف السمسرة فى ميدان الأخلاق !

الرجعىُّ المؤمن بالرجعية غير موجود، وإنما هو شبَح يتوهم أن له منفعة فى مؤازرة الرجعيين المزيفين.

والمجدِّد المؤمن بالتجديد موجود، ولكنه غير مزوَّد بالشجاعة الوافية، بدليل أنه يترك أخاه دَريئةً لسهام السفهاء، فلا يدفع عنه كلمة البهتان، ولا يمدّ إليه يد المواساة حين ينتاشه الأغبياء!

إلى أين تسير بلادى الغالية ؟ إلى أين ؟ إلى أين ؟

لم ينبغ فى عصرنا مؤمن فى مثل حماسه الغزالى، ولا صوفى فى مثل روحانية ابن الفارض، ولا مرتاب فى مثل عقل أبى العلاء، ولا فاجر فى مثل ظرف أبى نُوَاس... فبأى وجه نلقى اللّه وقد خلا وادينا العزيز من أمثال هذه المعانى ؟!

أنقدّم إلى اللّه حطبَ جهنم وهم المذبذَبون بين القديم والحديث ؟!

وكيف نجيب إذا هتف هاتفٌ يوم القيامة بأن المصريين فى بعض عهودهم لم يراعوا حقوق واديهم الجميل ؟

قد يقال : إن عندنا رجالاً يثورون على ركود المجتمع من وقت إلى وقت ؛ وهذا حق، ولكن ثورتهم فى أغلب أحوالها من الحديث المُعاد، فهى فى ضعف المبتذلات؛ فالنائب الذى صاح مرة بأن المصريين مختلفون فى الأزياء لم يأت بجديد، فقد سمع الناس هذه الصيحة قبل أعوام تُعدّ بالعشرات. وهذا النائب نفسه لا يستطيع أن ينكر أن اختلاف الأزياء لم يعوّق «السلف الصالح» عن النهوض؛ فما سمعنا أبدًا أن الأزياء توحدت فى أمة إسلامية فى العصور التى يلقبونها بالعصور الذهبية، حتى يصح القول بأن اختلاف الأزياء هو السبب فى تخلف الأمة المصرية، والأستاذ الذى أتعب نفسه فى الكلام عن انحلال الأغانى الشعبية لم يأت بجديد، فقد قيل هذا الكلام ألوف المرات، ولم يكن توكيده فى احتياج إلى صيحة من عميد إحدى الكليات !!

وأرجع فأقول إنى أكره أن يعيش الجيل الجديد بلا بصيرة ولا يقين، لأن هذا الضرب من العيش ليس إلا ضربًا من الموت، وإليكم أسوق بعض الشواهد :

كثر القول فى الدعوة إلى إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية، وقد شغلت نفسى بهذا الموضوع حينًا من الزمان؛ ثم انصرفت عنه كل الانصراف، حين شعرت بضعف الأساس الذى رجوت أن يقام عليه البناء.

ولتوضيح هذا المعنى أقول : إنى رأيت الأزهريين لا يثقون بمعهدهم إلا ثقة صورية، ولو شئت لصرحت بأنهم يثورون عليه ثورة لا يسترها غير الكبت، بدليل أنهم لا يلتفتون إليه حين يجدون فرصة للتحرر والانطلاق.

كانت مشيخة الأزهر إلى الشيخ سليم البشرى، ومع ذلك ربّى جمهور أبنائه تربية مدنية لا دينية . ثم كانت إلى الشيخ أبى الفضل الجيزاوى، ومع ذلك ربى أبناءه تربية مدنية لا دينية. ثم كانت إلى أستاذنا الشيخ الأحمدى الظواهرى، وقد ربى جميع أبنائه تربية مدنية. وشيخ الأزهر اليوم هو أستاذنا المراغى؛ وقد ربى جميع أبنائه تربية مدنية، وابنه مرتضى

وكيل محافظة القنال وليس شيخًا لمعهد طنطا أو دسوق؛ فماذا ترون فى مغزى هذا الشاهد الطريف ؟ ألا يدلكم على أن الأزهريين لا يثقون بمعهدهم إلا ثقة صورية ؟

إن كان الأزهر هو المثل الأعلى فى إعداد الشبان للحياة الدينية والدنيوية فكيف يفوت شيوخه الأجلاء أن يصونوا أبناءهم بالالتجاء إلى حصنه الحصين ؟

وإن لم يكن صالحًا لتربية هؤلاء الأبناء فكيف يفوت أولئك الآباء أن يصارحوا الأمة برأيهم فيه وهم هداتها إلى الدنيا والدين ؟

كان يتفق لبعض كبار العلماء أن يوزعوا أبناءهم بين المعاهد الدينية والمدارس المدنية، كما صنع الشيخ محمد شاكر والشيخ عبد المجيد اللبان؛ ولكن هذه الظاهرة قد انقرضت ولم يبق من الأزهريين من يربى أبناءه تربية دينية وهو يجد الوسيلة إلى تربيتهم على الطريقة المدنية... أليس لهذا المسلك من المعانى ما يوجب التفات من يسجلون التطورات الاجتماعية ؟ أليس هذا بشيرًا ونذيرًا بأن الأزهر يريد أن يتحول ؟

وما يقال فى الأزهريين يقال فى كثير من الطبقات : فالمدرسون فى جملتهم لا يرضون أن يصير أبناؤهم إلى احتراف التدريس، كأنهم يتوهمون أنه مهنة لا تمنح صاحبها أهلية الغنى والمجد. فكيف يؤدى المدرس واجبه تأدية حسنة وهو ينظر إلى مهنته بعين الاستخفاف ؟

والموظفون الذين ينشرون الثقافة الزراعية من طريق المقالات والمحاضرات لا يرضون لأبنائهم أن يكونوا فلاحين، مع أن الفلاحة هى أساس الثروة المصرية.

يجب أن تؤمن كل طبقة بأنها شريكٌ أمين فى الهيئة الاجتماعية. ويجب أن تحترم جميع أعمالنا احترامًا يصل إلى الحب لنتذوق طعم القيام بالواجب فى صدق وإيمان، ولنستردّ ما أضعناه من المنافع بسبب الفهم الخاطئ لاختلاف الطبقات وهو اختلاف لا يتم بدونه وجودٌ صحيح.

أما بعد، فهذا مقال لم أرد به غير وجه الحق. وأنا أدعو جميع الكتّاب إلى الاهتمام بأمثال هذه الشؤون فى صراحة لا يصدها تهيب ولا احتراس، وليثقوا بأن الشعب المصرى يقبل جميع الآراء ما صدرتْ عن نزاهة وإخلاص.

الشعب المصرى لم يخذل داعيًا من دعاة الحق، ولم يصمّ أذنيه مرة واحدة عن كلمة الصدق، فقد استجاب لجميع المصلحين، وحفظ لهم منازلهم فى التاريخ، فما تهيُّبُ بعض الكتاب من عرض ما يجيش فى صدورهم من الآراء الصحاح ؟

أقدموا غير هيَّابين. فما فاز غير المزودِّين بفضيلة الشجاعة ونعمة الإيمان.

اسمعوا صيحة الحق(*)

للدكتور زكى مبارك

أخى الأستاذ الزيات :

ما هذا الذى نشرته فى مجلتك لبعض أدباء لبنان ؟ وكيف جاز أن تقول : « إن فى الاطلاع عليه فائدة من جهة صوابه ومن جهة خطأه» وهو بعيد كل البعد من الصواب؟

أفى الحق أن أدباء لبنان ينافسون أدباء مصر ؟

ليت ذلك كان صحيحًا. فقد شقينا من غير طائل فى البحث عن المنافسين حتى خشينا أن تفتُر عزائمنا لقلة من نصاول ونقاتل من أقطاب البيان.

إن ذلك الأديب اللبنانى دلنا على أن العقل فى بعض البيئات الأدبية فى لبنان لا يزال فى طور الطفولة البريئة، وكل شىء من الأطفال الأبرياء مقبول.

ألم يقل إن مصر لم يصدر فيها كتاب واحد ذو قيمة لمؤلف مصرى صميم ؟

فإن لم يكن هذا الحكم من أحكام الأطفال الأبرياء، فكيف تكون أحكام الأطفال الأبرياء ؟

* * *

ولنفرض أيها الأخ أن مصر ليس لها وجود أدبى كما يتوهم بعض أهل لبنان، فهل لكم أن تدلونى على الأسباب الصحيحة التى قضت بأن يبذل المستعمرون ما يبذلون ليشوهوا سمعة مصر فى الأقطار العربية ؟

هل لكم أن تدلونى على الأسباب التى قضت بأن يشقى المستعمرون فى الحيلولة بين مصر وبين الأقطار العربية ؟

إن المستعمرين يعرفون أن مطامعهم فى الشرق لن تتحقق إلا يوم تضعف اللغة العربية ويضعف سحر المصحف؛ وهم يعرفون أن مصر تستقتل فى سبيل اللغة العربية وفى سبيل المصحف؛ ولبعض ساستهم الكبار كلمة مأثورة وصلت إلى أسماع من فى القبور وإن لم تصل إلى آذان بعض الأحياء !

(*) مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٣٩/٢/٢٧ .

وأنا لا أتهم من يشوهون سمعة مصر الأدبية بأنهم يخدمون بعض الأغراض الشيوعية أو الاستعمارية، فذهنى لا يسيغ أن يكون فلان وفلان من أهل الضلال؛ ولكنى أرجو أن يتنبه فلان وأشياع فلان إلى أنهم يخدمون المستعمرين من حيث لا يشعرون. والغفلة قد تكون أقبح من الإثم الصريح.

وما الذى يغنم بعض أدباء لبنان من الطعن فى الثقافة المصرية ؟ أيستطيعون أن يدّعوا أن فى مقدورهم أن يُمدُّوا أهل بلادهم بكل ما تتطلع إليه الأذواق والعقول ؟

أيستطيعون أن يدّعوا أن أهل بلادهم من القناعة والزهد بحيث يكتفون بما يصدر فى لبنان من مؤلفات وجرائد ومجلات ؟

أيستطيعون أن يدّعوا أن أدباء مصر لا يملكون من وسائل العناد والغطرسة ما يملك بعض أدباء لبنان يوم يستعر الجدال ؟

أيستطيعون أن يدّعوا أننا سنصفح أبد الدهر عن تطاول بعض الناس فلا نجزيهم عقوقًا بعقوق ؟

* * *

لقد زرت لبنان، فماذا رأيت ؟

رأيت الطبيعة ورأيت الناس، ويعزّ علىّ أن أصرح بأن بعض الناس فى لبنان يصدّون النفوس عن التطلع إلى جمال الطبيعة فى لبنان.

وما الذى يهمنا من الجبل وهو صامت لا ينطق ؟ ما الذى يهمنا من جبل لبنان يوم يصح أن أبناءه يؤذون العروبة جاهلين أو عامدين ؟

لقد تعقبتْنى إحدى مجلاتهم وأنا فى بغداد فكتبت تقول :

« سفير العروبة المصرية فى العراق يطعن صدر لبنان ».

وقد كتبت ردًّا مفحِمًا على ذلك المقال الجائر الظلوم، ثم طويته ترفُّقًا بلبنان الذى أرجو أن يظل بإذن الله من حصون اللغة العربية. وأنا مستعد لنشر ذلك المقال إن أذن اصدقائى الكرام من أهل لبنان.

إن أدباء مصر يملكون من الثروة الذوقية ما لا يملك بعض الناس، فأدباء مصر هم الذين يشيدون بمحاسن الأقطار العربية، وهم الذين يُضْفون الجمال على كل بلد يحلون فيه؛ وإلى أقلامهم يرجع السحر الذى يتمتع به جبل لبنان.

وأنا مع ذلك أشهد بأننا نرد إلى أهل لبنان بعض ما طوقوا به أعناقنا من وداد: فلمصر فى لبنان مكانة عالية. وفى أدباء لبنان رجال أبرار لا يذكرون مصر بغير الجميل؛ ومن

أجل هؤلاء الرجال الأبرار تتسع صدورنا لما نسمع من فلان وأشياع فلان، لأننا نعرف أن المرء لا يمثل أمته حين يخطئ، وإنما يمثلها حين يصيب.

ثم ماذا ؟

قالوا : إن مصر مدينة فى بعض نشاطها الأدبى إلى ناس كان أجدادهم من لبنان.

وهذا حق.

ولكنى أتحداكم أن تثبتوا أن لبنان نبغ فيه أديب واحد و لم يكن مصدر نبوغه الاتصال بالثقافة المصرية.

أتحداكم أن تثبتوا أن فى مقدوركم أن تنقلوا إخوانكم فى مصر إلى مرابعهم فى لبنان.

إن الأدباء السوريين واللبنانيين لم يذوقوا طعم المجد الأدبى إلا بعد أن شربوا ماء النيل، وفلان وأشياع فلان سيظلون من النكرات إلى أن يذوقوا ماء النيل.

فتعالوا إلينا أيها الإخوان لنحوّ لكم إلى رجال عظماء يسيطرون على الأدب والتاريخ.

إن القاهرة تصنع بعقول العرب فى العصر الحديث ما كانت تصنع بغداد فى عصر بنى العباس؛ فإن استطعتم طمس نور الشمس فامضوا فى عنادكم آمنين !

أتُشتم مصر فى لبنان وبفضل مصر تنبه العرب إلى جمال لبنان ؟

* * *

ثم ماذا ؟

ثم زعم فلان وأشياع فلان أن أمثال الدكتور طه حسين والدكتور هيكل والأستاذ أحمد أمين والأستاذ لطفى جمعة لم يصنعوا شيئًا، وأنهم فى مؤلفاتهم لم يكونوا مبتكرين.

فهل يستطيع فلان وأشياع فلان أن ينكروا أن لهؤلاء الرجال فضلاً عظيمًا فى نشر الثقافة الأدبية والعلمية والذوقية ؟

هل ينكر أحد أن الدكتور طه حسين رجل موهوب وأن صوته وصل إلى المشرقين ؟

هل ينكر أحد أن الدكتور هيكل من أعاظم المتحدثين عن شخصية الرسول ؟

هل ينكر أحد أن الأستاذ أحمد أمين وضع أحجارًا متينة فى تأريخ الحضارة الإسلامية؟

هل ينكر أحد أن لطفى جمعة له أبحاث وفصول تعدّ من الروائع ؟

ومن هو الأديب الذى يسمح له ضميره بأن يتجاهل أقدار هؤلاء الرجال ؟

قد يتطوع أحدكم فيبعث ما كنتُ قلتُه فى طه حسين واحمد أمين وأنا أعرف أنى قلت فى هذين الرجلين ما قلت باسم النقد الأدبى، ولكنى مع ذلك أعرف أنهما من

أقطاب هذا العصر، وليس لهما نظير فى لبنان أو غير لبنان، وسيكون لهذين الرجلين صدًى مسموع فى الأقطار العربية يمتد إلى أجيال وأجيال.

* * *

أحب أن أعرف لحساب مَنْ يُتعب بعض الناس أنفسهم فى الغض من الثقافة المصرية ؟ فمن المستحيل أن يكون هذا التحامل خالصًا لوجه اللّه والأدب. ومن البعيد أن تكون تلك النزوات بريئة من شوائب الأغراض.

لقد آن أن نعرف أن الاستعمار يغزونا من كل جانب. آن أن نعرف أن الاستعمار يريد أن يتخلص أولاً من تفوق مصر فى خدمة اللغة العربية، لأنه يفهم جيدًا أن سيطرة الثقافة المصرية تقوم بفضل اللغة العربية، وهو يرجو أن يخرس لسان العرب لتحتل مكانه ألسنة روما ولندن وباريس.

الاستعمار يفهم أن القاهرة صارت محور الحركة العربية، ففيها تُعقَد المؤتمرات، وفيها يلتقى العرب بعضهم مع بعض، وفيها تحلّ المعضلات، وإليها يرجع الأمر فى فضّ الخصومات العربية، وهو من أجل ذلك يبذل جهده الأثيم فى تنفير العرب من الثقة بالأمة المصرية.

فكيف يغفل بعض إخواننا فى لبنان عن هذه الحقائق ؟

كيف ينسى بعض إخواننا فى لبنان أن للمستعمرين مكرًا يخفى على إبليس ؟

كيف يجهل بعض إخواننا فى لبنان أن تلك الحركة قد تسوق أهل مصر إلى نفض أيديهم من صداقة لبنان ؟

وهل يظنون أن أهل مصر من الملائكة وأنهم لا يعرفون فى جميع الأحوال غير الصفح الجميل ؟

أرجو أن يعرف بعض إخواننا فى لبنان أننا نلاقى كثيرًا من العَنت والمشقة فى تبديد ما يحيطون به أغراضهم من ظلمات وشبهات.

أرجو أن يعرفوا أن قالة السوء قد تطوّق أعناقهم إذا فكرت الصحافة المصرية فى دفع ما يوجهون إلى مصر من زور وبهتان.

أرجو أن تعرفوا جميعًا أن يد اللّه مع الجماعة. أرجو أن تعرفوا أن العروبة تستطيع أن تنسى أن فى الدنيا بلدًا اسمه لبنان يوم تثق بأنه يضع الأشواك فى طريق الوحدة العربية، ولكن ذلك اليوم سيكون مشئومًا لأن العرب يؤذيهم أن يضيع لبنان.

هل تصدقون أننى دافعت عنكم فى دمشق وبغداد ؟

هل تصدقون أن الحزن يفعم قلبى كلما تذكرت أن الدسائس الاستعمارية قد تبعدكم عنا إلى غير مَعاد ؟

هل تصدقون أنى طربت حين رأيتنى أُشتَم فى بعض مجلاتكم باللغة العربية لا باللغة الفرنسية ؟

وأؤكد لكم أيها الإخوان أنى لا أتصدق عليكم بهذا العطف الصادق، فلو جُمع ما نُشر فى جرائدكم ومجلاتكم من الدعوة إلى الثقة بمصر لتكوّن منه محصولٌ أدبىٌّ نفيس. ونحن نعرف منزلتنا فى قلوبكم، ونحرص على أن تبقوا أصدقاء أوفياء، ولكنكم تعرفون أن الطبيعة الإنسانية يغلب عليها الضعف، فهى قد تذكر السيئات وتنسى الحسنات . فأرجوكم بالله ألا تحبطوا أعمالكم بمظاهر الغدر والجحود، فقد تلقون منا من يقابل العدوان بالعدوان.

* * *

أما بعد فهذه كلمة صريحة أردت بها وجه الحق، وما أنكر أن فيها بَدَوات لا تخلو من خشونة وعنف، ولكن يعزينى أنى كنت فيها مخلصًا كل الإخلاص.

ولكم أن تثقوا بأن مصر لن تقف إلا حيث تحبون، ولن تروا منها غير الصدق والوفاء.

* * *

٤٥٠٠ ثانية فى صحبة أم كلثوم(*)

للدكتور زكى مبارك

لم تسمح الظروف بلقاء الآنسة أم كلثوم بعد الذى دوَّناه من لحظات التلاقى فى كتاب «ليلى المريضة فى العراق» وهى لحظاتٌ قِصار ولكنها كانت جيّاشة بأقباس المعانى، ولو طالت تلك اللحظات لظفرنا من سِحر الحديث بأطايب وأفانين.

و لم يكن ذلك الحرمان عن هجر منها أو صدود، فما يستطيع ذلك الروح أن ينسى أن له مآرب وجدانية من مسامرة أرباب الوجدان، وإنما شاءت المقادير أن تصرفنا بالشواغل القاسية عن التأهب لمداعبة الأفاعى والصِّلال.

وما معنى ذلك ؟

معناه أنى سأتحف أم كلثوم بصورة وصفية تبسم لها فى حين وتَعْبَس لها فى أحايين، مع العرفان بأنى لم أقل غير الحق فى وصف ذلك الروح اللطيف.

وهل لهذه الحمامة الموصلية رُوحٌ لطيف ؟

ما وازنتُ بين غناء أم كلثوم وحديث أم كلثوم إلا تذكرت قول شوقى فى الصوت الحنّان.

وتَرٌ فى اللَّهاة ما للمغنِّى ... من يدٍ فى صفائه ولِيانِهْ

فهذه الحمامة تغرِّد بلا وَعْى ولا إحساس فى نظر من يحكم بظاهر ما يندّ عن شفتيها الورديتين من أغانٍ وأحاديث.

فهل تكون فى حقيقة الأمر كذلك ؟

إن كانت أم كلثوم بلا وَعْى ولا إحساس فعلى الأدب والفنّ العفاء. وكيف تُحرَم أم كلثوم قوة الروح وهى بلا نزاع ريحانة هذا العصر وأغرودة هذا الجيل ؟

وأين من يزعم أن قلبه سَلِم من الشوق لأغانى أم كلثوم، وما مرّت لحظة واحدة فى المشرق أو فى المغرب بدون زفرة أو لوعة تثيرها أغانى أم كلثوم ؟

وهل سمع الناس فى قديم أو حديث صوتًا أندى وأعذب من صوت أم كلثوم ؟

(*) مجلة الرسالة فى ٢١ / ١٠ / ١٩٤٠ .

تلك الفتاة هى الشاهد على أن اللّه يزيد فى الخلق ما يشاء، فتبارك اللّه أحسنُ الخالقين!

ولكن كيف نحلّ هذه المشكلة : مشكلة الفرق بين غناء أم كلثوم وحديث أم كلثوم ؟

الحل سهل : لأن العقدة مشتركة بينها وبين محمد عبد الوهاب وإليه وإليها انتهى الإبداع فى عالم الغناء.

عبد الوهاب رجل أعمال وأم كلثوم رجل أعمال، وذلك سر العبقرية عند هذين الروحين، وهو الدليل على أن اللّه لا يَهَب المواهب لأهل التخاذل والانحلال، والزهد فى جمع الثروة هو الآية الحق على التخاذل والانحلال وغَضبةُ اللّه على من يحسبنى أمزح فى هذا الحديث !

دعتنى أم كلثوم مرة لتناول العشاء فى أحد مطاعم القاهرة فأجبت الدعوة، ولكنى رأيت أن أدفع عن نفسى، فاستظرفتْنى جدًا وصرَّحتْ بأنى لم أقل غير الحق حين قلت : « إنى أعظم من الجاحظ ولو غضب الدكتور طه حسين ».

ولن أنسى أبدًا موقف القَصَبْجى الملحِّن وقد زعم أنه صائم مع أن العَشاء كان فى جوف الليل و لم نكن فى رمضان ولا شعبان، ولكنه كان يعرف أن « حمامة الشرق » لا يسرها أن يكون القصبجى رجلاً له أمعاء تظمأ وتجوع كسائر الناس، وكيف يكون فنانًا وهو يحس الظمأ والجوع ؟!

أشهد أن البخل حقْ، وأنه من خصائص أهل العبقرية، وإلا فكيف صحبتُ الدكتور طه حسين عشر سنين و لم أتناول الغداء فى داره غير مرة واحدة لظروف قهرية قضتْ بأن نُمضى النهار كله فى درس شواهد الشعر المنحول سنة ١٩٢٦ ؟

وكذلك يكون شقيق الروح محمد عبد الوهاب، فهو أبخل من الجارم بمراحل طوال، وهو إلى اليوم لا يدرك أن الدينار قد ينقسم إلى دراهم، وأن الدرهم قد ينقسم إلى فلوس، إنما الدينار دينار، فإذا انقسم فهو هباء، وإليكم هذا الخبر الطريف :

نشر الموسيقار محمد عبد الوهاب كلمات فى مجلة الاثنين عن ذكرياته فى زيارته للعراق، وقد قرأت تلك الذكريات وأنا فى بغداد فحزنت لأنى عرفت منها أن الأستاذ الصراف خدعه فزيّن له الذهاب من دمشق إلى بغداد فى سيارة عربية لا انجليزية، وكانت النتيجة أن يقضى ثلاثة أيام بلياليها فى الطريق بين دمشق وبغداد، فصممت على تأنيب الأستاذ الصراف حين أراه، ثم عظُمت الدهشة وعظم الاستغراب حين عرفت من الأستاذ

الصراف أن الموسيقار عبد الوهاب هو الذى اختار تلك السيارة لأن أجرتها أرخص بمبلغ لا يقل بحال من الأحوال عن دينارين !

ماذا أريد أن أقول ؟

لعلى أريد القول بأن الاهتمام بجمع الثروة يدل على الشغف بحب الدنيا، وحب الدنيا هو الأصل الأصيل لحيوات النوازع والغرائز والأحاسيس.

وحب الدنيا كان السر فى عبقرية أحمد شوقى أمير الشعراء، فقد صحبتُه مرات كثيرة وهو يطوف على أملاكه بالقاهرة وضواحى القاهرة، وشهدتُ كيف ينظر إلى كل بقعة من أملاكه وقلبُه يهتف : « كلُّ مليحة بِمَذاقِ » ورحم الله شوقى، فما مات إلا وهو حزينٌ حزين على فراق أملاكه الواسعة بأرجاء هذه البلاد.

وحب الدنيا هو السرّ فى عبقرية عبد الوهاب وأم كلثوم، عبد الوهاب ساكن العباسية وأم كلثوم ساكنة الزمالك، وهل يستطيع مخلوق أن يقول إنه على شىء من الأدب أو الفن وجيوبُه خاوية ؟

آه، ثم آه !!

كنتُ غنيًا وكانت لى أموالٌ مرصودة فى مصارف مختلفات، ثم شاء القَدَر أن أترفّق بمرضاى من المِلاح فأنفق عليهم ما أملك، فأنا اليوم فقير، فقير، فقير، بحيث ترفض أم كلثوم أن تكون « ليلى المريضة فى الزمالك » بحجة أنها صحيحة، لا بحجة أنى لم أعد أملك البِرّ بمرضاى من ذوات الخد الأسيل والطَّرف الغضيض !

وهجرتى إلى العراق هى سبب هذا البلاء، فقد أعدانى العراق بالكرم وراضنى على البذل والجود، فأنا اليوم بلا ذخيرة ولاعتاد.

ألم تسمعوا أنى كنت أتمرد على رؤسائى بالجامعة المصرية وبوزارة المعارف، فكنت أملك الزهد فى مناصب الحكومة فى كل وقت ؟

فإن صح أنى صبرت أخيرًا على خدمة الحكومة أربع سنين فاعلموا أن أخاكم مُكرهٌ لا بطل، وأنه لم يتمرغ فى تراب « الميرى » إلا وهو فى فاقة وإملاق.

وآه ثم آه من الصبر على خدمة الحكومة أربع سنين !

وهل خُلق الشعراء لهذا الاستعباد ؟ وهل كان ذلك هو المصير المنشود لمن يؤمنون بفاطر النخيل والأعناب .

ولكن لا بأس فمن واجب الشاعر الذى أخضعه الفن للقوافى والأوزان أن يقبل الخضوع لقيود الوظيفة وقيود المجتمع وما قيمة الفلسفة إن لم نحسن تعليل الصبر على قيود الوظيفة وقيود المجتمع ؟

وما حديث الـ ٤٥٠٠ ثانية فى صحبة أم كلثوم ؟

كانت النفس حدثتنى بوجوب السفر إلى الإسكندرية فى أواخر أيلول لأرى كيف ينجزر الصيف عن الخريف فى تلك الشواطئ الفِيح، فرأيت على المحطة فَتى من عُصبة الفن الجميل وهو يهتف : « أما ترى ثُومة يا دكتور ؟ » .

والتفتُّ فرأيت إنسانةً نحيلة تكبح سحر عينيها بمنظارَين سمراوَين وهى تحاور المودِّعين حوارًا تقع فيه ألفاظ غلاظ على غير ما يُنتَظَر من فتاة لها تلك المكانة بين البِيض الخَفِرات من بُنَيَّات وادى النيل.

وأقبلتُ فسلَّمتُ تسليم الشوق بتهيُّب واحتراس، لتفهم أنى لا أريد نضالها فى ميدان التنكيت، ولكن الشقية تغابت وتجاهلتْ رغبتى فى البعد عن هذا الميدان، و لم تكن إلا لحظة حتى اقتنعتُ بأن الزمالك تجاور بولاق !

ما الذى يحمل ثومة على خلع البُرقُع وهى تحاور الرجال وفيهم من لا يتأدب وهو يحاور النساء ؟

لم يبق بين ثومة وبين الفَصيلة النسائية أية صلة، فهى اليوم رجل أعمال، وهى أبو كلثوم لا أم كلثوم !!

وقتُ ثومة لا يضيع فى مراجعة الأدب القديم والأدب الحديث - كما تسمعون - وإنما يضيع وقت ثومة فى تدبير المال لاقتناء النفائس من البيوت والبساتين.

وثومة ليست غبية، فهى تعرف أن البيئات الفنية يكثُر فيها الوباء، وأنه لا موجب لطاعة الفِطرة التى يتجلى فيها الحَنَان النَّسوى، لئلا يكون من أثر ذلك أن تدور حولها الأقاويل والأراجيف فى زمن الأقاويل والأراجيف.

ومن أجل هذا لا تُجيد أم كلثوم ممثلةً إلا فى مواقف الانفراد، فهى كُتلةٌ من الثَّلج حين تحاور رجلاً فى مواقفها التمثيلية، وهى نارٌ تتأجَّج حين تخلو إلى نفسها فى موقف من مواقف التذكر والاشتياق.

العُزلة هى الفرصة الوحيدة لانفجار العواطف فى صدر أم كلثوم، لأن هذه الإنسانة تتوهم أن المجتمع لا يُحسن غير التجريح والاغتياب، فهى تلقاه بلسانٍ حديد لا يُجيد غير السخرية والاستهزاء، فإذا اعتزلت الناس أو توهمتْ أنها اعتزلت الناسَ صارت أمَّ كلثوم

الحقيقية بشفتيها الورديتين وثناياها اللؤلؤية وأنفها المسنون. ولو استبحتُ مغازلة هذه الشقية لقلتُ إن ابتسامها يصدُر عن وادٍ سحيق هو وادى الخلود !

وما أسعدَ من يظفر بابتسامة صفية من أم كلثوم ولو لحظة واحدة من عمر الزمان !

ها نحن أولا فى محطة القاهرة، وإنى وإياها لمختلفان، فهى ذاهبة إلى المنصورة وأنا ذاهب إلى الإسكندرية، وسنفترق فى طنطا كارهين أو طائعين.

وأترفق فأقول : ألا تحتاج الحمامة الموصلية إلى رجل يضايقها لحظات ؟

فتجيب : وأنت ؟ ألا تحتاج إلى من يضايقك ساعات ؟

ثم نأخذ فى الحديث بعنف ولجاجة وصيال، فهل كان بينى وبين هذه الروح ثأرٌ قديم؟ وهل سمعتْ أنى اغتبتها فقلت إنها ريحانة هذا العصر وأغرودة هذا الجيل ؟ وهل نقل الوشاة أنى زعمتُ أنها أطيب من العِطر وأرقْ من الزهر المطلول ؟

لا أعرف ما ذنبى عند أم كلثوم، ولم أخرج على الأدب فأقول إنها خير ما أخرجتْ مصرُ من ثمرات، وإنها ألطف روح سكن الزمالك وتخطَّر فى شارع فؤاد ؟

ما هفوتُ فى حق أم كلثوم إلا مرة واحدة حين قلت إن حنجرتها مسروقة من الحمائم الموصلية، وكان الرأى أن أقول إن حمائم الموصل سرقت رخامة الصوت من الحنجرة الكلثومية.

ثم تشتط أم كلثوم فى المزاح الغليظ، ولكن مع مَنْ ؟ مع الرجل العليم بمواقع أهواء القلوب ولو سُدِل على سرائرها ألف حجاب :

هل تذكرون المصباح المغطَّى بالأوراق الزُّرق ؟

هو قلبُ أم كلثوم، لو تعلمون !

وبلفظة واحدة نزعت تلك الأوراق لأواجه ذلك القلب الوهاج فما هى تلك اللفظة السحرية ؟

قلت : إن حمامة الشرق تستر بمزاحها الغليظ قلبًا يحترق فالتفتت الفتاة التفاتة رشيقة وهى تستزيد، فقلت : وقد حدثتنى ليلى أن الأفعى تغفو أوقاتًا طويلة ثم تستيقظ حين تجد الفرصة لتخدير الفريسة بالسم الزعاف.

وبهذا الكلام تنبهت أم كلثوم من سُباتها المتكلَّف المصنوع، وابتسمت ابتسامة لن أنساها ما حييت، فقصصتُ عليها قصة ليلى حين قرأتْ فى كتب التاريخ الطبيعى أن

الحيات تثور وتهتاج حين ترى إنسانًا أخضر العينين، فزعمت الشقية أنها لم تكن تعرف أنى أخضر العينين، فقلت : وما السرّ فى نفرتك منى أيتها الرقطاء ؟[*]

وترفقت أم كلثوم وتلطفت بعد التأبى والتمنع، وانطلقت تتحدث بلا تكبر ولا ازدهاء، فمن قال إنه عرفها قبلى فهو كاذب، لأنى أول من نزع الأوراق الزُّرق عن ذلك القلب الوهاج، وأنا أول من فرض على أم كلثوم أن تعرف أن الدنيا فيها أمانة وصدق وإخلاص.

من حق أم كلثوم أن تكون فى دنياها رجل أعمال، فنحن فى عصر سخيف لا يقيم وزنًا لمواهب أهل الأدب والفن إذا فاتهم سناد الجاه والمال.

ولكن... ولكن دنيا أم كلثوم صدّتها عن الانتفاع بأرباب المواهب، فلو كان لأم كلثوم مستشار أمين لوصلت إلى الإعجاز فى الغناء والتمثيل، فلا عفا اللّه عمن صدُّوا هذه الروح عن الاستئناس بأذواق أهل الآداب والفنون !

وهل أنسى بشاعة الاستئثار بتصوير عصر الرشيد ؟

كان يمكن أن يكون فِلم « دنانير » أعجوبة الأفلام التاريخية لو كانت أم كلثوم تعرف أن فى مصر رجالاً أدقَّ ذوقًا وإحساسًا من فلان وفلان، وأن الانتفاع بآراء هؤلاء الرجال قد يعود عليها بالخير الجزيل، ولكن أم كلثوم امرأة وإن كانت رجل أعمال، والمرأة لا تفلح حين تتوهم أنها أعقل من الرجال.

فلم دنانير جميل جميل، ولكن تعوزه قوة الروح، ولأم كلثوم أن تغضب كيف تشاء، ولفلان أن يقتل نفسه من الغيظ، فقد أخلف الظن به كل الإخلاف.

إن هذا الفلم يلخص رأينا فى أم كلثوم : فهى لا تجيد إلا عند العزلة والانفراد.

فأين من يجعل أم كلثوم من أزهار المجتمع ؟

أين من يحوِّل هذه الفتاة إلى روح لطيف يشيع فى المجتمع معانى الأنس والانشراح ؟

إن كانت هذه الفتاة تحب أن تكون « ابن بلد » فقد ظفرتْ بما تريد، أما إن كانت تحب أن تكون أعظم من أم كلثوم فلذلك حديث غير هذا الحديث.

---

[*] كان زكى مبارك يقول دائما أنه أخضر العينين ، ويرفض أن يقول أن لون عينيه أزرق والسبب أن زكى مبارك كان يصف المستعمر بأزرق العين . والشاعر إبراهيم ناجى الذى عاصر زكى مبارك قال فى إحدى قصائده :

فى حمى سنتريس شب غلام ... شاعرى الكلام والأنظار
أزرق العين هادئ هدأة البحر ... بعيد الرضى ، بعيد القرار

ثم وصل القطار إلى طنطا فانتقلت إلى قطار المنصورة وبقيتُ أتشوف إلى الأسكندرية، وذلك آخر العهد بتلك الروح، فإن رضيت عن هذا المقال فقد نلتقى فى مصر الجديدة أو فى الزمالك، وإلا ...

غرام « سعد زغلول »(*)

دَرجتُ فى الأعوام الأخيرة على كتابة مقالة سنوية فى (الرسالة) بمناسبة ذكرى «سعد»، رعايةً لفضل هذا الرجل فى بعث الحياة الأدبية عند اختلافه مع زملائه الذين شاطروه أعباء الثورة المصرية، لا رعايةً لمقامه الوطنى «وهو مقام محفوف بالإجلال عند جمهور المصريين والشرقيين»؛ وإنما أحترس هذا الاحتراس لأن حقدى على « سعد » كان يفوق الوصف، ومقالاتى فى الهجوم عليه كانت أقوى ما كتبت فى صدر شبابى، فقد كانت مبادئ الحزب الوطنى غزت قلبى غزوًا عنيفًا.

أكتب هذا والحزن يعصر قلبى، فقد انقضى ذلك العهد، وخمدت النار التى كانت تتأجج فى صدرى، و لم أعد أقبل الانضمام إلى أى حزب من الأحزاب السياسية.

كانت لنا مبادئ نقتتل فى سبيلها اقتتال المجاهدين الصادقين، وكنا نرحّب من أجلها بالسجن والاعتقال طائعين فرحين، مبادئ سليمة تفرّق بين الابن وأبيه، والأخ وأخيه، فى غير بغى ولا عدوان، فعلى عهدها الكريم ألف تحية وألف سلام !

ولو لم يكن هذا الحديث متصلاً بذكرى «سعد» الذى عانى ما عانى من بلايا النفى والاعتقال لطويته بلا تردد، مراعاةً لظروف هذه الأيام، فلتكن هذه السطور فنًا من الإحياء لذكراه بين أبناء هذا الجيل.

* * *

حديث اليوم عن « غرام سعد زغلول »، وهو حديثٌ لم يُفْضِ به إلا لأفراد قلائل، فما ذلك الحديث؟

أذكر أولاً أننى لن أجترح إثمًا، ولن أسنّ سنّة سيئة، حين أتحدث عن غرام رجل عظيم شرَّق صيته وغرّب، فمن المحال أن تخلو قلوب العظماء من صبوات وأهواء .

(*) مجلة الرسالة العدد ٤٧٧ بتاريخ ١٩٤٢/٨/٢٤ .

يضاف إلى ذلك أننى سأتحدث يومًا عن « غرام مصطفى كامل »، الغرام الذى جعله من كبار الخطباء بلغة الفرنسيس، والذى فرض عليه أن يهتف هتاف الشوق إلى هواه، وهو يعانى سكرات الموت...

وأذكر ثانيًا أن الدار التى سيجرى اسمها فى الحديث عن «غرام سعد» لن تتألم ولن تتأفف، لأن سعدًا أحبها وأحب أهلها حب الشرفاء، ثم ارتدّ عنها بحسرة دامية لم يَخف كربها إلا بعد سنين تزيد على الخمسين.

فكيف كان «سعد» حين استعر فى صدره ذلك الحب؟

كان طالبًا فى الأزهر الشريف، وكان طلبة الأزهر فى العهود السوالف على جانبٍ كبير من التوقر والاستحياء.

ولو شئت لقلت : إنه كان من الصعب على أى فتى مصرى أن يتخيل كيف تكون المرأة وهى عارية؛ ولو شئت لقلت أيضًا : إن التصون كان مما يتباهى به الفتيان، فى ذلك الزمان، قبل أن تصاب الدنيا بأوضار التمدن الجديد.

وكان «سعد» أزهريًّا عفّ القلب، ولم يكن يعرف من نعيم الحواس غير اللحظات التى يقضيها مع زميله إبراهيم الهلباوى متربِّعَيْن على الرصيف بجانب المحكمة المختلطة لمشاهدة الرائحات والغاديات فى عصرية كل خميس.

فهل تكون تلك العصريات علَّمتْ سعدًا الغزَل الملفوف ؟

هل تكون أوحت إليه أن قلب الفتى قد يتوهج من حين إلى حين ؟

حين قصّ علينا الهلباوى بك ـ رحمه الله ـ تلك الحكاية لم يشأ أن يطنب فى الشرح والتعليق، فقد كان فى المجلس رجال يؤذيهم التبسط فى مثل ذلك الحديث ولم أكن أنا أعرف أنى سأتكلم عن غرام سعد بعد حين أو أحايين.

المؤكد أن سعدًا قضى شبابه فى تصون وعفاف، ولولا ذلك لكان من العسير أن يظل فى نشاطه المعروف إلى أن يجاوز السبعين.

ومن هنا نعرف كيف اصطلى بنار الوجد فى صباه، فالشاب المصون يعانى من الغرام لذعات أحر من لذع النار، لحرمانه من التصعيد الذى يجود به الحب الأثيم.

فأين كان حب سعد، حبه السليم من آفات العبث والمجون ؟

أطلّ يومًا من غرفته فرأى فى دار الجوهرى فتاةً كحيلة العينين مُشرقة الجبين، ثم غضّ بصره بسرعة حين تذكرَّ أن ما زاد على النظرة الأولى حرام لا حلال.

وما احتياجه إلى نظرة ثانية وقد رُسمتْ صورة الفتاة على ألفاف قلبه رسمًا جعلها أقرب إليه من متن الألفية، وأوضح من شرح ابن عقيل ؟

هل يُطلْ من النافذة فيراها مرة ثانية ليتأكد من التماثل بين الصورة والأصل ؟

لا بأس، ولكن الفتاة لم تكن تظهر فى صحن البيت إلا عند الأصيل، وهو الوقت الذى يعود فيه فتحى افندى من المدرسة، وهو شقيقه الذى صار فيما بعد فتحى باشا زغلول، وكان الشيخ سعد يراعى فتحى افندى، ويتعمد الظهور أمامه بصورة الناسك المتعبد، ليصرف عنه سوء التلفت إلى النساء، فقد كان يعرف أن التلاميذ «الأفندية» معرَّضون من هذه الناحية لأخطار تزلزل رواسى الجبال.

النظر إلى المرأة حرام، فما حكم الشرع فى سماع بُغام الملاح ؟

وإنما عرضَ له هذا الخاطر الطريف، لأن مناغاة الفتاة لأترابها كانت تداعب أذنيه من وقت إلى وقت، وكان شديد العَجب من أن تكون لفتيات الحواضر أنغام لم يسمع مثلها من بنات الريف، أنغام تصنع بلُبّه ما تصنع الراح بألباب الشاربين.

ما حُكم الشرع فى هذه القضية ؟ أيستفتى أشياخه بالأزهر الشريف ؟ أيرجع إلى مطوّلات الفقه بالكتبخانة الخديوية[1] ؟

لا هذا ولا ذاك، وإنما اكتفى بوضع القطن فى أذنيه عند سماع ذلك البُغام إلى أن يقضى اللّه فى أمره ما هو قاض.

كان يتمنى أن تتاح النظرة الأولى مرة ثانية، النظرة التى يُرمَى بها الفتى عن غير عمد، وهى حلال على أرجح الأقوال، ولكن آباءنا قبل ستين سنة لم يكونوا يسمحون لفتاة بالخروج من البيت حين تصبح وهى فى نضرة الغصن الفينان، فمن المستحيل أن يظفر الشيخ سعد بنظرة بريئة من تلك الفتاة عند الخروج لدروس الصباح، أو عند الرجوع لتناول الغداء.

وهل كان الفتى الأزهرى الذى يصلى ويصوم يستبيح التطلع إلى بنات الجيران ؟ هيهات ثم هيهات، فقد حلف على المصحف ليصيرنَّ إلى آخر حياته وهو فى طهارة القانت المنيب.

ثم يضطرم قلب سعد أعنف الاضطرام، ويزداد بلاؤه بهواه المكتوم، من يوم إلى يوم، والفتاة لا تعرف أن بجوارها فتًى يدعو اللّه فى أعقاب الصلوات أن يجعلها نصيبه من دنياه، أو يجعلها على فرض الحرمان نصيبه من الحُور العِين.

---

[1] اسمها اليوم : دار الكتب المصرية.

ويمضى فيقلب كتب النحو والفقه والتوحيد ليحفظ ما فيها من الأشعار الغزلية، ولا يكتفى بذلك، بل يمضى فينسخ ديوان ابن الفارض، ليتخذ منه سميرًا يؤنس وحشته حين تخفت الأصوات فى دار الجيران.

إن سعدًا فلاّح وابن فلاّح، والفلاحون يخمدون نار الصبوة بالزواج، فما الذى يمنع من أن يسلك مسلك الفلاحين الشرفاء، فيطلب القرب من أهل تلك المليحة الحوراء ؟

وهنا تثور مشكلة من أقبح المشكلات، مشكلة اجتماعية يعانيها الحىّ الأزهرى فى جميع الأزمان، وهى إصرار سكانه من كبار التجار على أن الأزهريين غرباء.

لا جدال فى أن الأزهريين هم شرايين الحياة فى ذلك الحى، وبفضلهم تحيا متاجر وتقوم أسواق، ولكن هذا الفضل مجحود، لعلة يحار فى فهمها اللبيب. وقد كانت كلمة «مجاور» كلمة مدح، لأنها منقولة عن مجاورة الحرم النبوىّ الطاهر، ثم صارت كلمة هجاء، بسبب التحامل على الأزهريين، فاعجبْ لكلمة ينقلها سوء المعاملة من مدلول إلى مدلول، بلا موجب معقول !

ومع أن الشيخ سعد زغلول كان يعرف أن حىّ الأزهر حىٌّ غادر ختّال، فقد قهره الهوى على أن يطلب يد ابنة الجوهرى، ليسلم من وَقْد هواه، وليعرف كيف يُقبل على دروس الأزهر بعناية والتفات. وهل من المحال أن يفى ذلك الحىّ مرة فى العُمر لمشرِّفيه من فتيان الريف ؟

تشجّع الشيخ سعد فطلب يد ابنة الجوهرى، فردّهُ الجوهرى برفق، وهو يجهل ما ينتظر عمامة سعد من سيطرة أدبية وسياسية على أبناء هذه البلاد.

ورجع سعدٌ حزين القلب، كاسف البال، وقد خاب أمله فى هواه إلى آخر الزمان، ثم نظر فرأى أن الفرار من الحىّ الأزهرى واجبٌ مفروض، لينجو من غمزات الذين شهدوا ردّهُ الأليم عن مناسك هواه. وأبناء الريف تؤذيهم ثرثرة السفهاء.

لأبُدّ من ترك الحىّ الأزهرى، ولكن أين يذهب ؟ وماذا يصنع ؟

إن أباه كان يرجو أن يصير من علماء الأزهر الشريف، ومن أئمة الدين الحنيف، فكيف يخلف ظن أبيه بلا تهيُّب ولا استحياء ؟

ثم بدا له أن الكرامة الذاتية من مقاصد الكرامة الدينية، فخلع العمامة والجبة والقفطان، ولبس الحُلة الأفرنجية واحترف المحاماة، فأصبح وهو الأفوكاتو سعد أفندى زغلول، بشارع عابدين، وأمسى مكتبه سامرًا يلتقى فيه كرام الرجال.

ولكن لوحة صغيرة كانت تُثير جواه حين يدخل ذلك المكتب، لوحة رُقِشَ فى صدرها الأبيض هذا البيت :

وإذا دُعيتُ إلى تناسى عهدكـم ألفيت أحشائى بذاك شِحاحـا

ولم يكن بدٌّ للقلب المجروح من دواء، وهل يُداوَى القلب المفطور بغير العمل الموصول؟

مرَّ عامٌ وعامٌ وأعوام، وسعدٌ يجاهد فى سبيل المجد ليعرف من ردُّوه جاهلين أنهم أضاعوا «جوهرة» لن يرى « الجوهرىُّ » مثلها ولو أضاع العمر فى البحث والتنقيب.

ثم استجاب اللّه لدعوات الوالدَين الصالحيْن، فاقترن سعدٌ بفتاةٍ كريمة العمْ والخال هى بنت مصطفى باشا فهمى رئيس الوزراء فى ذلك العهد، وهى اليوم صفية زغلول أم المصريين، أسبغ اللّه عليها نعمة الصحة والعافية، إنه قريبٌ مجيب.

وجاءت أيام فى إثر أيام، وتنقَّل سعدٌ من حال إلى أحوال، إلى أن نفاه الإنجليز فى سنة ١٩١٩ بسبب قضية الاستقلال.

ثم سمح الإنجليز بأن يسافر من مالطة إلى باريس ليقنع «مؤتمر السلام» بعدالة القضية المصرية إن استطاع.

وعجز سعدٌ وأصحابه عن الوصول إلى قصر فرساى، فرجع إلى مصر وهو آسف غضبان.

فماذا رأى بعد الرجوع ؟

أقيمت له حفلتان فى الحىّ الأزهرى، أولاهما فى دار البكرى، وقد فرح بها فرحًا عظيما، فقد كان يظن أن خذلانه فى الوصول إلى « مؤتمر السلام » قد يصرف عنه قلوب المصريين وفى تلك الحفلة هُتف عند دخول عدلى باشا بعبارة « تحيا وزارة الثقة »، وهُتف لسعد باشا بعبارة يحيا «الشيخ سعد».

أما الحفلة الثانية فكانت... أين كانت ؟

كانت فى دار الجوهرى، الدار التى ردَّت سعدًا خائبًا قبل أعوام تزيد على الخمسين.

وجرى الهتاف لسعد : «يحيا الشيخ سعد».

والتفت سعد باشا ذات اليمين وذات الشمال، فرأى أنه فى أمان من ثرثرة السفهاء، وأن الشيخ القديم لن يغلب الباشا الجديد، وأن من حق الأزهريين أن يفتخروا به مشكورين.

ثم التفت الرجل مرة ثانية ذات اليمين وذات الشمال، وسمح لعينيه بدمعتين مُحرقتين، هما التحية لهواه الذى ذهب إلى غير معاد.

هذا سعد باشا خليفة الشيخ سعد، ولكن أين بنت الجوهرى ؟ وأين مكانهـا فـى هـذا الوجود ؟ أغلب الظن أنها ماتت وإلا فكيف صبرت عن خلع العذار لتقبِّل الحبيـب الـذى انتصر على مكايد الزمان ؟

وأقام سعدٌ فى «بيت الأمة» يتلقى تهنئة الوفود بعودته سالمًا من باريس، وكان يمدُّ يـده فينزع اللثام عن كل امرأة تعتصم بالحجاب، وكانت حجته أنه يؤيد رأى صديقـه الحميـم قاسم أمين.

ولعله كان يرجو أن يطلُع عليه القمر الجوهرى، لو كان للقمر الآفل طلوع.

لقد حدثتنى النفس بزيارة دار الجوهرى قبل أن أسطر هذا الحديث، ولكنى خِفـت أن أضاف إلى المجانين .

كان لى فيك هوًى، يا دار الهوى، فأين غرام سعد وأين غرامى ؟

إن اعتدل الميزان فسنكتب على بابك العالى سطرًا يقول :

« هنا تهاوتْ أحلام وقلوب ».

وأين دار الجوهرى؟ لا تسألوها عن مكانها ولا تسألونى، فقـد نـاب عنى وعنهـا أبـو تمام حين قال :

لا أنتِ أنتِ ولا الديـار ديـارُ   خفَّ الهوى وتقضَّت الأوطـارُ

وأنت، يا سعد باشا، ما رأيك فى هذا الحديث ؟ ألا ترى أنـه مـن أشـرف مـا يتصـل بتاريخك الجميل.

* * *

دار الهوى فى عيد القمر (*)

أخى الأستاذ الزيات.

هل تذكُر أنى وجهت إليك مقالاً من بغداد عن «القلب الغريب فى ليلة عيد» منذ نحو أربع سنين؟ وهل تذكر أنى تشوقت إلى دار تحب العيد وتحن إليه لأنها ترانى مع العيد؟

ذلك مقالٌ قَبستُه من نار قلبى، وأخذت مداده من دمى، وأرسلتُه تحيةً إلى دارٍ عَظُمت ديونُها على قلمى.

(*) مجلة الرسالة بتاريخ ٢١ / ١٢ / ١٩٤٢ .

وفى بريد مجلة الرسالة وبتاريخ ٢٦ / ٨ / ١٩٤٠ كتب زكى مبارك تحت عنوان :

مواعيد البنان المخضوب

قرأت فى جريدة الدستور كلمة كريمة لأديب كريم اسمه « إبراهيم » وهو كاتبٌ لم أعرفه من قبلُ، ولكن شمائله تنم عليه كما ينم الدُّخَان على الجمر المشبوب.

وهذا الكاتب يتوجع للنعيم الذى ضاع بين سَدَّة الهندية والقناطر الخيرية، ثم يُغلَبُ على وقاره فيذكر أن له نعيمًا ضاع فى ظلال « الجيزة الفيحاء » وأنه تأسَّى بقول أحد المتيمين :

« تلك يا قلبى مواعيد البنان المخضوب »

ذلك عزاؤك، أيها الزميل، فأين عزائى ؟

هل تظن أن « خواطر مهاجر » التى قرأتها فى الطريق مرتين حتى كدتُ أصطدم بالجدران تُلهينى عن « خواطر مهجور » التى أدرتها فى خاطرى مئات المرات و لم أجرؤ على صبها فوق صفحات القرطاس ؟

وهل ترى أن أداوى همومى بالتفكير فى بلايا المجتمع كما يصنع جليس «الكافورة الغيناء»؟

وكيف وما حملتُ القلم إلا وثبَ القلب وثبة المسعور وقد تألق أمامه السراب وهو يظن ويتوهم ويخال أنى سأكتب إلى الذين لا يصل إليهم خطابى إلا بعد أن يمرّ بثلاثة رقباء، أولهم فى القاهرة وثانيهم فى فلسطين وثالثهم فى... (؟)

إن سمح الدهر بيوم العتاب فسأقول وأقول وأقول.

وإن ضنّ الدهر بيوم العتاب فسأرسل إلى الغادرين جذوة من جَذَوات قلبى ليعرفوا أن دمى لا يذهب هدَرًا فى دنيا النفوس النوادر والقلوب الشِّحاح.

بتذكِرة بريد تكاليفُها أربعة فلوس تداوَى جراح قلبى.

فهل رأى الناس أبخل من الذين يستكثرون أربعة فلوس على من جاد فى هواهم بالعافية والأمان ؟

ويزيد بلائى كلما تذكرت أن الخلاص من أسرهم هو رابع المستحيلات، وكانوا أوهمونى أن دنيا الوجد لا تعرف المستحيل، يوم كنا نتناجى بنبرات أرقّ وألطف من وسوسة الأزهار فى أسحار آذار.

لا تحسبونى نسيت العهد، يا أصفياء روحى، فما الدنيا بدون هواكم إلا هجيرٌ تموت فى وقدته رياحين القلوب، كما تموت أعشاب « الموصل » عند قدومُ حزَيران.

وآه ثم آه من القلب الذى تعجز الخطوب والصُّروف عن وَأْد ضلاله القديم !

وإنما وجَّهت إليك ذلك المقال لأثيرَ فى روحك التشوُّف إلى تعليل ما تعانى الأرواح من متاعب ليس لها فى الظاهر سناد من مطالب المجد فى هذا الوجود.

فهل فكرت فى تعليل هذا المعنى؟

وهل حاولتَ الدفاع عن الأعمار التى تضيع فى تشريح نوازع الوجدان ؟

أنا أطالبك بالرجوع إلى الوجدانيات، بجانب ما أقبلت عليه من الاجتماعيات، فقد كاد الأدب يخلو من الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب. ولا قيمة للأدب إن أغفل الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب.

وإليك القصة الآتية :

فى حفلة من حفلات إحدى الطوائف المسيحية تسابقَ الحاضرون لتقبيل يد البطريرك، فرأيته ينهض بقوة ليعانق من يسارعون إلى التسليم عليه، مع أنه فيما سمعت قد جاوز التسعين.

وعندئذ غلبنى الفكر الفلسفى فقلت لجارى فى المحفل : إن راحة رجال الدين من هموم الحياة تمنحهم طول الصحة والعافية.

فقال جارى بتحمس : كيف ترى ذلك وغبطة البطريرك يحمل هموم الطائفة كلها، ويعّنى نفسه بالدقائق الخفية لجميع البيوت ؟

فقلت : المتاعب الفردية أعنف من المتاعب العمومية، فالرجل الذى يحمل هموم بيت يُعدُّ أهله بالآحاد أشقى من الرجل الذى يحمل هموم طائفة يُعد أبناؤها بالألوف أو الملايين. وهل يحزن وزير المعارف لسوء نتائج الامتحانات العمومية بقدر ما يحزن لو رسب ابنه فى الامتحان؟

إحساسنا الصادق يصدُر عن متاعبنا الذاتية أولاً وقبل كل شىء، ثم يتفرَّع فيتصل بالمجتمع القريب أو البعيد، وهل بكى النبى محمد لوفاة أى طفل كما بكى لوفاة ابنه إبراهيم ؟

وإذن يكون من حقى أن أقول إن الأدب الذى يصوِّر الذاتيات هو أصدق الآداب، وهو الآية الباقية على الصدق الأصيل، فمن الجناية على الأدب أن نشغل أقلامنا بهموم خارجية قبل أن نستوفى التعبير عن همومنا الداخلية.

للمجتمع حقوق على القلم البليغ، يوم يتأثر الكاتب بتلك الحقوق، ويوم يرى أنه عن تأييدها مسئول أمام الضمير الأدبى لا أمام الناس.

وأنت ذلك الكاتب، يا صديقى، فاتجاهاتك الاجتماعية تشهد بأنك تحس آلام المجتمع أصدق إحساس، وسيكون لك فى هذا الميدان مكان يحفظه التاريخ.

وأنا أرتضى لنفسى ما أرتضى لك، لولا تلك الدار التى أسَرَتْ قلبى عددًا من السنين، و لم أستطع التحرر من أسرها بأى جهاد.

إن تاب اللّه علىّ من الهيام بتلك الدار فسأجاريك فى ميدانك، وسيطول بينى وبينك السجال، ولكنى أرى اللّه أكرم من أن يجود بذلك المتاب، لأن نعمته علىّ فى هذه الضلالة أعظم من نعمته بالهداية على من يغضُّون أبصارهم عن سحر الجمال.

وهل كان من العبث أن يتفضل اللّه فينوِّع الخلائق بهذا الوجود؟

إنه نوَّع الخلائق لينوِّع العواطف.

هل تذكر ما تصنع النسائم بالسحاب والرمال ؟

رأيت بالأمس عجَبًا من العَجب : رأيت سُحُبًا مطرزة بسماء « مصر الجديدة » على أظرف ما يكون التطريز . وبدا لى أن أجوب الصحراء فى ذلك الوقت فرأيت النسائم صنعت بالرمال ذلك الصنيع.

أيعجز قلم الكاتب الصوَّال عما يقدر عليه النسيم الجوَّال ؟

النسيم يَعبَث، وما وُصِف النسيم بغير العبَث، ثم تكون له القدرة على هذا الافتنان، فكيف نعجز فى الجد عما استطاعه النسيم فى الهزل ؟

الدار التى أهوى تُضلنى وتغل عقلى بأوثق الأغلال.

الدار التى أهوى تصنع بقلبى فوق ما تصنع النسائم العوابث بالسحائب والرمال.

الدار التى أهوى حُرِمت أضواء المصابيح أكثر من شهرين، إلى مَعَاد، أو غير مَعَاد، فما أدرى ما تُضمر الأقدار لمصاير ذلك الهوى النبيل، ولا أعرف متى نلتقى طائعين أو كارهين.

كلَّ يومٍ عتابٌ جديدٌ ينقضى دهرنا ونحن غِضابُ.

إن تلاقينا ـ ومتى التلاقى ـ فستكون لنا شؤون وشجون.

إن عادت الدار إلى العهد الذى أعرف فسأكون من الحُجاج فى العام المقبل، وسأنفق جميع أموالى على الفقراء والمساكين.

ثم ماذا ؟

ثم أقص على الأستاذ الزيات هذا الحديث :

فهل تسايرون أحوالى من نزق وطيش وقرار وجمود ؟

أنا أنا، فهل أنتم أنتم ؟

لقد صبرتُ وصابرتُ لتشهد أحجار تلك الدار أن لها بقايا من الوفاء التى تدّخره كرام القلوب.

سينطق الحجر قبل أن تنطقوا، ولقد نطق فحيانى ألوف المرات وأنتم فى غيابة العقوق.

وماذا تنتظر منى تلك الأحجار ؟

إنها ترجو منى ما أرجو منكم، ترجو سلامًا من عابر سبيل، وأنتم هددتم وتوعدتم بأنْ لا لقاء فى غير الفضاء.

عودوا إلى الدار، دار الهوى، عودوا إليها سالمين غانمين، فإنى أُعدّ لكم قتالاً ألطف وأرفق من السلام.

عودوا إلى الدار فى عيد القمر، وهو آت بعد ليال.

عـودوا إلىّ فمـا قلبـى بمصطـبر على نواكم ولا فـى العمـر متسعُ
إن مـتُّ قبل لقاكـم أو فقدتكـمُ قبـل الممات فحظى عاثـرٌ ظَلِـعُ

أنا فى انتظار القمر بعيد القمر، فهل يعود مع العيد ؟ وهل أشهد كلَف جبينه وهو غضبان؟

فى صباح اليوم وأنا فى طريقى إلى الواجب قرأت فى إحدى الجرائد أن المحكمة الشرعية أعلنت أن شهر ذى الحجة يبتدئ بيوم الأربعاء، فعرفت أننى حُرِمتُ رؤية الهلال ثلاث ليال . ثم خف حزنى حين تذكرت أن القمر غاب عن تلك الدار أكثر من شهرين.

ما هذه اللجاجة فى الحب ؟

وما الطمع فى كرم الزمان البخيل ؟

إرجعوا إلى الدار، دار الهوى، قبل أن تسمعوا من نذير الأقدار مالا تحبون.

إرجعوا إلى دار الهوى فى عيد القمر غير مأمورين.

إرجعوا، فللدار التى شهدتْ مولد هوانا حقوق.

إرجعوا، فالفضيحة فى غرامى تكريم وتشريف، لأنى قيثارة الغرام فى ألحان الخلود.

عيد القمر آتٍ بعد ليال، فهل أراكم فى غرة تلك الليالى ؟

القمر يفِى، فهل تَفُون ؟

القمر يساير الفصول من شتاء وربيع وصيف وخريف،

عودوا إلى الدار لا إلىّ، فقد كادت أحجارها تذوب من نار الاشتياق.

يا غاضبين علينا كيف حالكُم — وكيف دارٌ بها للروح مرتَبَعُ
دارٌ جَلَوْنا بها حيناً سرائرنا — كأن أيامها فى صَفْوها جُمَعُ
لم يُغدق الله فضلاً فاق نعمتهُ — بوصل روحى بكم والشمل مجتمع

أما بعد فما رأىُ صديقى الزيات فى هذا الحديث ؟ وهل يرانى فى ضلال وأنا أناجيه بما لا يريد بعد أن هجر صديقه مرتين ؟

حال العين حال القلب، وللعيون والقلوب أحوال.

وقد أشار طبيبى بنظّارة تمنع التشرد من أضواء عينى، فمتى يشير طبيبى بنظارة تمنع التشرد من أضواء قلبى ؟

لن يكون لقلبى حدود. لن تكون تلك الحدود ولن تكون، وسيعجز الطب عن جمع الأشعة من أنوار القلوب متى نلتقى يا دار هواى ؟ متى ؟

عيدُ القمر آتٍ بعد ليال، فهل نتقابل بعد ليال؟

* * *

الصلات الروحية والعلمية بين الفن والجمال

بقلم الدكتور زكى مبارك

ما أشقى الكتاب والشعراء !

تلك كانت كلمتى وأنا أتأهب لأنشاء هذا المقال : فقد قضيت اسبوعين أنتظر لحظة تصفو فيها النفس، وتصقل الروح، ويرهف الاحساس، ويطيب الوجدان، وكنت كلما اقتربت من الغرض خطوة نفر الخيال فابتعد خطوات. ولم يرجعنى إلى معبد الروح إلا مقال نشره الهلال منذ سبع سنين، وفى مطلع ذلك المقال نقرأ هذه الأشواق :

« إنما أكتب هذه الكلمة عن المسيو بلانشو Blanchot متأثرًا برعاية العهد وحفظ الجميل. وكم تروعنى هذه الإنسانية التى تجمع بين الشتيتين بوشائج المودة وأواصر المعروف، فقد يكون هذا الرجل الذى أكتب عنه لمجلة الهلال قد حسب أن الأيام شغلتنى عنه فى القاهرة كما أحسبها شغلته عنى فى باريس، ولكنى أشعر بأن بين كرام الناس من روابط الإنسانية ما يسمو بالنفس عن نسيان الواجب انقيادًا لمطالب العيش، أو طاعة لما ألفت الجماهير من التأثر بما بين الأمم من فروق ». وكاتب ذلك المقال رجل أعرفه بعض الشىء، لأن اسمه زكى مبارك.

أما المسيو بلانشو فهو أستاذى وأستاذ كثير من رجال الفنون فى باريس، واتصلت مودتى به زمنًا طويلا، وقضيت فى صحبته سنين كانت أطيب من المسك وأندى من الريحان.

والقصة الآتية تمثل جانبًا من الصلة الروحية والعلمية بين الفن والجمال.

كان للمسيو بلانشو ممثل[1] فى حى مونبار ناس، وكان ذلك الممثل كعبتى فى ساعات الفراغ. واتفق إنه كان يصنع تمثال العارية ذات الطفل الجميل، وكان له نموذج فتان. هو تلك المرأة ذات الجسم الخصيب التى ترون صورتها بجانب هذا المقال، وكانت تلك المرأة تقف ساعات طويلة وهى عارية، وكان المسيو بلانشو يمضى فى فنه وهو مشغول عن كل شىء، ولا يكاد يذكر أنه يواجه منظرًا ينافى الحياء، وكنت اجلس فأنظر فى كتابى لحظة وفى ذلك الكتاب لحظات. وما نزال كذلك حتى نتعب جميعا فيدعونا

---

[1] مكان لصنع التماثيل . مجلة الهلال نوفمبر سنة ١٩٣٥ .

المسيو بلانشو إلى كأس من الشراب، وعندئـذ تشعر تلك المسكينة أنهـا كـانت عاريـة، وأنها فى حاجة إلى شعار تدارى به جسمها.

أترون كيف تفنى الشهوات الرخيصة عند درس الجمال ؟. أترون كيـف تنسـى المـرأة انها عارية، وكيف ينسى الفنان تقاليد الأدب والحياء لأنه فى حضرة سلطان الفنون؟

إن للروح والعقل مطالب لا يدركها الاطفال من أشباه الرجال، أولئك الذيـن يظنـون أن فى كل نظرة مآرب دعارة، وأوطار فسوق، أولئك الصغار فى عالم الفكر والبيان.

وبين الشهوة والفن درجات لا يدركها إلا الراسخون فى علم الأذواق وكم من رجل تحسبه ماجنًا وهو أقرب إلى الله من المتنسكين، وهل خلقت فى الدنيا وحدك أيها الجـاهل المتحذلق؟ ان الوجود كتلة من الفن والجمال، وقد تكون انت فى جهلك وحذلقتك نقطة سوداء فى خد ذلك الوجود تسمى الخال فى كلام الشعراء، فكيف ترى فى تأمل الجمـال خلاعة ومجانة وهو لم يخلق عبثًا، وانما خلق ليكـون سـر الجاذبيـة والتماسـك بـين عناصر الوجود ؟

إن الشمس مضرب المثل فى الحسن، ولكن الشاعر لا يراها أجمل من ظلام الليل.

والجاهل كالطفل يرى الشمس أجمل من كل شىء، فإذا أقبل الظلام انحـدر إلى فراشه يلتمس فيه الامان، أما الشعراء والفنانون فلهم مواسم فى ظلام الليل، ولاسيما الظلام فـى الحدائق وعلى شواطئ الانهار والبحار، وهل عبد المصريون النيل إلا فى هدآت الليل وهم مأخوذون بما يساور شاطئيه من الرعب والخوف ؟

ان هذا الوجود ليس إلا وحدة فنية، وما فيـه مـن انـوار وظلمـات، وحـر وقـر، وأمـن وخوف، ونعيم وشقاء، وصحو وغيم، وضر ونفـع. كـل أولئـك ملامـح وضعهـا الفنـان الاعظم فى تلك اللوحة الفنية، لوحة الوجود. والجهـلاء يتـأذون مـن ظواهـر كثيرة حين يشعرون بقسوة البرد، وعنت الفقر وعنـف الشـقاء، ولـو قـد علمـوا سـر الوجـود لهللوا وصفقوا حين تثور الزوابع وتعصف الاعاصير، فإن الفن هو أساس الجمال، ولا يقوم الفـن إلا بألوان بعضها تافه وبعضها جميل، ولو قام الفن على لون واحد لعدم الانسجام وضـاع الجمال.

كانت للمسيو بلانشو رحلات فنية يصحبه فيها رفاقه من اصحاب الاذواق، وكـانت له محاضرات يلقيها فى أبهاء متحف اللوفر ومتحف رودان، وكنت أصحبه كلما شرق أو غرب، وقد أنسى كل شىء من ذكريات تلـك الأيـام، ولكنـى لـن انسـى ابـد الدهـر مـا صدمنى به فى شانتيى Chantilly فقد ذهبنا صباح يوم إلى ذلك البلـد الـذى يتمتـع بقصر

منيف هو اليوم من اكبر المتاحف، وكان معنا فى تلك الزيارة غادة هيفاء مصقوله الجبين، فبادلتها الحديث فابتسمت إلى، وهى تقول :

Mon petit doigt me dit que vous n'etes pas serieux

وكانت دعابة شغلتنى بها تلك الهيفاء عن محاضرة ذلك الفنان، فلم اكد استمع إليه بضع دقائق حتى فكرت فى الخروج من المتحف لاقضى لحظات فى الغابة مع تلك الحسناء.

غادرنا المتحف وخرجنا إلى الغابة، بعد أن داعبنا الاسماك التى تلهو وتلعب فى أحواض القصر، وكان المطر يومئذ يهطل بعنف، فكان منظر الغابة فتنة تشوق العين والقلب.

لهونا لهوًا شعريًا فى تلك الغابة الفيحاء، وأسرعنا فعدنا قبل أن ينتهى المسيو بلانشو من درسه البليغ، ولكنه لم يكد يرانى حتى ابتدرنى بهذا الحديث :

- أين كنت يا سيد مبارك ؟

- خرجت يا سيدى أتنشق الهواء فرارًا من حر هذا المتحف !

- وأنت أيضًا تخشى الحر، وقد ولدت فى مصر ؟

- أتريد الحق، يا مسيو بلانشو ؟ لقد فررت إلى الغابة لأرى فى أرجائها مراجع الفن الأصيل، وتركتك تحدث رفاقك عن المحاولات الفنية التى يراد بها تمثيل مظاهر الكون، وبذلك ترانى آثرت عالم الحقيقة على عالم الخيال. وهنا نظر إلى نظرة المحنق وقال :

- عذرتك، يا سيد مبارك، فأنكم نسيتم الفنون منذ أزمان طوال، ولم تعودوا تعرفون أين تكون الحقيقة وأين يكون الخيال، أتحسب يا بنى أن الفن ليس إلا صورة فتوغرافية للمناظر الطبيعية ؟ ان الفن يمثل ذكاء الفنان، وهو محاولات عقلية قد تنفصل عن الاصل بعض الانفصال. وكانت ملامة ارتجفت لها أعصابى، وعرفت يومئذ أنى طفل فى عالم الفنون.

ومنذ ذلك اليوم أخذت اتابع دروسى مع المسيو بلانشو بعقل جديد، وذوق جديد، وصرت كلما زرت أحد المتاحف فكرت قبل كل شىء فيما يريد الفنان أن يقول.

ثم أخذت اتوغل فى عالم الفنون حتى لأحسب اننى استطيع ان اكون فى طليعة كتاب أهل الفن، لو شئت ذلك، والفضل فى هذا لاستاذى بلانشو الذى كان يصحح أغلاطى فى فهم الأعمال فقد جلسنا يومًا فى احد مشارب الجران بولفار ومرت إحدى النساء فقلت : ياله من جسم بديع ! فاعترض وقال : انه جسم عادى، لان المشية غير جميلة، ثم أنشدنى قول بودلير :

A te voir marcher en cadence,

Belle d'abandon,

On dirait un serpent qui danse

Au bout d'un bâton.

عندئذ عضضت بنانى من الندم، ففى كتاب «حب ابن ابى ربيعة» لمت ذلك الشاعر حين قال :

خرجت تأطر فى الثياب كأنها أيم يسيب على كثيب أهيلا

ثم عرفت انى لم اتنبه إلى ما فى تلك الصورة الشعرية من روعة التمثيل.

وأعود فأذكر أن للفن دقائق تحتاج إلى فهم وتعمق. فقد تعرض علينا صورة فنية تمثل منظرًا من روائع الجمال فيختلف الناظرون اشد الاختلاف، وهى مع ذلك فى متناول جميع الاذواق، ولأضرب المثل بصورة إيروس وبسيشيه، وهى من بدائع ما يحفظ متحف اللوفر، وتلك الصورة تفتن جميع الناس، ولكنها لا تفتح أمام عينيك أبوابًا من السحر الفنى إلا حين تعرف ما وضعت له فى باب الاساطير. ولك أن تنظر تلك الصورة المنشورة فى الهلال، ولكنا نرجو أن تعود إليها بعد قراءة هذا الملخص الوجيز :

كان لأفروديت إلاهة الجمال ابن جميل له أجنحة ذهبية اسمه ايروس، وكان يذهب إلى جميع البقاع محمولا على النسيم العطر عند دخول الربيع، فتورق فى طريقه الأشجار وتزهر الأغصان. وكان يتنقل من مكان إلى مكان مسلحًا بالسهام وفى يده مشعال وضاء. وكان يلهو بالمزج بين الدموع والبسمات، والجمع بين السعادة والشقاء.. وسمعت أفروديت إلاهة الجمال أن بين سكان الأرض فتاة حسناء يعبدها من يراها كأنها أفروديت. وقد بعث جمالها المرموق عقارب الحسد والضغن فى صدر الإلاهة الجمال. فدعت ابنها ايروس إله الحب. وقالت له : « ايروس، يابنى، هذا هو الوقت الذى تحتاج فيه امك إلى ساعديك القويين لامضاء ارادتها. إن ناسًا بلغت بهم الوقاحة أن يساووا بين جمالى الخالد وبين جمال فتاة آدمية تدعى بسيشيه. فاذهب يا بنى واحكم على تلك الفتاة بالشقاء : بأن تجعلها مدلهة بحب شاب بائس يضرب الناس بدمامته الأمثال ». عندئذ خرج إيروس من الأوليمب ونزل على الأرض. ولكنه لم يكد ينظر إلى جمال بسيشيه ونضارتها وحلاوتها حتى فتن بسحر تلك الإنسانة التى لا تقل اشراقًا ونضرة عن امه أفروديت. وبلغ به الوجد المفاجئ أن نقلها إلى قصر جميل فى بقعة نائية. وهناك فى ذلك

المنزل المنعزل فوق ربوة عالية باحدى الغابات الهادئة ظل ايروس يزور محبوبته خفية فى هيبة وحذر.

تلك خلاصة الموقف الذى يشرح صورة ايروس وبسيشيه. فحدثونى ماذا ترون ؟ أيلهيكم جمال ايروس عن ذلك المعنى المعجب الذى يمثل دهشته حين وقع بصره على ذلك الجسم الفينان؟ وأى معنى أعجب من أن يأتى إله الحب ليلقى سهمًا فيتلقى سهامًا؟

إن هذه الصورة تمثل الصلة الروحية والنفسية بين الفن والجمال. فالفن هو حيوية الجمال، هو الاصل الاول الذى يحيا به كل مخلوق جميل. ولولا الصلات الفنية بين اجزاء الجسم الفتان لذهبت معانيه هباء، واصبح كتلة من اللحم لا رونق فيها ولا بهاء.

وهذا الانسجام هو الجانب العلمى فى بناء الجمال. والجاذبية لا تقوم على غير أساس، كما يتوهم الغافلون، انما هى موازين ألماس فى عالم السحر والفنون.

* * *

لو أننى أنفقت فى سبيل المجد بعض ما أنفقت فى
سبيل الحب لكنت اليوم رئيس الوزراء

تجاربى فى الحب(*)

بقلم الدكتور زكى مبارك

وهل عرفت الحب، حتى أتحدث عما لقيت فيه من مفاتن وطيبات، وما عانيت من مكاره وأهوال ؟

إنها إشاعة لفقها المرجفون الآثمون الذين زوروا باسمى كتابا اسمه «حب ابن أبى ربيعة» وكتابا اسمه « مدامع العشاق ».

أنا أحب ؟ ومن الذى يحمل أثقال الواجب، وأعباء الحياة ؟ بل من الذى يصحح كراريس التلاميذ، وينشئ المقالات للصحف والمجلات، فيقضى النهار فى الدرس، والليل فى الإنشاء ؟

أنا أحب ؟ ومن الذى يحقد ويبغض ويؤذى خلق الله فى الصباح والمساء ؟

أنا أحب ؟ وكيف وكبدى أقسى من الصخر، وقلبى أصلب من الحديد ؟

قولوا غير هذا، واطلبوا تجارب الحب من رجل سواى.

فإن كنتم فى ريب من جهلى بالحب، فانظروا كيف أصف الحب، لتعلموا أنى ماذقت الهوى ولا الجوى، ولا عرفت الشغف ولا الشعف.

الحب عاطفة نبيلة لا تعرف غير كرائم النفوس. الحب لغة روحية يفهمها القلب عن القلب، وينقلها الروح إلى الروح، وتسرى نشوتها فى الافئدة سريان الصبا فى الغصن.

الحب معنى نبيل، فى لفظ نبيل. الحب قبس من الصهباء فى كأس من الماس. الحب لمحة من لمحات السحر الذى يفيض به الوجود فى ليلة قمراء.

الحب أرق وأنضر وأطيب من مطلول الازهار ومنضور الرياحين. الحب نغمة حلوة عذبة تناغى السرائر وتناجى القلوب.

الحب هو الكأس التى عناها سلطان العاشقين إذ يقول :

يقولون لى صفها فأنت بوصفها خبير، أجل عندى بأوصافها علم

(*) مجلة الهلال ١٩٣٧/١/٩ .

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم

على عمره فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

الحب نعيم يلبس ثوب البؤس، أو بؤس يلبس ثوب النعيم. الحب عاطفة عاصفة ماحقة ما يدرى الرجل أهى نعمة أم نقمة، ولا يعلم أهى هدى أم ضلال، وانما يعرف انها كلمة سحرية تزلزل العزائم وتدك الجبال.

الحب هو ائتلاف روحين، وامتزاج قلبين، وانسجام نفسين. الحب هو أن تذوب القسوة فى كوثر الحنان، وأن تأنس الاسود إلى فتك الظباء.

الحب هو أن تصير قلبًا شفافا تجرحه النظرة، وتفتنه الخطرة، ويأسره الدلال.

الحب هو أن تكون دنياك كلها ملكا لمن تحب. الحب هو أن تخاطر بالملك فى سبيل من تحب.

* * *

أتروننى وصفت الحب ؟ لا أظن ذلك، وكيف يصف الحب من لا يحب !

أشهد صادقا أننى لم أعرف الحب، ولكنى مع ذلك اعترف بأن لى شمائل تشبه شمائل المحبين. فأنا رجل يفضل الحسن على القبح، وهل فى هذا بأس ؟ وأومن بأن الوجه الاصبح أجمل من الوجه الوقاح، وهل يلام من يقول بذلك ؟ وأعتقد أن العيون النواعس أحب إلى القلوب من عيون الحلاليف، وهل فى هذا خلاف ؟ وأرى أن القد الرشيق أملح فى العين من الجسم المغلوط، وهل فى هذا الرأى غلط؟ وأجزم بأن المبسم العذب أحلى وأعذب من الافواه السود، فهل أنا فى هذا مخطئ يا أرباب العقول ؟

أنا لا احب، لا احب، ولكننى رجل فاتك النظرات، وما كان ذلك عن فجور أو فسوق، وإنما هى فلسفة لم يعرف مثلها الناس فى شرق ولا غرب.

أنتم تؤمنون بحقوق الحواس فيما تأكلون وما تشربون وما تلبسون، وأنتم تحبون ان تكون منازلكم وملابسكم ومطاعمكم ومشاربكم دليلا على ما عندكم من ترف الاذواق، وفيكم من ينفق ألوف الدنانير لينعم بالعيش فى منزل أنيق، وفيكم من يرحل من بلد إلى بلد ليظفر بأكلة شهية أو شراب عتيق !

فما رأيكم إذا قصرت انا شهوات الحواس على حاسة واحدة، هى حاسة البصر الغالى؟ ما رأيكم إذا استغنيت عن اكل التفاح اكتفاء برؤية لونه فى الخدود ؟ ما رأيكم إذا صدفت عن جميع التحف العاجية اكتفاء بحلاوة الجيد، ما رأيكم إذا انصرفت عن جميع الغرائب الفنية اكتفاء بما أرى من بدائع الجمال ؟

أنتم تمتعون اسنانكم بالنهش والنهس، والخضم والقضم، وانا امتع عينى بالمنظر الجميل، فيا بعد ما بينى وبينكم فى دنيا المفاتن، وعالم الأذواق. أنتم ترحلون من مكان إلى مكان فى السيارات وفوق ظهور الجياد، وتتخيرون فى الغالب اقصر سبيل، وانا لا امشى إلا فى الطريق الذى اعرف ان ارضه حنت وأنت تحت اقدام الملاح.

أنا لا أحب، لا أحب أحدًا، وانما أحب نفسى.

ومن حب النفس أن لا تقع العين على ما يسوء، وانما تقع على ما يفتن ويشوق، وهل يكون الطائر أعقل منى، ان الطائر لا يقع إلا على الغصن الرطيب ! وهل يكون النحل أعقل منى، ان النحل لا يمتص من الازهار غير الرحيق !

من أنا فى دنياكم، يا بنى آدم، يا أكلة اللحم والبقل، ويا خلفاء بنى اسرائيل الذين زهدوا فى المن والسلوى، وسال لعابهم شوقا إلى العدس والبصل والفول، من أنا فى دنياكم، يا بنى آدم ؟ أنا فى دنياكم غريب، لانى أعيش على الحب والنسيم.

أعيش على الحب ؟ لا، أنا لا أحب أحدًا، وإنما أحب نفسى، وقديمًا قلت :

ولما صار ود الناس ختلا ... وأوحش ربعهم من بعد أنس

ولم أظفر على جهدى بحر ... تركت هواهمو وصحبت نفسى

أنا لم أحب، ولم أعرف الحب، لأن قلبى أعظم من أن يحب، ولم يخلق إلى اليوم وجه يكافئ ما فى قلبى من صراحة الصدق، ونمير الحنان.. وأين يقع قلبى إذا شاء أن يحب ؟ أين يقع ولم يبق فى هذه الأرض حسن مهذب ولا جمال مصون ؟

وهل خلت الدنيا من المحاسن، هيهات ! ان الدنيا تموج بالفتن، ولكن الحسن الذى يضارع ما فى قلبى من عناصر العطف والسحر والروعة والفتون لم يخلقه فاطر الأرض والسماء.

وما أكذب الحسن، فقد شهدت منه نماذج يدوسها قدمى وهى طيعة راضية، ولكنى ما زلت أتكبر وأتجبر، وأطغى وأستطيل، لأن الحسن الذى يأسرنى لم يشهده هذا الوجود.

لا أكذب الحسن، فقد قطفت منه أطايب نفيسة لم يقطفها أحد سواى، ولكن كيف يديننى الحسن وفى قلبى شاعرية هى أنضر منه وأسحر وأفتك، وفى نفسى كرم هو أبقى منه على الزمن وأجدر منه بالخلود.

فإن كنتم فى ريب من ذلك فاسألوا كيف يعيش من قصرت عليهم هواى، سلوهم كيف استطابوا الغفوات وأنا أساهر النجم لأناجى المعانى، وأتحدث فى الهوى، فأشرح الجنون.

وماذا عند أهل الجمال ؟ ان الحب فى قلب العاشق أشرف من الحسن فى وجه الجميل.

أنا أحب ؟ قولوا غير ذلك، واطلبوا تجارب الحب من رجل سواى.

ألست أنا الذى رفع الحجاب عن أصول الحقائق حين قال : ان الدمع فى عين العاشق كالسم فى ناب الثعبان. فإن رأيتمونى أبكى من الحب فاعلموا أنى أفعل ذلك لأخدر الفريسة كما يفعل الأفعوان حين يلدغ الفريسة ليخدرها بالسم فيبتلعها بلا عناء.

ماذا لقيت من الحب ؟ لا تسألوا ماذا لقيت، فذلك حساب تثقل فيه الموازين، ولكن اسألوا ماذا عانيت فى الحب من سفه الطيش وعنف الفتون.

أنا اليوم صريع الغيرة، أنا اليوم قتيل الهموم، أنا اليوم شهيد الشجون.

اليوم يصحو المخمور، ويستيقظ الغافى، ويفيق المتبول.

اليوم أتلفت فأجد رفاقى تقدموا وتخلفت، وأشهد أنى كنت من الخاطئين.

لو أننى أنفقت فى سبيل المجد بعض ما أنفقت فى سبيل الحب لكنت اليوم رئيس الوزراء وداعًا أيها الجمال وداعا أيها الحب. وفى ذمة اللّه عمر ذهب، وشباب ضاع !

وفى سبيل من ؟ فى سبيل الغادرين الخاتلين من أهل الصباحة وأرباب الجمال.

تسألون عن تجاربى فى الحب ؟ انه تجارة خاسرة، وأرض موات.

فإن كان فى القراء من يعقل فليسمع الموعظة من رجل دفع ثمن التجربة من دم الصبا وعافية الشباب. لقد جربتُ الحب، وهأنذا أخرج من دنياه صفر اليدين. فمن اغتر بالحب بعد ما حذرته وأنذرته فهو مضيع مغبون.

* * *

وكنت أحب أن أطيل فى شرح هذه الموعظة، ولكنى مع الأسف مشغول القلب بغرام جديد، ولعلى أحدثكم عن أهواله بعد حين !

أتحسبوننى تبت ؟ هيهات هيهات !

* * *

هو عيد الميلاد ولكن أى ميلاد ؟![*]

للدكتور زكى مبارك

كان من حظ المسيحية أن يبعُد مكانها فى التاريخ، لتكثر فرص الشعر والخيال حول ميلاد المسيح، عليه السلام، حتى جاز لفريق من المؤرخين أن يرتابوا فى شخصية المسيح، كما ارتابوا فى شخصية سقراط (؟!)

والارتياب فى وجود تلك الشخصية النبوية لا يضر ذلك النبى فى كثير أو قليل، ولكنه يؤدى إلى غاية لم يفطن لها أولئك المرتابون، وتلك الغاية هى التحقق من ظمأ الإنسانية إلى نور يُطلّ من علياء السماء. نور جميل جذاب يبدد ما فى الضمائر من ظلمات الجحود.

ولنفرض جدلاً أن الرأى ما رأى أولئك المؤرخون، وأن الإنسانية هى التى ابتدعت ذلك الميلاد، فكيف اختارت هذا الوقت من السنة وهو طليعة الشتاء ؟

إن الذى اشتغل بالفلاحة يدرك أن الأرض فى هذا الوقت تعتلج بقوة وعنف، وتتهيأ لثمرات العام المقبل بلذة وشوق، وهى فى « الظاهر » غافية، ولكنها فى « الباطن » جذوة من اليقظة العارمة والإحساس الفوّار.

فى هذا الوقت تنظر الأرض إلى البذور وهى تقول : هل من مزيد ؟

فى هذا الوقت تستيقظ الأشجار التى جردها الخريف من الأوراق، ولو شرّحت تلك الأشجار لظهرت عناصر « البُذور » وهى الأثداء التى يرضع من رحيقها الورق الجديد.

فى هذا الوقت تُلقى بذرة فتنجح وتلقَى بذرة فتخيب، لأن الأرض فى هذا الوقت تحيا حياة عَصَبية، والحياة العصبية لا تعرف التدليل، فهى لا تقبل من البذور إلا ما يقوى على دفع عوادى البرد والجليد، ولن يكون الأمر كذلك بعد ثلاثة أسابيع من تاريخ الميلاد، فحينئذ ترق الأرض وتلطُف فتحضن البذور الضعيفة بترفق واستبقاء.

فهل فهمنا الآن كيف اختارت الإنسانية هذا الوقت لتاريخ الميلاد، على فرض أنه تاريخ مصنوع، وعلى فرض أن البحث من حيث هو بحث يسمح بالنظر فى الفروض، بدون اعتداء على مقام المسيح، عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات ؟!

أما بعد فقد كان لى مع هذا التاريخ تواريخ.

---

[*] مجلة الهلال بتاريخ ١٩٤١/٦/٦ .

كنت أحمل باقات الأزهار وطرائف الهدايا إلى مـآلف القلوب والأرواح يـوم كـان لى قلبٌ وروح، قبل أن تدور الدنيا من حولى بإفكها المرجف وبغيها الأثيم، وقبل أن أعـرف أن شجرة الحب كشجرة الميـلاد فيهـا أوراق صناعيـة لا تحـس مـا يحيط بهـا مـن أضـواء وألوان، ولا تقدر على نقل القلب من مكان إلى مكان.

وما أقسى الصحوة من غفوة العقل ! وما أشقى العقلاء !

لو كانت الدنيا أرادت ما أريد فأطالت فى غوايتى لعرفتُها أكثر مما عرفتُ، لأن المحب المفتون يتغلغـل إلى السـرائر، وإن اتُّهـم بالغفلـة والحمـق، ولأن العاشـق الجـاهل قـد يـرى المحاسن قبل أن يرى العيوب، والتثقيف الصحيح هو الذى يروضك على النظر فى المحاسـن قبل النظر فى العيـوب، ولـو قويـتْ جوارحنـا حق القـوة لأنِسنا بجميـع الوجـوه وجميـع الأشياء، ولكننا مع الأسف نتلقى دروس الحياة عن المعلولـين والضعفـاء، والتلميـذ صـورة الأستاذ فى أكثر الأحايين.

كانت لى غاية من الهُتاف بالحب، والهُيام بالجمال، فما هى تلك الغاية ؟

كنت أرجو الطب للنفوس العليلة التى لا تستريح إلا إلى شكوى الزمان.

كنت أسمو إلى خلق البشاشة والأريحية فى صدر هذا الجيل كنت أحارب النزعة الأثيمة التى تقتل الأرواح والقلوب باسم الوقار والعقل.

هل سمعتم بقصة الشيخ خليل ؟

هو رجل من علماء المالكية كان يفتخر بأنـه لم يخرج مـن الأزهـر مـرةً واحـدة لـيرى النيل، ولهذا الشيخ أحفاد وأسباط فى العقليـة، وأولئـك الأحفـاد والأسباط هـم السُّوس الذى ينهش عظام الأخلاق - إن صحت هذه العبارة المجازية ـ فـأخطرُ الآفـات أن تَصـدُر النصيحة عن رجلٍ حَمَدَ فعَقل، لأن الناس يَصِمونه بالعقل ولا يَصِمونه بـالخمود، وكذلـك يتلقون عنه درس الموت وهم يتوهمون أنه يدعوهم إلى مزاحمة الأحياء.

إلى متى الصبر على هذا الفهم السقيم لمعنى الأخلاق ؟ ومتى ندرك أن الخُلُق من صور الحركة، وليس من صور الركود ؟

الخُلق جارحةٌ من الجوارح، ومـا سُمِّيـت الجـوارح جـوارح إلا لقدرتهـا علـى السيطرة والامتلاك، فالعين التى لا تجرح ليست عينًا طبيعية، وإنما هى عين صناعية، إلى آخر القول فى وظائف الأعضاء، أو منافع الأعضاء، كما كان يعبِّر الأقدمون.

ولكن من الذى يسمح بعدّ هذا الكلام دعوة إلى الخُلق الصحيح ؟

وكيف يعيش المتوقرون والمتزمتون إذا استمع الناس لمن يقول بأن الابتسام للحياة من شواهد « العافية الأخلاقية » ؟

إن الشرق مبتلى بالانحراف فى فهم الأخلاق، فهى عنده سلب لا إيجاب، وهو يفكر فيما يترك قبل أن يفكر فيما يصنع، والنواهى والزواجر هى عنده الهدف الأول حين يتسامى إلى الاتسام بكرائم الخلال.

فما أصل هذا الإنحراف فى فهم الأخلاق ؟

لعل هذا الإنحراف يرجع إلى المعلمين، وكان التعليم مهنة مقصورة على الرهبان وأمثال الرهبان. فالخُلُق فى أذهانهم هو انحسار واحتجاز وانقباض، ومن هنا يؤخذ المعلم بقيود لا يؤخذ بها غيره من طبقات المجتمع، لأن الرهبانية مفروضة عليه وإن لم يخطر فى باله أنه مشدود إلى حظيرة الرهبانية. وهو يحمل أعباء ميراث ثقيل من التبعات والتكاليف، ميراث يرجع إلى العهد السحيق يوم كان الناس يتوهمون أن كلمة الخير لا تجىء إلا من مصدر مجهول، ويوم كان « سَدَنة الهياكل » ينتفعون بهذه الغفلة العقلية فيتحدثون من وراء حجاب باسم السماء، وما تكلمت السماء، وإنما تكلم ناس مبرقَعون خُلقوا من الوحل لا من الطين! وبفضل تلك العقلية أنكر قوم أن تكون النبوة من حظ رجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، وهى عقلية باقية إلى اليوم، وإن زعم « ناس » أنهم سلموا من دائها الوبيل.

لقد كثر المؤلفون فى الأخلاق، فماذا صنعوا ؟ هل غيَّروا ما بنفس الأمة من الفهم المنحرف لمعنى الحياة ؟ هل راضوها على التخلق بأخلاق العصر، ولكل عصر أخلاق ؟ هل استجابوا لدعوة العزة الروحية والعقلية فخلقوا الشوق إلى مسايرة ما فى الآفاق العالمية من الصيال بين الأرواح، والصراع بين العقول ؟

علم الأخلاقُ يدرس منذ أعوام طوال فى معاهدنا العالية، فأين محصول تلك الدروس ؟

كل ما وقع هو التلخيص لمشكلات أحسها بعض الأخلاقيين فى الغرب، والأخلاق إحساس لا تلخيص، وفى الشرق مشكلات غير تلك المشكلات، لأن له أمراضًا غير تلك الأمراض؛ ومن أمراض الشرق أن تجوز فيه الأستاذية الأخلاقية لناس لم يتمرسوا بمعضلات الوجود.

تلك خواطر ساقها ما وقعتُ فيه ليلة عيد الميلاد، فقد أخلفت موعدًا لا يخلفه الرجل إلا وهو مكروب، وهو موعد يذكر بإخوة له من قبل، يوم كنت مشبوب الصبوة فى منادح باريس، عليها أطيب التحية وأجزل الثناء !

وبماذا اعتذرت ؟ قلت إنى أحبر مقالاً لإحدى المجلات، وهل يصعب الاختراع على من يعايش أبناء هذا الزمان ؟!

ومضيت وحدى أجوب الظلمات بعد إخلاف ذلك الميعاد، فراعنى أن أجد فى قلبى فراغًا عميقًا مخيفًا يذكر بالفراغ المنصوص عليه فى بعض الأحاديث، ففى الآثار أن الجانى قد يهوى فى قاع جهنم سبعين خريفًا، وكان قلبى كذلك، فلو هويتُ فى أعماقه سبعين سنة لما وصلت إلى قرار مكين. وكيف وقد أعفيته من ثورة الوجد فى ليلة عيد الميلاد، فلم يُمس إلا وهو قضاء فى قضاء، وتلك حال القلب « الخالى » من الأهل، والوجد أهل، ولكن أكثر الناس لا يفقهون!

ورجعت إلى دارى بعد لحظات، وكان فى نيتى أن أطوِّف بأرجاء القاهرة إلى نصف الليل، رجعت سليم القلب من الأسواء ولا يسلم القلب من الأسواء إلا وهو عليل، فالقلب كالطفل، لا يُقبل على اللعب إلا فى أوقات العافية، وإن جهل ذلك «علماء» الأخلاق.

وأردت أن أطب لقلبى فذكرته بما مرّ فى العام الماضى من مكاره وعقابيل، ودعوته إلى النظر فى قصة الصديق الذى كنت أشرب على ذكراه أكواب الدمع، وهو اليوم لا يذكرنى حين يعاقر أكواب الصفاء. وذكرتُ قلبى بإحسانى إليه حين جعلت له ماضيًا فى الصداقة والحب، فذلك الماضى هو الأحجار التى بنينا بها وجودنا الصحيح، وجود القلب الخافق والروح العطوف، وهو الشاهد على أن حياتنا لم تخلُ من نوازع وأهواء، وأن لنا تاريخًا فى معاقرة الحقائق ومقارعة الأباطيل.

فهل وقع هذا المنطق من قلبى موقع القبول ؟

إنه لم يُنكر أنس الرجل بماضيه فى الصداقة والحب، وإن زلزلت الأرض زلزالها فغيرت جميع المعالم من ذلك التاريخ.

ولكنه أنكر الاكتفاء بثروة الماضى، وإن امتلأ بنمير الذكريات العِذاب، فما كانت الذكريات إلا ومضة البرق لعين السارى الحيران، وهى ومضة تزيغ عينيه ولا تهديه، وهى أيضًا تزيد حقده على ظلم الوجود.

وعمدت إلى القلم أثير به معركة أدبية، فقد كنت أعرف أن قلبى يكتحل بغبار المعارك التى يثيرها قلمى، فما نفع ذلك بشىء، وصاح القلب:«هذه ليلة الميلاد، فأين الميلاد؟!».

أين الميلاد ؟ وكيف ؟

هل يجب أن أولد فى هذه الليلة كما ولد المسيح ؟ وهل أولد فى كل سنة مرة، وما ولد المسيح إلا مرة ؟!

فأجاب القلب فى حزمٍ عنيف : يجب أن تولد من جديد فى كل لحظة، لأن المُقام على حالٍ واحد يُفسد مياه الأنهار، فكيف تراه يصنع بأفكار الرجال !

- ولكن ليلة الميلاد قد ضاعت علىّ وعليك، يا قلبى !

- إن ضاعت ليلة الميلاد فقد بقى يوم الميلاد.

وفى الصباح هتف الهاتف - وهو التليفون كما كان يسميه أهل لُبنان - والهاتف روح لطيفة كانت بينى وبينها أشياء، وقد قدِمتْ من بلدٍ بعيد لترانى يوم الميلاد، فهتفتُ :

يا قلب يومى ويومك عيد !!

وخرجنا معًا، أنا وقلبى، لاستقبال تلك الروح، وقد وُلد الهوى من جديد، الهوى الذى ظلمناه باسم الوقار والعقل، وطال الحديث وطاب حول ما كنا عليه، وما صرنا إليه، ومن شرب من عيون تلك الظبية ما شربتُ لا يقول إنه رآها فى يوم الميلاد، وإنما يقول إنه رآها فى أبد الخلود !

وعادت تلك الظبية إلى ضلالها القديم فأمرتنى أن أكتب ما يجيش فى صدرى وأنا فى حضرتها السامية، وهو امتحان أؤديه كلما التقينا، وحياتى كلها امتحانات ! فامتشقتُ القلم وكتبت :

« باسم اللّه الذى أقسم بالقلم وما يسطُرون أُسجل هذه الكلمات :

عُنِيتْ الحكومة المصرية كما عُنِيتْ سائر الحكومات بتدبير معاشات الموظفين، بحيث يجد الموظف ما يقتات به بعد بلوغ الستين، ولكن الحكومة نسيت أو تناست أن فى الأمة رجالاً لهم خدمات صوادق وليسوا موظفين فليس لهم معاش، وهم الرجال الذين انقطعوا للصحافة والتأليف؛ فالأستاذ فلان خدم الصحافة نحو عشرين سنة ثم هده التعب، فهو اليوم يعانى البطالة والمرض بلا عائل ولا معين . والأستاذ فلان أخرج طائفة من المؤلفات الجياد، وكان يعيش عيش الفقراء من تلك المؤلفات، وهو اليوم لا يقدر على التأليف، فهو فى فقر مُدقع ولا يسأل عنه أحدٌ من أصحابه القدماء. وفلان كانت له سابقة فى الابتكارات الأدبية، وهو اليوم مُعْوَز لا يجد القوت الطفيف. وفلان قضى شبابه وكهولته فى التدريس بالمدارس الحرة ثم قصمه المرض فخرج بلا معاش وله أطفال يصرخون من الجوع فى كل صباح وفى كل مساء».

وعند هذه الكلمة شرقتُ بدموعى، وكاد صوتى يرتفع بالنحيب، فصاحت الظبية :

- تبكى وأنا معك ؟ هل تقصّ ما كان بينى وبينك ؟ ويلى عليك وويلى منك !!

- نعم، يا شقية، هى قصة حبى، فدعينى أدوّن كل شىء !

ثم مضيت فكتبت.

« والدولة التى تنفق ما تنفق على مختلف الشؤون لا تذكر أن فى مصر كتابًا وشعراء وباحثين أعجزهم المرض عن السعى فى سبيل القوت، ولهؤلاء آثار ظاهرة أو خفية فى نهضة الأمة وقد يكون لهم تلاميذ - ولو بالفكر - من بين كبار الوزراء فما الذى يمنع من أن تفكر الدولة فى حماية هؤلاء من قسوة الاحتياج ».

ثم سكتُّ، فقالت الروح: هل وصلتَ فى مكايدتى إلى ما تريد ؟

فقلت : ستعلمين بعد لحظات ! ثم كتبت :

« قد يقال إن الدولة لا تستطيع معاونة أهل الأدب بصفة رسمية، لأن الأدب ليس له رسوم ولا حدود، وهو مباح الحُرُمات يدعيه من يشاء ! وأجيب بأن الدولة تستطيع أن تجعل الفصل فى هذه القضية من اختصاص مدير الجامعة أو وزير المعارف ومن المفهوم أن هاتين الجهتين لهما دراية صحيحة بأقدار الأدباء والباحثين، وأنا أرضى بأن ترصد الدولة مئتى جنيه فقط فى كل شهر لعشرين رجلاً من هؤلاء، فإن استجابت الدولة لدعائى فقد ترفع عن كاهلى عبئًا ثقيلاً جدًا، هو عبء التفكير فى أديب كانت له جولات موفقة فى ميدان البيان، وإن كان من ألدّ خصومى » .

وغلبنى الحزن فبكيت، فقالت الروح : يظهر أننى دلّلتك أكثر مما يجب، فعدت أسرع من الأطفال إلى البكاء !

فاستمهلتها لحظة وكتبت :

« والدولة مع ذلك... ».

ثم فكرت قليلاً وكتبت.

« والدولة التى تترك بعض الأدباء يموتون من الجوع هى الدولة التى تمنّ علينا بأنها أنشأت وزارة للشؤون الاجتماعية : »

ثم ؟؟ ثم أحسست يدًا تصدنى عما أكتب بقسوة وعنف، فعرفت، أنى فى حضرة تلك الروح، وأن المقام لا يسمح بمثل هذا الكلام الحزين.

- ماذا قلت فىّ ؟

- قلتُ إنك غبية وحمقاء !

- أنت وحدك الغبىّ، وأنت وحدك الأحمق !

- هذه كلمة حق، لأنى قضيت عشرين سنة فى خدمة أمة لا تعرف أن القلم له حقوق.

- وما شأن القلم فيما بينى وبينك ؟

ـ القلم هو الذى يجرنى أحيانًا إلى محاورة الحمقى لأدرس الغرائز والطباع !

ـ Ça suffit ! Ça suffit !

ليكن ما تريدين، أيتها الروح، فإشارتك أمرٌ مطاع أما بعد، وسيطول شقائى بأما بعد!

أما بعد فقد حدثنى الشاعر حافظ ابراهيم مرات كثيرة أنه كان يتمنى الاتصال بقصر جلالة الملك ليكون سفيرًا بين القصر الرفيع والأدب الرفيع.

وقد مات حافظ قبل أن يظفر بتحقيق تلك الغاية، ولم نسمع أن رجلاً فكَّر فيما فكَّر فيه حافظ، ولم يصل إلينا من قُرب أو من بُعد أن ناسًا يسرّهم أن يكون للأدب حظ من الرعاية والتشريف بقصر المُلك، مع أننا فى عصر فاروق بن فؤاد بن إسماعيل.

لقد شقى قلمى فى الدعوة إلى أن يكون للأدباء مكان فى الحياة الرسمية، لأنها عنوان الحياة وزينة الوجود، ولأن آثارهم هى الباقيات الصالحات فوق جبين التاريخ.

* * *

ثم انتهى الحُلم، حُلم اليقظة فى يوم الميلاد، ورجعتْ تلك الروح إلى بلدها البعيد، وبقيتُ حيث كنت أعانى بلاء الهجر وعناء الصدود.

أيها البلد الذى لا أسميه تخوفًا من الرقباء !

فيك أيها البلد الجميل روحٌ لطيفة يصلنى بِرها من وقت إلى وقت، وفيك روح لا تحتفل بعيد الهِجرة ولا عيد الميلاد، ولكنها تذكرنى فى عيد الهجرة وعيد الميلاد، لأنها تشعر باحتياجى إلى البِر فى مواسم الأرواح والقلوب.

أيتها الروح، أنا مشتاق إلى مصدر الوحى، فمتى تعودين ؟

أنا فى دنياى غريب، أيتها الروح، وأنت البَلسم الشافى لوحشة الغريب.

هو عيد الميلاد، ولكن أى ميلاد ؟ هو ميلاد الحب الصادق، فتلك أول مرة مسحت فيها دموعى بأناملك اللطاف، يا حجتى الباقية على أن الهوى إلهٌ معبود.

* * *

خواطر ليلة الميلاد*

كان لى مع هذه الليلة تواريخ فى القاهرة وباريس، تواريخ أبدعها الجوّ الطروب أو الجوّ العَبُوس، فقد كان يتفق فى أحيان كثيرة أن تحمل ليلة الميلاد أكدارًا ومنغصات، لأن الغالب فى البيوت الفرنسية أن يكون الزوجان عاشقين، وأن تكون نيران الغيرة مما يُشَبْ فى ليلة العيد حول «شجرة الميلاد»، وما أسعدَ من يعيش وهو معذّب بلواذع الوجدان!

ما أذكر مرةً أن تلك الليلة مضت بدون عواصف، إلا أن تكون فى بيوت فرغ أهلها من مصارعة الأهواء، وهى فيما عدا ذلك ليلة متاعب وكروب.

وهذه الظاهرة هى سرّ جمال هذه الليلة، فاصطراع العواطف ميلادٌ جديد، وقد يفعل فعل السِّحر فى إحياء المشاعر والقلوب.

كنت أقضى هذه الليلة فى بيوت أعرف من أحوالها أشياء، فكنت أفهم الرموز والتلاميح، وكنت أجد التفاسير لبعض دقائق الأدب الفرنسى، وهو أدبٌ قام على أساس الفهم للسريرة الإنسانية، وسيعيش إلى أزمان وأزمان، ما دام فى الدنيا ناسٌ يحبون الأدب الصادق الصريح.

ثم جاءت هذه الحرب فقضت فى مصير فرنسا بما قضت، ولم يبق لأصدقائى الفرنسيين من زاد غير الحزن الوجيع، فأنا لا أزورهم فى ليلة الميلاد كما كنت أصنع، ولا ألقاهم إلا فى الحين بعد الحين، فهناك أحزان تؤرّثها المواساة وتزيدها اشتعالاً إلى اشتعال.

وهنا أذكر أنى عرفت أخيرًا أن سقوط باريس لم يُحزن أهل باريس بقدر ما نتصور، ولم يشعرهم بمعانى الامتهان. وتفسير ذلك عند الأستاذ توفيق وهبة أنهم قومٌ تعودوا الهزائم والانتصارات، ولم تكن الدنيا فى أنظارهم غير مواسم للانخفاض والارتفاع.

ولكنى مع هذا أقرر أن حال الفرنسيين المقيمين بمصر يختلف عن حال مواطنيهم هناك، لأن المغترب يتعلق بوطنه تعلقًا لا يحسّه المقيم، وقد تأكد عندى هذا المعنى فى الأعوام التى قضيتها فى باريس وفى بغداد، فقد كان الخبر السيىء يؤرق نومى مهما صَغُر وهان، وكان أىّ حرف يُكتب ضد مصر يؤذينى، فأردّ عليه فى الحال.

---

* مجلة الرسالة العدد ٤٩٦ فى الرابع من يناير سنة ٤٣ .

أكتب هذه السطور فى ليلة الميلاد، وفى خيالى بيوتٌ عزيزة كنت أحب أن أراها وكانت تحب أن ترانى. وسيقول قومٌ كلامًا كالذى قالوه يوم نشرت « الرسالة » مقالى فى التفجع لسقوط باريس* !

كانت فرنسا أمةً استعمارية فشمِت بانهزامها من يؤذيهم بغىُ المستعمرين، وفاتهم أن فرنسا أعطت جميع الشعوب درسًا سينتفعون به حامدين أو جاحدين.

كانت فرنسا ترى أن اللغة هى عنوان الأمة، وكانت ترى أن الوطن الذى لا يسيطر بالفكر على خصومه ومنافسيه وطنٌ ضعيف. ومن أجل هذا أنفقت فرنسا ما أنفقت من الأموال ليكون لها مدارس فى جميع البلاد، وبفضل هذه العناية صارت اللغة الفرنسية لغةً دولية، وصار من حق الفرنسى أن يعفى نفسه من العناء فى تعلم اللغات، لأنه سيجد من يتفاهم معهم بلغته فى أى بلد يتوجه إليه، ولو فى الصين !

اقترحتُ فى سنة ١٩٣٨ أن نُنشئ مدرسة مصرية تنافس المدرسة الفرنسية فى طهران، فلم أجد من يسمع كلامى. وأين من يعرف أن فى طهران جريدة إيرانية لغتُها الفرنسية ؟

فوجئت يومًا وأنا بدار المعلمين العالية فى بغداد بمجموعات فخمة ضخمة من المؤلفات الفرنسية، وحين سألت عن مصدرها عرفت أنها هدية مرسلة من باريس.

وقد استوحيت هذا الشاهد فاقترحت فيما بعد أن ترسل وزارة المعارف المصرية هدايا من الكتب المكدسة فى المخازن إلى المدارس الأجنبية، فترددت الوزارة عامين، ثم تلطفتْ فأهدت مجموعات هزيلة، مع أن فى مخازنها مجلدات مهجورة ستباع يومًا بلا ميزان، لأن حراستها وصيانتها تجشمان الوزارة ضروبًا من التكاليف.

كانت فرنسا تقول بمبادلة الأساتذة والتلاميذ، لتعطى وتأخذ، ولتفيد وتستفيد، وقد أقامت فى إحدى ضواحى باريس مدينة تبنى فيها أية أمة لأبنائها ما تشاء، ولقد استفادت أممٌ كثيرة من هذه المزية، إلا مصر، ولهذا تفصيلُ قد يتأذى « الشمسى باشا » من تسجيله فى هذا الحديث.

ونحن اليوم فى أوج صلاتنا مع الشرق، فعند الشرق مدرسون مصريون يعدّون بالمئات، ومع هذا لم تفكر مصر فى ردّ الجميل.

ما الذى يمنع من أن تستقدم مصر بعض الأساتذة من الشرق ليدرّسوا فى معاهدها العالية بأساليبهم الخواصّ : فهذا فى كلية الآداب، وذاك فى دار العلوم، وذلك فى كلية اللغة العربية، إلى آخر ما يصلح له علماء الشرق ؟

ليس معنى هذا أن مصر فى احتياج إلى مدرسين، وكيف وفى خريجى المعاهد العالية شبان أكفاء لا يجدون ما أعدوا له من المناصب التعليمية ؟

إن لهذه المسألة وضعًا غير هذا الوضع، والمراد هو أن تفكر مصر فى إتاحة الفرصة لبعض أساتذة الشرق، الفرصة التى تمكنهم من الوقوف على التيارات العلمية والأدبية فى الديار المصرية ؛ فمصر اليوم فى ازدهار علمى وأدبى لم تشهد مثله من قبل، وهو ازدهار يوحى إلى الأساتذة أكثر مما يوحى إلى الطلاب، وقد يكون فى وجود أولئك الأساتذة فرص لمنافسات علمية وأدبية تعود علينا بأجزل النفع، وقد يكون فى وجودهم خير للطلبة الذين حضروا إلينا من بلادهم، فأنا ألاحظ أن أكثر الطلبة الشرقيين لا يجدون من يعاونهم على الاستفادة الصحيحة من الإقامة بهذه البلاد .

خطر فى بالى مرة أن أقترح على مشيخة الأزهر الشريف أن تنشئ كرسيًا للفقه الجعفرى، وكان هذا الخاطر لأنى لاحظت أن النضال بين المذاهب الفقهية قد انعدم فى مصر أو كاد، مع أن لمصر فى التشريع الإسلامى تاريخًا من أمجد التواريخ .

إن مناصب « شيوخ المذاهب » صارت مناصب شكلية بسبب السلام الذى ساد بين المذاهب، وهل نسمع اليوم خبرًا عن شيخ الشافعية أو شيخ المالكية ؟

إن النضال بين المذاهب أدى للتفكير الإسلامى خدمات تفوق الإحصاء، وله فضلٌ عظيم فى مرونة اللغة العربية، وأكاد أجزم بأن الفقهاء خدموا اللغة أكثر مما خدمها الشعراء .

لو استقدمنا عالمًا شرقيًا لتدريس الفقه الجعفرى بالأزهر لأثرنا النضال بين المذاهب من جديد، وأعطينا مصر فرصة عظيمة ليقظة فكرية نادرة المثال .

إن مصر فى عهدها الحاضر تنشئ تاريخًا جديدًا فى الشرق، وهى فى طريق الوصول إلى عقد معاهدات ثقافية مع أكثر أمم الشرق، وهذا يوجب عليها أن تعرف الشرق أكثر مما تعرف، فيكون لها فيه سفراء روحيون، ويكون عندها منه سفراء روحيون .

لو دعونا جماعة من أساتذة الشرق ليحدثونا عما فى بلادهم من تقاليد وآداب لحمدوا لنا هذا الصنيع، وعدوه تلطفًا يستحق الثناء .

ويظهر أنه لابد من إنشاء قلم بوزارة الخارجية لمراجعة ما يكتب عن مصر فى جرائد الشرق، وتكون مهمته المبادرة إلى تصحيح ما يستوجب التصحيح، وتكون مهمته أيضًا أن يستصدر أعدادًا خاصة من بعض جرائد الشرق للتعريف بمصر كالذى تصنع وزارة الخارجية فى استصدار أعداد خاصة من بعض الجرائد الإنجليزية والأمريكية .

وهنا أشير إلى حادث ما ذكرته إلا شعرت بالحزن يعصر قلبى. فى سنة ١٩٣٩ أصدرت مجلة « الحديث » ومجلة « العرفان » ومجلة « المكشوف » أعدادًا خاصة بمصر، أعدادًا نفيسة جدًا، ومع هذا لم أستطع إقناع « وزارة المعارف » بأن تشترى من تلك الأعداد مجموعات لمكتبات المدارس، ليعرف الذين فكروا فى التنويه بمصر أن كرمهم لا يضيع .

وفى تلك الأيام كنت أقترح على الأستاذ الزيات أن تصدر الرسالة أعدادًا خاصة عن الأمم العربية فرحَّب بالاقتراح وأجَّل تنفيذه إلى انقضاء الصيف، ثم بدا له بعد ذلك أن يواجه المشروع من جديد، فصدته أزمة الورق عما يريد .

مالى ولهذا الكلام ؟

هذه ليلة الميلاد، والأثير ينقل إلى سمعى بعض ما يثور فى شوارع مصر الجديدة من عجيج وضجيج، فكيف آثرتُ الاعتكاف فى هذه الليلة، وقد تفضل شهر ذى الحجة فجعلها قمراء؟

لعلنى أردت الخلوة إلى قلمى، وهو الأنس الأنيس عند اعتكار الظلمات فى دياجى الزمان.

لعلنى أردت بهذه الخطرات القومية أن أتجنب الخلوة إلى قلبى، وهو عدوٌّ صديق .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوًّا لهُ ما من صداقته بُدُّ

قضيت ما قضيت من حياتى فى دراسة الجمال، حيثما كان الجمال، فأنا لا أضيف حرفًا إلى حرف إلا بميزان، وأنا أصادق وأعادى بوحى الذوق لا يوحى النفع، وما الموجب لأن أكون نفعيًّا وقد أغنانى اللّه عن جميع الخلائق، ولم أعرف ما الظمأ والجوع فى أى يوم، ولا جاز فى وهمى أن أتصور أن اللّه قد يتخلى عنى ؟

لى صداقات كثيرة مع أرواح تنطق بالأوراق لا بالألفاظ، وأقسم جهد اليمين أن بحديقة دارى فى سنتريس أشجارًا يعتريها الذبول إن صدفتُ عنها أسابيع.

لى صديق هو اليوم أحد مدرسى الفلسفة بكلية الآداب، وهو الأستاذ محمود الخضيرى، وكان لى معه حديث فى « ايسكوار مونج » فى نوفمبر سنة ١٩٣٠، فما ذلك الحديث ؟[١].

---

[١] فى حى السيدة زينب درب صغير اسمه « حارة منجى »، ومنجى الذى سميت باسمه تلك الحارة هو « Monge » أحد الأساتذة الذين قدموا مصر مع حملة بونابرت .

كنت أجلس فى بعض الضحوات « بذلك الإيسكوار »، وهو حديقة الحىّ فى الاصطلاح الفرنسى، كنت اجلس تحت شجرة يؤنسها أن ترى رجلاً بيده كتاب، وكان أصدقائى من بعثة الجامعة المصرية يعرفون كيف يلقوننى هناك . وفى ذات يوم حضر الأستاذ محمود الخضيرى فوجدنى أجادل رجلاً يحاول تشذيب تلك الشجرة بعنف، فأنكر علىّ ما أصنع، فقلت إن الشجرة تصرخ، ومن واجب من استظل بظلها أن يدفع عنها العدوان . فقال : وهل يحس الشجر والنبات ؟ فقلت : نعم، ويتألم الشجر والنبات كما يتألم الحيوان !

إحساسى بالوجود هو سبب عنائى، ولو عرف الناس هذا العناء لقاتلونى عليه، فهو أطيب الأطايب فى ثمرات الحياة.

لم أدخل بلدًا إلا أحببته أصدق الحب، لأنى أرى بضميرى وجه اللّه فى كل مكان . وما صادقت إنسانًا وغدرت به أبدًا، لأنى أرى الصداقة من أظهر الدلائل على صحة القول بوحدة الوجود .

وأنا أترحم وأتحسّر وأتفجع كلما رأيت إنسانًا يكذب أو ينافق فى سبيل العيش، فالموت الذى يخافه الناس لن يصل يومًا عن طريق الجوع . ولو نظر الناس فى أسباب أمراضهم لوجدوها ترجع إلى الإفراط فى الطعام والشراب ولو كانوا من الفقراء .

ثم ماذا ؟ ثم يبقى جواب الخطاب الوارد من « الأرمان » فماذا يريد ذلك الخطاب ؟

هو يريد أن تكون مقالاتى كلها على غِرار « دار الهوى فى عيد القمر » فأين أنا مما يريد ؟ وأين الأعصاب التى تستطيع تدبيج الأحاسيس فى كل أسبوع ؟

أمام عينىَّ وبين يدىّ أرواحٌ موقوذة هى المقالات التى سطرتها بدمى، ولا أستطيع نشرها بأى حال، لأنها تخالف المألوف من تقاليد هذا الزمان .

ثم يحاسبنى ذلك الخطاب على هفوات قلمى، كأنه يجهل أنى أمتشق القلم فى كل مساء، وأنى أراود أبكار المعانى فى يقظتى ومنامى .

أما بعد فهذه ليلة الميلاد، وقد قضيتُها وحيدًا فريدًا لأتقى اللّه فى نفسى فلا أعرضها لشواجر الأرواح وعواطف القلوب. وقد بقيتْ ليلة ستأتى بعد ليال، وهى ليلة العام الجديد، وأغلب الظن أنى سأحرّم نعيمها على نفسى، لأنى نذرت التبتل بعد فراق من تلقيت عنهم وحى الروح فى اللحظة التى تَفصِل بين العام الذاهب والعام الوليد.

ما جزَعى على ما مضى من أيامى، و لم يعش أحد كما عشت، ولا استجاب الوجود لنداء شاعر كما استجاب لندائى ؟

ماذا صنع الدهر بهم ؟ ماذا صنع * ؟

إن دنياى بعدهم وهمٌ فى وهم، وخيالٌ فى خيالٍ، ولن أتذوَّق طِيب الحياة إلا بعد أن يصفحوا عنى .

إن ذنبى عندهم أنى صيرت حياتهم أفانين من الارتياع والانزعاج ... فهل يجهلون ما صنعوا بحياتى ؟ وهل يجهلون أن الجروح قِصاص ؟

قد كان لى قبلكم حبٌّ وكنت فتى ... لظل سلطانهِ أهلُ الهوى تبَعُ

فكيف أشقيتمونى كيف لا رَضِيَتْ ... ولا أرتنى الليالى كيف أرتدعُ

هُبُّوا فؤادى سلا واجتاز محنتهُ ... فمن بسلوة قلب الصب ينتفع

يا غاضبين تعالَوْا تشهدوا كبدًا ... رجاؤها فى خيال البرء منقطع

هوًى تهاوت أمانيه فليس لهُ ... فيما تجود به الأوهام مُنتفَع

هوًى خلقتم وأفنيتم، ولا عجبٌ ... بعض الأحباء فى قتل الهوى صَنَعٌ

لا تحسبوا هجركم خطبًا يروِّعنى ... إنى بوأد بنات الدهر مضطلعُ

---

* نشرت هذه المقالة من قبل ولكننى أعددت نشرها فى هذا الكتاب لأن زكى مبارك قال فيها : «سيقول قوم كلاما كالذى قالوه يوم نشرت «الرسالة» مقالى فى التفجع لسقوط باريس» .

ومقال زكى مبارك فى التفجع لسقوط باريس على صفحات هذا الكتاب تحت عنوان : مدينة النور تعانى ظلام الخطوب صفحة ١٥٣ .

أحلام العام الجديد(*)

التفت أخونا الأستاذ الزيات فرأى العام الجديد لا يخيفه إلا من ناحية « استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف »، فتوكل على اللّه وقرر أن « الرسالة ستستمر على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والإهداء مع المشتركين القدماء ؛ أما المشتركون الجدُد فيؤدون الاشتراك كاملاً، مقسّطًا أو غير مقسْط » . وبهذا ظهر «امتياز» الصديق القديم على الصديق الجديد !

والتفتُّ فرأيت العام الجديد يخيفنى من ناحية غير تلك الناحية، فأنا لا أشكو غلاء الورق ولا ارتفاع موادّ الطباعة، بعد أن أرجأت النظر فى طبع مؤلفاتى الجديدة إلى أن تنتهى الحرب ؛ وإنما أشكو غلاء العواطف وارتفاع أثمان الصدق إلى ألف ضعف لا عشرة أضعاف.

وما ظنُّكم بزمان لا يبرع شعراؤه فى غير الحديث عن « الرغيف »، كالذى ترون من يوم إلى يوم فى بعض الجرائد والمجلات ؟

ما ظنُّكم بزمان يعدْ فيه الحديث عن أحلام القلوب ضربًا من الفُضول ؟

إن هذه المحنة العاتية هى الفرصة لاختبار ما عند أدبائنا من عناصر الثروة المعنوية، فبها نعرف ما عندهم من أرزاق الروح والذوق والوجدان.

أيكون الكلام عن « الرغيف » توددًا إلى أهل البطون، وهم ألوف أو ملايين ؟

إن كان ذلك فأين الأريستوقراطية الأدبية وهى تسمو على الحاجيات اليومية ؟

أيكون الكلام عن الرغيف فرصة من فرص القول يهتبلها من لا يصل إلى بعض الجرائد والمجلات إلا بعناء ؟

إن كان ذلك فأين تصوّن الأديب عن الكلام المبذول ؟

سمعت ـ بل علمت ـ أن مدرسًا فى « قنا » أرسل إلى جلالة الملك برقية يشكو فيها انعدام الرغيف، فماذا وقع من الخطر حتى يجوز مثل هذا الصراخ ؟ وماذا نصنع لو أصبحت بلادنا وهى ميدان حرب، وقد تصير كذلك إذا طال استمراء المتحاربين لما اندفعوا إليه من استطابة الجنون ؟

(*) مجلة الرسالة العدد ٤٤٤ فى ٥ يناير ١٩٤٢ .

وإذا استجاز « المدرس » أن ينظم القصائد الطوال فى الشوق إلى الرغيف وهو مدرس يقتات بالعواطف والأحاسيس، فماذا يصنع « الفلاح » أو « الصانع »وهما شخصيتان تعتمدان فى القوت على الرغيف !

لعل الأيام أرادت أن تعلمنى ما كنت أجهل، وقد طال منى التجنى على الصوفية (وكانوا يدعون إلى التحرر من ربقة الرغيف) .

فهل كان للرغيف مثل هذه الآفة فى العصور الخوالى ؟

ولعل الأيام أرادت أن تقنعنى بأنى صرت من الحكماء من حيث لا أعرف، فقد هجرت الخبز منذ أعوام طوال، واكتفيت بما تيسر من الخضروات، بغض النظر عن اللحم الذى آكله باسم النقد الأدبى، وهو لحم غاب اسمه عن « دولة الحاكم العسكرى » فلم يفرض على من ينتاشه أى عقاب !!!

ما تهمنى أزمة الرغيف، وإنما تهمنى أزمة القلب .

ولو كان فى وزراء مصر لهذا العهد من عانى أزمات القلوب لعرف كيف يحارب أزمة الرغيف، لأن القلب هو الأساس فى فهم أخطار الوجود .

الظبية تجتزئ بالعشب فتستغنى عن الماء، ومن أجل هذا سُمِّيتْ جازية، و« جازية » من أسماء الملاح فى هذه البلاد وإن لم يعرف الجمهور ما فيه من معنًى ملفوف .

فإذا فقدت الظبية العشب، فكيف تعيش وبه غنيتْ عن الماء ؟

لن أنسى أبدًا سخرية « فاجيه » من « أفلاطون » وفاجيه كان أكبر من اهتممت بآثاره الأدبية والفلسفية من بين أقطاب الأدب الفرنسى، وعن سيرته تعلمت أشياء هى الهادى والدليل فى حياتى الأدبية، فأنا أسجل كل ما يعتلج فى صدرى قبل أن يضيع، ثم أقدمه للجرائد والمجلات حين أشاء، بلا تقيد بالمكان والزمان !

وفى هذا المرة أكون أعظم من أستاذى فاجيه، فقد سخر من تسامى الفلاسفة إلى ولاية الحكم وهو ينقد أفلاطون . أما أنا فأرى أن الفلاسفة هم أقدر الناس على إقامة الموازين بالقسطاس .

نحن، رجال القلم، أعرف خلق الله بما يشتجر فى الصدور من آلام وآمال .

كانت الحكومة إلى رجال يعيشون فى حصون تقفل أبوابها بالنهار وبالليل : فلا يعرفون ما يعانى الشعب من ظلمات الحوادث والخطوب ...

ولم نكن كأولئك، فنحن قوم نعيش للشعب وفى صحبة الشعب، ولنا فيه أعمام وأخوال، ولن نتجنى عليه بأى حال .

ونحن مع هذا معرّضون لدسائس سود، ومن الواجب أن نبدّد تلك الدسائس، بلا تسويف، تمهيدًا للوزارة التى سنؤلفها فى العام الجديد .

قيل إن الزيات متأنق فى الأسلوب، فهو يزاوج بين لفظ ولفظ بغير عناء ؛ وأقول إن هذه النزعة تنفع فى المزاوجة بين الطبقات والأحزاب، حين يمسى الزيات وهو رئيس الوزراء .

وقيل إن العقاد مولع بوصل ما بين الشرق والغرب فى الآفاق الفكرية، وأقول إنه أصلح الأدباء لتولى وزارة الخارجية .

وقيل إن أحمد أمين لا يجيد الكلام فى غير البحث المطروق، وأقول إنه أصلح الناس لوزارة المواصلات، فلن نجدد فيها إلا بعد انتهاء الحرب .

وقيل إن المازنى أول أديب حجّ بيت اللّه فى غير موسم الحج، فهو إذن أصلح الأدباء لأن يكون سفير مصر فى الحجاز، وإن قال فى صلاة « زكى باشا » ما قال .

وقيل إن توفيق الحكيم يقدس « السيدة زينب » فهو إذن وزير الأوقاف .

وقيل إن طه حسين لم يُجد فى « هامش السيرة » غير الحديث عن « الراهب » فهو إذن وزيرنا فى بلد النجاشى .

وقيل إن محمود تيمور لا يحسن القول إلا فى وصف الطبقات الشعبية، فهو إذن وزير الشؤون الاجتماعية .

ولا موجب للحديث عن الأدباء الغَدَرَة من أمثال : عبد القوى أحمد ومحمد هيكل ومصطفى عبد الرازق ؛ فقد تولوا الوزارة قبل أن يستأذنوا إخوانهم من رجال القلم البليغ!

بقى مكانى فى الوزارة المنشودة، فما عسى أن يكون ؟

هل أختار وزارة المعارف ؟

وكيف وهى وزارة متعبة، وما تولاها رجل إلا عرف خطر المشى على الشوك ؟

صار من تقاليد وزارة المعارف أن يهدم الخَلَف ما بنى السلف، وأنا أكره التقلبات الكثيرة، وأبغض الضجيج المفتعَل، والصياح المصنوع .

يضاف إلى ذلك أنى نشرت مقالات تفوق العدّ والإحصاء فى شؤون التربية والتعليم، ومن الجائز أن يطالبنى الجمهور بتحقيق ما اقترحت فى تلك المقالات، وهنالك الخطر كل الخطر، إلا أن أروض نفسى منذ اليوم على التنصل من تلك المقترحات !

هل أختار وزارة الداخلية ؟

هذا هو المركز اللائق برجل يغضب للشعب، ويثور على الاحتكار والمحتكرين .

إن توليت وزارة الداخلية - وهذا أمرٌ قريب - فسأفرض على رجال الحكومة فى مختلف الأقاليم أن يعرفوا جميع البيوت وجميع الناس، ليدلوا الدولة على المستور من الثروات والنيات، وسأجعل من سلطة الشرطة جيشًا يمزق الشراذم الباغية على الأمن والنظام، وهل يهدِّد الأمن والنظام بمثل الإصرار البغيض على احتكار الأقوات ؟

لن أنتظر حتى ينتفع الناس بوعظ الواعظين، وإرشاد المرشدين، فقد ظهر أن فى الدنيا قلوبًا لا يقوّمها وعظٌ ولا إرشاد . لن أنتظر غير حكم العدل، والعدل يوجب أن يعرف وزير الداخلية حقيقة الثروة المدفونة فى زوايا البيوت، بيوت الأغنياء والفقراء، فأنا أخشى أن تكون هذه الأيام قضت بأن يكون فى الفقر تزوير وافتعال « ولم يكن المصريون كذلك فى الأيام الخالية، فقد كانوا يسترون الفقر عن الأقربين قبل الأبعدين » .

إن توليت وزارة الداخلية - ويجب أن أتولاها - فسأحرم العمد نعمة الثرثرة فوق المصاطب، وسأحولهم إلى جنود نافعين، فأولئك أقوام يعلمون من أمور بلادهم كل شيء، ولكنهم يكتمون ما يعلمون، فإن طووا عنى ما يجب أن أعرف فسأقضى فيهم بالعدل، وهم يفهمون جيدًا خطر العدل .

أليس من العار أن يصبح التموين مشكلة من المشكلات فى مثل هذه البلاد ؟

وكيف تكون الحال لو شاءت المقادير أن نطالب بتموين مئات الألوف من الجنود يوم يدعو الداعى إلى الجهاد ؟

اللعب فى أمثال هذه الأيام لا يليق، ومن اللعب القبيخ أن يكنز ناس ما يملكون من أصول الأقوات لينتفعوا بالربح الحرام على حساب الشعب المهدد بالجوع .

وأنا مع هذا أعرف ما تصير إليه سمعتى يوم أتولى وزارة الداخلية، فسيقول السفهاء من الناس إنى خليفة الحجاج، وسيتخذون من شراستى دليلاً على أن المواهب الأدبية تنطوى على جحيم من الطغيان المكبوت .

وما خوفى من القال والقيل وأنا فى غنًى عن رضا الناس، ولن أتقدم يومًا لخوض معركة انتخابية ؟

إن رجال الأقلام هم أصلح الرجال لسياسة الدولة فى السنين العجاف . وهل يشقى أحدٌ فى سبيل الأمة كما نشقى ؟ وهل يعرف أحدٌ من متاعب الأمة بعض ما نعرف ؟

الوزراء فى الأمم الدستورية لا يقدرون على الحزم إلا فى أندر الأحيان، لأنهم مقيدون بعواطف الناخبين، وفى الناخبين خلائق لا تعطى أصواتها إلا لغاية مطوية، هى السكوت عن آثامها الثقال .

ولن أكون وزيرًا برلمانيًّا يحسب لعواطف الناخبين ألف حساب قبل أن يُقدِم على إعزاز شريعة العدل .

سأكون بإذن الله وزيرًا يختار لغرض واضح صريح : هو القضاء على البغى والفساد، وزجر من يحرمون الشعب من الأقوات .

وقد فكرت فى مصير البرلمان الحاضر، وهو برلمان طال حوله الخلاف، ثم صح الرأى على السكوت عن هذه المعضلة الدستورية إلى حين، فما يتسع وقتى للنظر فى شئون تضر أكثر مما تنفع . وهل تحتاج الأمة إلى برلمان إلا حين يعوزها الحاكم الرشيد ؟ - « إنما أُسأل أمام ضميرى لا أمام البرلمان » .

سأفاضل بين الأحزاب على أساس غير الأساس المعروف، فلن تكون هناك أغلبية وأقلية، وإنما يكون التفاضل بقدرة هذا الحزب أو ذاك على توفير أسباب الرخاء .

لن يقول النحاس باشا : « أنا أول من أنذر بأزمة التموين » فسأسوقه سوقًا إلى الطواف بالبلاد لدعوة أنصاره إلى الإفراج عن القوت المحبوس .

ولن يقول الدكتور ماهر باشا : « أنا أول من تأهب للحرب » ؛ فسأجره جرًّا إلى ميدان جديد هو حرب الغلاء !

سأغيّر من أخلاق الناس، إن دُعيت إلى ولاية الحكم فى هذه الأيام، وليس ذلك بالأمر البعيد، فقد جُرِّبتْ جميع القُوى السياسية، ولم يبق إلا تجربة القوة الأدبية، وهى أقوى من الزمان .

أما بعد فهذا حُلمٌ من أحلام العام الجديد، ولكل عام أحلام هو لفتة روحية ستؤتى ثمارها بعد حين، فمن الشر الموبق أن يحال بين رجال القلم وما يشتهون من إقرار العدل، وما كانوا فى الحاضر والماضى إلا موازين .

دعوْناكم ألف مرة إلى الاعتراف بالسلطة الأدبية فلم تسمعوا ، ونهيناكم ألف مرة عن تناسى السلطة الأدبية فلم تنتهوا . فهل جازيناكم صدًّا بصد، وإغضاءً بإغضاء ؟

لا، والله، وإنما مضينا على السجية الكريمة، فأوقدنا فى صدر الأمة جذوة الشوق إلى التماسك والتساند والتآخى، فما كان فى الأمة من خير فهو من صُنع أقلامنا، وما كان فى الأمة من شر فهو من جناية الراغبين فى السيطرة والاستعلاء .

لن تصلُح الأمور إلا يوم تصبح المقاليد بأيدى رجال القلم البليغ ومن قال بغير ذلك فهو بقية من بقايا الطغيان البغيض .

أتريدون الدليل ؟

نحن نبخل بالحكم لقطعة شعرية أو نثرية حين نراها بعيدة عن الجهد المستطاب، مع أن الحكم لقطعة شعرية أو نثرية لا يقدم ولا يؤخر فى سياسة البلاد* .

وأنتم تُضفون الألقاب السنية على من تحبون بغير حساب، وقد تُسندون بعض المناصب إلى من لا يُزكّيه غير رضاكم عن أسلوبه فى حفلات الاستقبال .

الأدباء هم أقدر الرجال فى مصر على عصيان الأهواء .

ألا ترون كيف نحارب منافعنا فى سبيل النزاهة الأدبية ؟

نحن نصاول الأحزاب والهيئات فى كل يوم لنرفع قدر الفكر والرأى، ونرحب بجميع المتاعب فى سبيل تلك الغاية العالية، فأين من يصنع بعض الذى نصنع ؟ وأين الذى يعانى فى سبيل المبادئ السامية بعض ما نعانى ؟

لو سخرنا أقلامنا فى سبيل الغايات الوقتية لسددنا الطريق فى وجوه الكثير من طلاب النفع الموقوت، وهم أعمدة المجتمع فيما يتوهمون .

إلى أقلامنا يرجع الرأى فى سياسة هذه البلاد، وإن بعُدنا صوريًا عن المناصب الوزارية والبرلمانية ... لكل وطن روح، وروح هذا الوطن هو رسالة القلم البليغ .

* * *

---

* يطيب لى أن يعاد نشر هذا المقال الذى نشر من قبل ؛ وذلك لكلمة حق وصدق قالها زكى مبارك فى المقال :

إن رجال القلم هم أصلح الناس لسياسة الدولة .

وقوله أيضا :

نحن نبخل بالحكم لقطعة شعرية أو نثرية حين نراها بعيدة عن الجهد المستطاب ، مع أن الحكم لقطعة شعرية أو نثرية لا يقدم ولا يؤخر فى سياسة البلاد .

عندما يوافينى الموت(*)

للدكتور زكى مبارك

كلنا يحذر الموت ويخشاه، وكلنا يندب الميت ويبكيه، أما من شبع من الدنيا وارتوى من حلوها ومرها، وأدى واجبه وبلغ رسالته، فإنه يقبل على الموت فرحًا مغتبطًا، راغبًا مشغوفا، كما سوف يقبل عليه الدكتور زكى مبارك، بعد عمر طويل عريض - أن شاء اللّه - على رأى ابن سينا..

هذا موضوع مزعج ولكنه طريف، والموت نفسه طريف لاننا لا نراه إلا مرة واحدة، نحن الشجعان، أما الجبناء فيرونه فى كل يوم مرات !

ونحب فى مطلع هذا البحث أن نؤكد للقراء أن الموت أهون مما يظنون، فإن الذين يعانون سكرات الموت لا يتألمون، كما نتوهم، وانما تأخذهم غيبوبة عميقة لا يشعرون فيها بطعم الموت، وان ظن من يحيطون بهم أنهم يقاسون أعظم أهوال العذاب، ومن شك فى ذلك فليجرب.

وما بعد الموت ؟ هو أيضًا أهون مما تظنون، لأن اللّه أعظم من أن ينصب الموازين لمن ترون من المخلوقات، ومن أنتم يا بنى آدم حتى ينصب لكم ميزان ؟ من أنتم وقد عجزتم عن اقامة العدل فشهدتم على أنفسكم بالضياع ؟ من أنتم حتى تفتح لكم أبواب الجنة أو أبواب الجحيم ؟ لقد عرفناكم وعتبنا على اللّه يوم جعلنا منكم، وليته يتفضل، فيذهبكم ويأتى بخلق جديد !

ماذا أقول يوم يوافينى الموت ؟ أتروننى أخشع وأضرع وأضعف على نحو ما وقع للشاعر المسكين الذى خاطب صاحبيه، فقال :

فيا صاحبى رحلى دنا الموت فاحفرا ... ترائبه إنى مقيم لياليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعى ... وردا على عينى فضل ردائيا
ولا تحسدانى بارك اللّه فيكما ... من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذانى فجرانى ببردى إليكما ... فقد كنت قبل اليوم صعبًا قياديا

اتروننى أستوحش من الغربة فأقول كما قال هدبة العذرى :

(*) مجلة الهلال بتاريخ ١٩٣٦/١٢/١ .

ألا عللانى قبل نوح النوائح ... وقبل اطلاع النفس بين الجوانح
وقبل غد يا لهف نفسى على غد ... إذا راح أصحابى ولست برائح
إذا راح أصحابى تفيض دموعهم ... وغودرت فى لحد على صفائحى
يقولون هل أصلحتمو لأخيكمو ... وما القبر فى الأرض الفضاء بصالح

لن أقول شيئًا من ذلك، لأن الناس أهون من أن أشعر بعدهم بوحشة الاغتراب. وهل أنست بهم وأنا أغاديهم فى كل صباح، وأراوحهم فى كل مساء ؟!

كنت أجد للدنيا طعما قبل عشر سنين، يوم كان لى أصدقاء وأحباب، ثم مرت أحداث تبينت فيها أن بنى آدم لا يرعون العهد، ولا يحفظون الجميل، وأصبحت وأنا موقن أنى أعيش فى مسبغة لا ألفة فيها ولا صفاء.. ولعل اللّه عز شأنه أراد بى خيرًا - وما أحسبه يريد إلا الخير - لعله أراد بى خيرًا فأرانى مصارع ما أحب من المعانى، حتى لا يبقى لى يوم الموت شىء أبكيه، ولماذا نبكى ؟ لقد استرحنا من عتاب الاصدقاء، وأين الأصدقاء ؟!

ماذا أقول حين يوافينى الموت ؟

سأذكر اننى أديت واجبًا مهما حين حذرت الناس من الناس، فأنا من أكثر الكتاب حديثا عما يعتور بنى آدم من الغدر والعقوق، وسيذكر الناس ما كتبت وما نظمت، فإن لم يقرأوا رسائلى وأشعارى فلأمهاتهم الثكل، ولأبنائهم اليتم، ولأزواجهم الأرمال !!

وسأذكر يوم أموت انى كنت غصة فى حلوق الأدعياء، فما تركت دعيًا إلا كويت جبينه، وأقذيت عينيه، وأنمته على الشوك فى رعاية الافاعى والصلال.

وسأذكر يوم أموت اننى كنت أوفى صاحب وأكرم صديق، فما جاملنى إنسان إلا سقيته الشهد، وظللته بسحائب العطف، وأغدقت عليه نمير البر والحنان.

إى واللّه. سأذكر اننى كنت أوفى صاحب وأكرم صديق، وستموت يوم أموت شمائل من المروءة لم يعرفها أهل هذه الأرض، أنا الرجل الذى أعرف صاحبى فى النعيم والبؤس، والمحضر والمغيب، أنا الرجل الذى أعرف معنى الصدق، وأفهم معنى الوفاء، وأجزم بان اللّه خلقنى خلقة نقية لا نظير لها ولا مثيل.. فإن كان لى ما أبكى عليه يوم وفاتى فهو ذلك المعنى، سأذكر أن الدنيا كان فيها رجل واحد يشقى ليسعد الصديق، ويموت ليحيا الصديق.

سأذكر ما بقى من أحبابى فى المشرق والمغرب، وسأهدى إليهم عند النزع آخر ما أملك من التحيات، ولن يكون لى يومئذ ما آسى عليه إلا انقطاع المقت الذى أصبه على

الأعداء، ولكن هل يأمن الأعداء شرى بعد أن أموت ؟ هيهات، لقد خلدت تحقيرهم فى صحائف لن تموت.

أنا أموت ؟ انكم مخطئون !

لن يذهب من الوجود غير هذا الهيكل الذى يذرع الأرض من سنتريس إلى باريس، أما زكى مبارك الكاتب والشاعر فلن يذهب أبدًا، ستبقى أفكارى لتعين الشيطان على إضلال الناس.

سأعيش ألوفا من السنين، وسأغزو خلق الله بغير رفق، فأثير فيهم معانى الشر والاثم والطغيان، ففى رسائلى وأشعارى ومؤلفاتى أقباس من الضلال هى وحدها خليقة بأن تغمس هذا العالم فى أوحال الرجس، تلقيه فوق أشواك الارتياب.

فإن ارتاح انسان يوم الموت لأنه كان رجل خير، فسأرتاح لأننى كنت رجل شر، وما يسرنى أن أكون ملكا، لأن الملائكة لطاف ظراف، وإنما يسرنى أن أكون شيطانا، لأن للشياطين وجوها بشعة ترتعد منها الفرائص وتنخلع القلوب.

ومن يدريكم ؟ لعلى أجد « وظيفة » فى جهنم بعد أن أموت، أتظنون أن الأمر استقر فى دار العذاب ؟ سأجعل هذا من همى فأبحث عن « وظيفة » عند الرجل الشهم الذى اسمه مالك، ولن أفكر فى صحبة الرجل الظريف الذى اسمه رضوان.

فإن وصلت إلى « وظيفة » فى جهنم فسترون وستعلمون. سترون يا بنى آدم كيف أكبكم على وجوهكم فى النار، وكيف أعاقب اللصوص فى عالم الشعر والنثر والتأليف، وستعلمون كيف أنتقم من السفهاء الذين يكذبون ويفترون ويظلمون بلا تورع ولا استحياء.

سيمر هذا كله بخاطرى يوم أموت، وأنا لست بالرجل الهين، فلى دلال على الله، لأنى أقرب إليه من جميع الناس بعد الأنبياء، فإن كنتم فى ريب من ذلك فتذكروا أن ناسًا حلا لهم أن أذوق البؤس، فنصرنى الله عليهم، وكتب لى سعادة العيش، وهم راغمون.

سيكون طريقى إلى جهنم بإذن الله، وسأقيم هناك محكمة أؤدب بها من فاتنى تأديبهم فى هذه الدار، وسأصدر هناك الطبعة العاشرة من كتاب « أكواب الشهد والعلقم » لأنى لن أصدر منه فى هذه الأرض غير تسع طبعات.

ثم ماذا ؟ .. سأذكر حين أموت أننى كنت من أكرم خلق الله فى رعاية الجمال !

وسأذكر ان الله اصطفانى لهذه الرسالة الروحية حتى صح لى أن أقول :

وكم حبيب براح الريق أسكرنى   وكم جميل بورد الخد حيانى

سأذكر أننى كنت أصدق شاعرساير نهر النيل، ونهر السين، وهل اتفق لشاعر قبلى أن يقضى فى صحبة نهر السين ألف ليلة ؟ إن ميسيه نفسه لم يصنع ما صنعت، ولامرتين لم ينعم برحيق السين كما نعمت . لقد كان السفهاء يظنون أنى أقضى الليالى على شاطئ السين لأفر من تكاليف المراقص والملاعب، وفاتهم أن صحبتى لنهر السين كانت صحبة وجدانية تركت فى فؤاد ذلك النهر أعنف الأشواق إلى فتى سنتريس .

سأذكر يوم أموت اننى كنت شاعر الحب والجمال، وأننى عبدت اللّه أصدق العبادة، فقد أثنيت مخلصًا على ما صنع وما أبدع حين جعل الدنيا غرائب وعجائب من الصنع البديع.

وإن كان لى ما آسى عليه فهو الحزن الموجع على أن لم يتلطف اللّه فيجعل الدنيا كلها شارعا واحدًا اسمه « بولفار سان ميشيل » إى واللّه سأتحسر وأتوجع على مصير بنى آدم الذين كتب عليهم أن يمشوا فى شوارع لا تقع فيها العين على وجه أصبح، ولا قوام رشيق .

سآسى عليكم يا بنى آدم حين أموت، فقد كان فى نيتى أن أسعى لتحقيق فكرة السوبرمان لتعيشوا فى دنياكم عيشة شعرية، ولكن ماذا أصنع ؟ لقد أراد اللّه أن يكون فى الدنيا قبح ولؤم وشح وإسفاف، وأنا كما تعلمون لا أملك فسحة الأجل ولا طول البقاء .

سأتحسر يوم أموت على ضياع هذه الثروة الشعرية التى تمرح فى قلبى ووجدانى، ولن يكون لى إلا عزاء واحد : هو أن اللّه شاء أن يحرم العالم من رجل كله قلب ووجدان، لأن العالم لا يستحق أن يحيا فيه قلب مثل قلبى، ولا يستأهل أن يعيش فيه رجل يملك ما أملك من عظمة النفس وقوة الروح ... والعالم بعدى هباء فى هباء .

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

أترونني أبكى على أطفالى ؟ هيهات ! لقد ورثتهم خير ميراث حين ربيتهم على العنف والقسوة، وحين أفهمتهم أن العالم لا يسعد فيه غير الأقوياء، فإن تسلحوا بالقوة فقد انتفعوا بما ورثتهم، وإن استسلموا للضعف فعليهم ألف لعنة، وانا منهم برىء.

وقد عودت أطفالى أكل اللحم فى كل يوم لينشأوا على قسوة الحيوان المفترس، فإن لانت نفوسهم بعد ذلك فعلى أنفسهم جنوا، وللضعيف الضيم والهوان .

وقد نشأت فى قوم أقوياء، وكان أبى أشجع رجل رأته عينى، وكان أجدادى وأعمامى من نماذج القوة والبطش، ولم يكن فيهم رجل مظلوم، وإنما كانوا دائمًا ظالمين،

فإن شاء أبنائى أن يكونوا لأبيهم وأجدادهم وأعمامهم، فالدنيا أمامهم واسعة الأرجاء، وإن ضعفوا فليذهبوا غير مأسوف عليهم ... وفيهم بحمد اللّه فتيان يقرأون هذا الكلام، فليعرفوا أن أباهم عاش عزيز الجانب لأنه كان قوى النفس، وليتذكروا أن اباهم لن يموت يوم يموت إلا وهو اشجع الرجال .

أما بعد فسأذكر يوم أموت حقيقتين : الأولى أن الموت مظهر العدل، لأن الناس جميعًا يموتون، وسيستوى الحظ بينى وبين الرجل الظريف الذى كان يركب معى (المترو) وفى ثوبه وردة حمراء، ثم دارت الدنيا فصارت سيارته تخطف بصرى وأنا على قدمى فى الطريق .

والحقيقة الثانية أهم وأعظم، فسأستطيع الافصاح عما لم أستطع الإفصاح عنه فى مجلة الهلال وجريدة البلاغ، سيرفع الحجاب بينى وبين اللّه، وسأسأله بلا تهيب : كيف رضى أن يخلق بعض من خلق فى هذا الوجود ؟ . متى أراك يا رب الأرباب، ليطول بينى وبينك الحساب ؟

أأنت الذى جعل هذه الدنيا وردًا سائغًا للكاذبين والخاتلين ؟ أأنت الذى قضى بأن يكون فى الدنيا شح ولؤم وغدر وعقوق ؟

أخشى أن تغلبنى فى الجدال واللجاج، ولكن يعزينى أنه لم يغلبنى أحد غيرك، وأنا رجل كريم لا يسوءنى أن ينتصر من أحب، وإليك الثناء من أشرف من خلقت .

* * *

الدكتور زكى مبارك .. فى ذمة اللّه ![*]

قضى اليوم المرحوم زكى مبارك فانهار بقضاء اللّه فيه ركن من أركان العلم والفضل والأدب .

قضى الأديب الكاتب وهو فى ميعة الصبا وشرخ الشباب ، مأسوفًا عليه من الخصوم والأصدقاء على السواء .. أستغفر اللّه فإن أديبنا العظيم لم يكن له خصوم فى هذه الدنيا، وأكبر الظن لن يكون له خصوم فى دار البقاء !

قضى درة مصره وأطروفة عصره ، وقد خلف ميدان الأدب يتيمًا ، ينعى علمه الذى أقامه وبناه ، وشيعه الأدباء . وقد أصبحوا من بعده ثكالى أو كالثكالى وفطر قلبنا بكاء الأستاذ أحمد أمين بك الذى تربطه بالفقيد أوثق روابط الود ؟! فإن زكى مبارك وظف قلمه الرقيق فى الدعوة لزميله وتقريظ مؤلفاته وذكره بالخير فى كل مكان .. وكذلك هزت عواطفنا تعليقات الدكتور طه حسين بك على هذه الوفاة ، فإن الفقيد الكبير كان صديقًا بارًا به لم يسىء إليه مرة أو يهون من مكانه بين العلماء . وكانت « شهقات » الأستاذ عباس محمود العقاد تثير الأسى فى نفوس المشيعين ، والعقاد قليل الحزن قليل البكاء ولكنه بكى وأبكانا معه على الفقيد الذى منحه العقاد احترامه الشديد وسماه كاتب الشرق وخلع عليه عمادة الأدب العربى القديم والحديث ! كان الدكتور زكى مبارك أديبًا متواضعًا جدًا .. لا يتحدث عن نفسه ! ويأبى على الصحف أن تذيع إسمه مهما تكن المناسبات ؟.. وكان يكره الألقاب العلمية كراهية التحريم وقد أصدر عدة كتب فى الأدب والاجتماع وأغفل اسمه من أغلفتها ومن بواطنها .. ولولا تلاميذه ومريدوه لأسقط التاريخ اسمه الكبير ؟

لقد عرضت إحدى دور النشر على الفقيد ـ مقابل مبلغ كبير ـ أن تصدر كتابًا له بصورته الجميلة فأبى لأنه كان يكره أى لون من ألوان الدعاية ! مع أن صورته عند القارئ الفطن أعز من الكتاب ..

كان رحمه اللّه ، فتى غض الأهاب ، إذا نظرت إليه أخذك الوجه النضر ، وجذبتك العينان الساحرتان ، وهزت قلبك الابتسامة الرقيقة وصرعك الدر المنفرجة عنه .. وحسبنا اللّه ونعم الوكيل فى شعره المجعد المصفف الذى أخفاه طربوشه المصغى إلى الشمال قليلا ؟!

---

[*] مجلة الاثنين والدنيا بتاريخ ١٩٤٥/٤/٢ .

ولم يكن صديقنا يؤثر فى الشباب بأدبه فحسب ، بل كانوا يأخذون عنه أساليب الأناقة فيتأثرونه فى اختيار رباط الرقبة . وينهجون نهجه فى تفصيل الثياب المحبوكة وتخير ألوانها !!

ويعجبون بأحذيته المثالية فينتعلون مثلما ينتعل ، ويعتبرونه أسوة صالحة إذا ما تحدث أو أكل ؟!

كان الفقيد العزيز شديد الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ، يكره الخمر ولا يتذوقها ويكره (البيرة) خاصة ! وكان يمضى نهاره كله وسط أسرته وأولاده فلا يرتاد ناديًا أو يقعد فى قهوة ، وكان ينام مع الطير ويستيقظ معها فيسبح بحمد الله حتى يحين موعد عمله ..

وكان مفتشًا فى وزارة المعارف يحبه المدرسون حبًا جمًا ، وكان كريمًا سخيًا ينافس حاتمًا فى كرمه وسخائه ، محسنًا بعيد الصيت مسرفًا فى إحسانه لا تعرف يده اليسرى ما أعطت اليمنى ؟! ..

وكان يقلد السيد جمال الدين الأفغانى ، يتكلم فى حذر ، مقل إذًا حاضر أو ناقش وهو عيب الفقيد الوحيد فى حياته لأنه حرم جيله حلو لسانه وعف ألفاظه ورقة بيانه ..

* * *

نرثيه والقلم يرتعش فى أيدينا ... ونذكره والخوف يملأ قلوبنا ... فانا نخشى أن نكون قد اسأنا الرثاء ، ولابد يومًا من لقاء فى دار البقاء ... ؟؟!

طبق الأصل　　　　　　إبراهيم عبده

الدكتور زكى مبارك لن يموت!(*)

قرأت الدعابة الطريفة التى نشرها الدكتور إبراهيم عبده فى العدد الممتاز من مجلة الأثنين الصادر فى « أول أبريل » فتذكرت أشياء وقعت فى « الاباريل » الماضية ، أشياء كانت أجمل ما وقع فى حياتى ، وهى أسرار مجدى فى حياتى .

ففى شهر ابريل من سنة ١٩٢٤ . تقرر قبول الرسالة التى قدمتها للظفر بالدكتوراه فى الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة ، وكانت نتيجة المناقشة العلنية بعد ذلك درجة «جيد جدًا» .

وفى اليوم الخامس والعشرين من ابريل سنة ١٩٣١ ظفرت بالدكتوراه فى الآداب من جامعة باريس بعد مناقشة علنية دامت ثلاث ساعات بدرجة « مشرفة جدًا » .

(*) ٩ / ٤ / ١٩٤٥ مجلة الهلال .

لما نعينا الدكتور زكى مبارك

قرأ النعى أثنان من ضاحية مصر الجديدة والتقيا بالدكتور زكى مبارك فى المترو وكان ذلك بعد منتصف ليلة الأحد الماضى وبهتا لوجوده فتراهنا فيما بينهما ، وتقدما إليه يستوضحانه الخبر فكسب أحدهما الرهان و لم يفكر أحدهما أن أول ابريل سيطلع فى الصباح !

* قال الأستاذ عباس العقاد لو تقدم نعى زكى مبارك أسبوعًا لصدقناه مع ما فى النعى من دعابة مرة ، وياليته تقدم أسبوعًا !! وقد كتب الدكتور زكى مبارك قبل نعيه بيومين مقالا حمل فيه حملة شديدة على الاستاذ العقاد فى إحدى الصحف الأسبوعية .

قال أديب كبير رفض أن نذيع اسمه إن رثاء الدكتور زكى مبارك كان من « قفاه » أى أنه صورة فى المرآة ولكنها مقلوبة !

* لما كان دفتر التلفون الجديد ليس فيه عناوين المشتركين فقد اتصل كثيرون بمنزل « الفقيد » ليعرفوا العنوان بالضبط وليستوضحوا موعد الجنازة ، وكان الدكتور زكى مبارك يرد عليهم ويذكر هم بأنهم فى أول ابريل .

* حضر من سنتريس (وهى قرية الدكتور) كثيرون من أقاربه منزعجين لهذه الوفاة المفاجئة التى لم تكن لها مقدمات فى شهر مارس .

* تلقى الدكتور زكى مبارك ٢٧ برقية عزاء فى الدكتور زكى مبارك ؟!

* ذهب الدكتور زكى لألقاء محاضراته فى معهد التمثيل بعد ظهر أول ابريل فوجد طلبته مجتمعين وبينهم خطيب يؤبن الفقيد العظيم فلما ظهر فى وسطهم قال لهم لقد أتيتكم من جهنم حيث تطيب الحياة لأمثالكم وكل سنة وأنتم طيبون فى أول ابريل !! ..

* انزعج كبير مفتشى اللغة العربية لما قرأ نعى الدكتور زكى مبارك فلما تبين صحة الدعابة سخط جدًا على السخيف الذى كتبها وكان يظنه شخصية خيالية !

وفى اليوم الرابع من ابريل سنة ١٩٣٧ ظفرت بالدكتوراه فى الفلسفة مع رتبة الشرف فى الجامعة المصرية الجديدة جامعة فؤاد الأول .

وفى اليوم الأول من ابريل سنة ١٩٤٥ نعانى الناعى مداعبا فى مجلة الاثنين ، فكانت قصة اختبر فيها أخلاقى ، ولكن كيف ؟

أن الدعابة قضت بأن يمشى فى جنازتى حضرات الأساتذة أحمد أمين وطه حسين وعباس العقاد .

أنها لدعابة قاسية ، ولكنها مردودة على ذلك المداعب الظريف ، فما يجوز وهما أن يشمت هؤلاء الأساتذة يوم اموت ، فما أنصفهم قلم بمثل ما أنصفهم قلمى.

أنا أشتهى أن يموت هؤلاء الأساتذة قبلى ، لأرثيهم فأقول فيهم ما يجب أن يقال .

أن هؤلاء الأساتذة كانوا البادئين بمخاصمتى ، وضمائرهم تشهد بذلك ولكنى رأيت من الجريمة الوطنية أن أغض من اقدارهم فيضيع على القراء زاد نفيس من ادب هؤلاء الرجال .

هؤلاء اساتذة بالقول والفعل ، أدام اللّه عليهم نعمة العافية ونعمة البيان !

ثم ماذا ؟

ثم تكون كذبة أبريل شاهدا بعظمة ابريل ، ففى هذا الصباح تنزعج روح عالية فتسأل بالتليفون عن موعد تشييع الجنازة ، فيكون المخاطب لصوتها هو صوتى ، ويكون الجواب: لقد خفت أن يغتالنى الموت بغتة وفى النفس حاجات إليك كما هيا وأنا لن أموت قبل أن أظفر بما اريد من تلك الروح .

وما هو الموت ؟ وما هو تكريم الأموات ؟

ان كان الموت ان ينهدم جسمى يوما فهذا سيقع ، وان كان الموت أن آرائى ستموت فذلك أكذوبة من أطرف الأكاذيب ، فآرائى ستسيطر على الناس إلى آخر الزمان .

قد أموت ، فما هى وصيتى إلى ابنائى ؟

وصيتى إليهم أن يتخلقوا بأخلاقى العلمية .

زكى مبارك

أول دكتور فى الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة

وأول دكتور فى الفلسفة من الجامعة المصرية الجديدة

وأول حائز لدبلوم الدراسات العليا من مدرسة اللغات فى باريس.

أثر الحرب الكبرى*

فى الحياة الأدبية والعلمية فى مصر

بقلم زكى مبارك

> « اعتقد ان الحرب الماضية عادت على الأدب والعلم فى مصر باجزل النفع ، فقد ضعف سلطان الجرائد اليومية بسبب غلاء الورق ، واصبح مفهوما عند الجمهور ان الجرائد لا تستطيع نشر الحقائق الصحيحة ، فانصرف الجمهور عنها، وأقبل بشغف على ذخائر العلم والأدب القديم والحديث »

فى سنة ١٩١٤ كنت بين الطلبة الذين يواظبون على محاضرات الادب والتاريخ بالجامعة المصرية وكان مقرها فى ذلك العهد بالقصر الذى صار ملكا للجامعة الامريكية، وهو فى الاصل من قصور اسماعيل ثم اشتراه جناكليس ، وأجره للجامعة المصرية .

وفى مطلع الربيع من تلك السنة وضع الحجر الأساسى لدار الجامعة المصرية بالشاطئ الغربى للنيل ، وكان يوما مشهودًا حضره صاحب السمو الخديو السابق عباس حلمى الثانى وفى معيته الوزراء وأعضاء الجمعية التشريعية وجمهور كبير من أعيان البلاد .

وأذكر جيدًا انى كنت قريبًا من سمو الخديو السابق وهو يضع حجر الأساس ، وهممت بمصافحته ثم تراجعت لهيبة الموقف .

وأذكر أيضًا أن عبد اللّه باشا وهبى كان يكلم الدكتور طه حسين بالفرنسية وبجوارهما المرحوم الشيخ محمد بخيت ، ثم التفت وهبى باشا إلى الشيخ بخيت وقال : «أقدم لفضيلتكم الشيخ طه حسين وهو من نوابغ طلبة الجامعة وسيؤدى امتحان الدكتوراه بعد شهر أو شهرين»

فقال الشيخ بخيت : سمعت كثيرًا من أخبار الشيخ طه وكنت أحب أن أراه !

فقال الدكتور طه : فضيلة الشيخ يعرفنى جيدًا . فقد حضرت عليه جزءًا من شرح الهداية وجزءًا من التفسير « الكشاف » .

وكان الدكتور طه يقول هذا الكلام بنبرات فيها شيء من السخرية ، فأسررت إلى الدكتور طه بعد لحظة أنى أحب أن أعرف سبب سخريته من فضيلة الشيخ بخيت . فقال: بلغنى أنه يستخف بالقيمة الفلسفية لكتاب « الواجب » .

---

* مجلة الهلال ١٩٣٩/١١/١ .

وكتاب الواجب ألفه جول سيمون واشترك فى ترجمته طه حسين ومحمد رمضان ، وكان محمد رمضان من كبار المحامين ومن أقطاب الحزب الوطنى وكانت له مصاولات فى نقد مبادئ الوفد المصرى الذى ألف فى سنة ١٩١٨ برياسة الزعيم سعد زغلول .

وفى تلك الحفلة ألقى المغفور له حسين رشدى باشا خطبة جيدة فى حضرة سمو الخديو السابق ، وألقى الممثل زكى عكاشة قصيدة شوقى :

يا بارك اللّه فى عباس من ملك   وبارك اللّه فى عمات عبــاس

وإنما تحدث شوقى عن عمات عباس : لأن دار الجامعة المصرية وضع أساسها فى أرض واسعة أهديت إلى الجامعة من حضرة صاحبة السمو الأميرة فاطمة هانم اسماعيل مع هدايا كثيرة منها حليها الغالية .

ومن أجل هذا أشار جلالة المغفور له الملك فؤاد ، صاحب الفضل الاكبر على الجامعة المصرية ، أن يكتب على باب كلية الآداب انها هدية الأميرة فاطمة هانم اسماعيل اعترافا بفضلها على الحياة الأدبية .

وفى نهاية الحفلة مضى أساتذة الجامعة وطلبتها لتحية سمو الأميرة ، فوقفت فى بهو قصرها بتلك الضاحية ، ومضينا صفًا صفًا نحييها بأيدينا وقلوبنا على بعد عشرة أمتار أو يزيد .

وكانت الاميرة فاطمة اسماعيل فيما رأيت ذلك اليوم نحيلة القوام ، فارعة الطول ، واضحة الجبين .

وانما نصصت على هذه الشئون لأن لها صلة بهذا المقال سنعرفها بعد قليل .

عجز الجامعة المصرية

لما أعلنت الحرب فى صيف سنة ١٩١٤ شعر الناس بالكرب والضيق ، لأن الحياة الاقتصادية فى مطلع تلك الحرب أصابها كثير من القلق والاضطراب ، ولأن مصير مصر السياسى أحاطت به الشبهات والظنون ، وأذكر أن حياة الناس فى ذلك العهد لم تكن طيبة المذاق بسبب ما كان يصل إلى أسماعهم من منكرات الأقاويل ومزعجات الأراجيف.

يضاف إلى ذلك ان اعلان الحرب تبعته فى مصر مضجرات لم تعرف مثلها مصر بحمد اللّه عند إعلان الحرب فى هذه الأيام ، فقد سيطر الرعب يومئذ على كل مكان ، وشاع فى الناس أن كل فرد معرض للخطر ، وأن هناك آذانا تسترق السمع ، وعيونا ترصد الحركات والسكنات .

وما هى إلا أشهر قلائل حتى واجه الناس خطر الأزمة وخطر الغلاء . وسمعنا أن المقاولين الذين يبنون دار الجامعة المصرية تقدموا إلى المحكمة يطلبون التحلل من العقد بحجة الصعود الفاحش فى أثمان الخشب والحديد .

وبعد مدة قليلة سمعنا أن وزارة الاوقاف امتنعت عن دفع الاعانة السنوية التى كانت تقدمها للجامعة المصرية . فكان من نتائج ذلك أن تخوفت الجامعة من العجز عن دفع ايجار قصر جناكليس ، فأجرت دارًا متواضعة هى قصر الفلكى بميدان الأزهار ، وهو القصر الذى ظلت فيه إلى أن استولت عليها الحكومة فى سنة ١٩٢٥ ونقلتها إلى قصر الزعفران .

واطرد العجز فى ميزانية الجامعة فاستغنت عن الاساتذة المستشرقين ، وخفضت مكافآت الاساتذة المصريين ، وبلغ بها الضيق ما بلغ فاسترجعت أعضاء البعثات فى سبتمبر سنة ١٩١٥ .

كان انتقال الجامعة من قصر جناكليس إلى قصر الفلكى نذيرًا بزعزعة مركزها المالى وهيبتها الأدبية ، ولن أنسى ما حييت كيف انخلع قلبى من الجزع حين مضيت لشهود محاضرات المساء ، فرأيت دار الجامعة مظلمة الأرجاء ، ولم أهتد إلى دارها الجديدة إلا بعد عناء .

أما رجوع أعضاء البعثات فكان شاهدًا على أن الجامعة قد دحرتها صدمة الحرب ، ولكن اللّه وفق المغفور له السلطان حسين فأمد الجامعة بمعونة مالية سمحت برجوع أعضاء البعثات إلى أوربا فى ديسمبر سنة ١٩١٥ .

حادث أدبى جديد

وفى خريف سنة ١٩١٥ ظهر فى مصر حادث أدبى كان له شأن فى توجيه العقول والاذواق ، وهو إنشاء جريدة السفور ، وهى جريدة أسبوعية كانت تباع بمليمين أو ثلاثة مليمات . وكانت لرخص ثمنها وصدورها فى مواعيد قريبة أقرب إلى الشبان من المجلات الشهرية التى لم تنقطع عن الصدور بسبب الحرب من أمثال الهلال والمقتطف .

كانت جريدة السفور شركة ساهم فى تكوينها جماعة من الكتاب هم الأساتذة عبد الحميد حمدى ومحمد حسين هيكل ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى وطه حسين . وكانوا ينشرون فيها آراءهم بحرية وصراحة ، فمال إليهم الشبان كل الميل ، وأقبلوا على الجريدة إقبال الشوق والإعجاب .

وقد ابتدأت الحياة الادبية فى تلك الجريدة بنضال أدبى بين الدكتور طه والدكتور هيكل ، وكان موضوع النضال هو فكرة الحرب ، فكان الدكتور طه يرى أن الحرب تنفع الإنسانية ، وكان الدكتور هيكل يرى أن الحرب تضر الإنسانية .

وكان الدكتور منصور فهمى فى ذلك الوقت مشهورًا بالجرأة والتطرف . وكان الناس ينظرون إلى آرائه بحذر وارتياب . فقد كان أبعد عن التدريس بالجامعة المصرية لعبارات وردت فى الرسالة التى كان قد قدمها إلى السوربون عن المرأة فى الإسلام ، وتلك الرسالة كتبت بالفرنسية ، ولم يعرف الجمهور المصرى شيئًا عن محتوياتها إلا بفضل التقرير الذى أرسله أحمد فهمى العمروسى بك مدير البعثة المصرية وقتئذ فى باريس . وقد ظلت تلك الرسالة موضوع جدل ونقاش فى الصحف المصرية زمنًا غير قليل .

وأقول ان هذه الحادثة جعلت الشبان ينظرون إلى مقالات الدكتور منصور فهمى بعين الحذر والتخوف ، فكانت كل كلمة لها عندهم تفاسير وتآويل ، وذلك يقدم إلى الذهن ألوانا من الوقود .

كان الدكتور منصور فى ذلك الحين يكتب أخبار طفولته وصباه بأسلوب جذاب ، وكان يدعو بطريقة قصصية إلى أن يكون الأمر للنساء فى التعليم بالمدارس الأولية ، وكان من وقت إلى وقت يكتب ما يسميه الحقائق والفروض ، وهى رسائل كان يكثر حولها القيل والقال .

وكان من كتاب جريدة السفور كاتب اسمه (م) وهو كاتب خفيف الظل ، عذب الروح ، كانت له جولات رشيقة فى ميدان الوجدانيات ، وكان مع ذلك يتعرض للمعضلات الدينية من حين إلى حين ، كالذى كتب عن الحوادث التى قيل إنها وقعت ليلة ميلاد الرسول .

من هو الكاتب (م) الذى شغل قراء جريدة السفور أيام الحرب ؟

هو الاستاذ مصطفى بك عبد الرازق الذى كان يكتب بعد الحرب « مذكرات مسافر» و« مذكرات مقيم » .

وكان فى جريدة السفور مقالات جيدة بامضاء « الصاحبان » لها صلة بالمشكلات القومية والاجتماعية .

فمن هما « الصاحبان » ؟ هما منصور فهمى ومصطفى عبد الرازق .

وكان فى السفور رسائل تصل من باريس بعنوان « هو وهى » وكان لتلك الرسائل سحر وجاذبية . وكانت بامضاء (ض) .

فمن هو (ض) ؟ هو الدكتور أحمد ضيف عضو بعثة الجامعة المصرية فى ذلك العهد ، وهو اليوم وكيل دار العلوم.

الصحف الأدبية الاسبوعية

وفى أيام الحرب ظهرت جريدة الثمرات للاستاذ حسن السندوبى ، وهى جريدة أسبوعية غلب عليها الاهتمام بالنقد الأدبى ، وقد نشر فيها السندوبى مقالات عنيفة فى نقد الشرح الذى كتبه المرحوم الشيخ شريف للجزء الأول من ديوان ابن الرومى .

وكانت جريدة الصاعقة مسموعة الصوت فى أيام الحرب ، وكان فيها صور كثيرة للمجتمعات الادبية ، وكان لصاحبها المرحوم أحمد فؤاد قلم لذاع يصوبه إلى صدور من يغضب عليهم من الأدباء والأعيان .

ومن الجرائد الأدبية التى ذاعت فى ذلك الوقت جريدة عكاظ ، وكانت تهتم بنشر أشعار شوقى فى منفاه ، وتحرص على مقارعة خصومه من أمثال المازنى والعقاد .

كان صاحب عكاظ هو المرحوم الشيخ فهيم قنديل . وكان كاتبًا جيد الديباجة قوى الأسلوب ، ولكن تحرشه بالناس لاسباب متصلة بالمنافع رفع هيبته من الصدور فلم يذكره أحد بالخير بعد الموت .

وأعتقد أن جريدة عكاظ كان لها يد فى تنشيط الحركة الأدبية أيام الحرب ، وبفضلها عرف الشبان قيمة شوقى وهو فى منفاه ، فهل رثاه شوقى ؟!

الثالـــوث

وفى أيام الحرب نشط الشعراء المجددون نشاطًا عظيمًا ، وهم « الثالوث » على حد تعبير الجرائد الهزلية فى ذلك الحين .

فمن هم « الثالوث » ؟

هم عبد الرحمن شكرى ، وابراهيم المازنى ، وعباس العقاد .

وأظن أن هؤلاء الشعراء هم الذين ابتكروا فكرة المقدمات التحليلية للدواوين الشعرية، ولعلهم أول من سمى الدواوين بأسماء مختلفات .

وكان لهذا الثالوث ضجيج عنيف ، فالأستاذ عبد القادر المازنى شغل الناس فى تلك الأيام بكتاب نشره فى نقد أشعار حافظ ابراهيم ، والاستاذ العقاد كان يتهيأ لنقد أشعار أحمد شوقى .

ثم دب الخلاف إلى هذا الثالوث فقرأنا فى جريدة عكاظ نقدًا لأشعار عبد الرحمن شكرى بامضاء «ص» وقرأنا ردودًا دسمة جدًا على ذلك النقد بامضاء « ش » وكان فى تلك الردود تزييف لآراء العقاد ، فقد كان «ش» يرى أن «ص» لا ينشر إلا ما يمليه عليه العقاد .

أما «ص» فهو الاستاذ عبد الرحمن صدقى ، وأما «ش» فهو الاستاذ عبد الرحمن شكرى ولتحديد أسباب الخلاف بين أعضاء الثالوث أذكر أنها ترجع إلى مقال نشره الاستاذ المازنى فى جريدة الافكار تقريظًا لديوان الاستاذ عبد الرحمن شكرى . وقد جاء فى ذلك التقريظ أن عبد الرحمن شكرى رجل عبقرى ، وأنه كسائر العبقريين لا يخلو من الوساوس ولا يسلم من الشذوذ ، فغضب عبد الرحمن شكرى من هذا الكلام وعده وسيلة إلى التشكيك فى صلاحيته للاشتغال بالتعليم فى وزارة المعارف .

وكذلك انبرى للرد على الاستاذ المازنى بمقالات نشرها فى جريدة الافكار ، ثم تدخل الاستاذ العقاد فكتب مقالا يصلح به بين الصديقين ، ولكن ذلك المقال وقع من الاستاذ شكرى أسوأ موقع ، لأنه حسبه تأييدًا لكلام الاستاذ المازنى ، وإن كان فى جوهره لم يتعد الهجوم على أنصار القديم الذين شمتوا فى تشتت أعضاء الثالوث من أنصار الجديد .

فإن قرأتم فى جريدة عكاظ أبحاثًا أدبية يقول كاتبها إن المازنى سرق أكثر معانيه من الشريف الرضى فاعرفوا أن شكرى له يد فى تحرير صحيفة الاتهام لصديقه القديم .

أما المازنى والعقاد فقد بقيا صديقين إلى ما بعد الحرب وقد اشتركا فى اصدار «الديوان» وهو نشرة دورية فى شكل كتاب أرادا به هدم المنفلوطى وشوقى .

ومن طريف ما رأيت أن المازنى والعقاد كانا بعد الحرب يكتبان فى جريدتين متعاديتين أشد العداء ، ومع ذلك كانا يلتقيان فى كل صباح ، فهل كانا يتفقان على خطة التراشق بالألفاظ الجوارح ؟!

ثم فسد ما بين المازنى والعقاد لأسباب سياسية تبعد بعض البعد عن موضوع هذا الحديث .

* * *

أشهر الكتاب والمؤلفين

إلى هنا وضحت صورة الحياة الادبية فى أيام الحرب الماضية .

فمن هم أشهر الكتاب والشعراء والمؤلفين فى تلك العهود ؟

الكاتب الاشهر فى أيام الحرب الماضية هو مصطفى لطفى المنفلوطى فقد وصلت « نظراته » إلى أكثر الشبان فى البلاد العربية ، وأذكر أن الدكتور هيكل كتب كلمة فى جريدة السفور يقول فيها إن العام الفائت لم يشهد من النضال الادبى غير التحرش بمترجم رواية « ما جدولين » .

وكان من مشاهير الكتاب فى ذلك العهد محمد السباعى وقد أكثر من الترجمة عن اللغة الانجليزية .

وكان للكاتب الشاعر مصطفى صادق الرافعى صوت فى ذلك الحين .

وكان الناس يتحدثون كثيرًا عن محمد المويلحى ، ولكنه كان قد سكت بعد ظهور « حديث عيسى بن هشام » .

وكانت أشعار شوقى وحافظ ومطران ومحرم والكاظمى والكاشف تقرع الاسماع .

وعن جريدة السفور عرف الناس أناشيد أحمد رامى وأقاصيص محمد تيمور .

وفى أيام الحرب عرف الجمهور أبحاث الشيخ محمد الخضرى فى التاريخ الإسلامى ، وعرفوا كتاب « مجمع الأحياء » للعقاد ، وكتاب « الأدب العصرى » للشيخ محمد سليمان .

* * *

أما بعد فهل كانت الحرب الماضية شرًا على الحياة الادبية ؟

أعتقد أن الحرب الماضية عادت على الأدب والعلم بأجزل النفع ، فقد ضعف سلطان الجرائد اليومية أشد الضعف بسبب غلاء الورق ، وأصبح مفهومًا عند الجمهور أن الجرائد لا تستطيع نشر الحقائق الصحيحة عن الحرب ، فانصرف عنها ، وأقبل بشغف وشوق على ذخائر العلم والأدب القديم والحديث .

فالأساتذة الذين يسيطرون اليوم على الحياة الأدبية هم الرجال الذين كونهم فراغ البال من الشواغل التافهة أيام الحرب ، هم الرجال الذين لم يجدوا غذاء الأرواح والقلوب

والعقول إلا فى ضيافة العباقرة من أعلام العلم والأدب والبيان(*) .

أذكر جيدًا أن مصر كانت فى غاية من اليقظة العقلية والأدبية والذوقية فى أيام الحرب الماضية . وأذكر أن التمثيل الهزلى قد ازدهر فى تلك الأيام بفضل ضجر الناس من هموم الحرب وتشوفهم إلى ما يرفع عنهم آصار اليأس من نعيم الحياة ، وذلك يفسر اقبالهم على الجرائد الهزلية من أمثال السيف والمسامير ، وغرامهم بالروايات الخفيفة التى تصور حيل اللصوص وأعمال المجازفين .

أما أشهر المغنين فى أيام الحرب الماضية فهم صالح عبد الحى وعبد اللطيف البنا ومنيرة المهدية ، وكانت لهم شهرة فائقة ، وكانوا أنس المسامع والقلوب فى الأفراح ، والليالى الملاح!

وفى أخريات أعوام الحرب نشأت فى القاهرة « جامعة الشعب » وهى محاضرات مسائية اشترك فيها جمهور من أدباء المصريين والأجانب ، وسمعت فيها أصوات مصطفى عبد الرازق ومحمد جاد المولى ومحمود عزمى وعلى عبد الرازق وتوحيد السلحدار ومنصور فهمى ومحجوب ثابت ومحمد هيكل .

وأذكر أنى حاولت أن ألقى محاضرة فى تلك الجامعة عن أشعار ابن خفاجة فرفض طلبى بحجة أنى ما أزال طالبًا ، وكانت محاضراتها مقصورة على الأساتذة الذين توطدت مراكزهم الأدبية .

وأشهر خطيب اجتماعى فى أيام الحرب الماضية هو الأستاذ محمد توفيق دياب .

وأعظم « حنجرة » سمعت رنينها هى حنجرة توفيق السلحدار ، فأين هو اليوم ؟

وأعظم تلميذ وعت ذاكرته أحوال الأدب فى تلك الأيام هو الصديق العزيز :

زكى مبارك

(*) **جهاد الطلبة** : كان للطلبة المصريين موقف رائع سنة ١٩١٩ وفى ابان الحركة الوطنية . ولكن كان لهم فى نوفمبر سنة ١٩٣٥ موقف أروع سيذكره التاريخ بأحرف من نور . فقد هبوا يدافعون عن حقوق البلاد، ويردون عدوان الانجليز ، وينادون بعودة الحياة النيابية ، وتحقيق الاستقلال التام . ولم يرهبوا الرصاص الذى طوح بنفوس عديدة من بينهم ولا بالسجن الذى دخله كثيرون منهم . وكان أول أثر لحركتهم الباهرة المجيدة ان ائتلفت الاحزاب واتفق الزعماء وعادت الامة إلى وحدتها المتينة الماضية ، ثم صدر دستور سنة ١٩٢٣ بعد طول ما وقف الانجليز فى سبيله . وها نحن نرتقب تحقيق المطلب الآخر وهو عقد معاهدة بين مصر وانجلترا . وقد احتفل الطلبة برفع الستار عن النصب التذكارى للشهداء

الحياة الفكرية والحرب(*)

بقلم الدكتور زكى مبارك

ستكون للفكر الوان جديدة فى الامم الجرمانية واللاتينية والسكسونية والعربية ، وستخلق مذاهب فكرية جديدة يخضع لها المجتمع ، لأن المجتمع ليس إلا صورة من صور الآراء والاهواء .

الحياة الفكرية والحرب

كانت الحرب فى العصور الغوابر شريعة حيوانية يعتدى فيها القوى على الضعيف بوحى الفطرة والطبع ، ومن أجل ذلك كانت محدودة المخاطر والمعاطب ، على نحو ما يقع فى عالم الحيوان ، فما سمعنا أن اسدا رحل من أرض إلى أرض ليفترس ما فيها من وحوش . وانما يثور الاسد على ما تقع عليه عيناه ثم يربض إلى أن يحين ما يستوجب الاهتياج والافتراس .

وكذلك كان بنو آدم فى العصور التى سبقت الحياة الفكرية ، فمن المؤكد أن الناس لم يكونوا يقتتلون إلا فى ميادين ضيقة لا تزيد على المساحات التى تسمح بأن يعيش فيها بضع مئات أو بضعة ألوف ، كالذى كان يقع فى اقتتال بنى الأعمام أو فى اقتتال قبيلتين أو قريتين متجاورتين ، وما اتسعت ميادين الحروب إلا بعد أن اتسعت آفاق الافكار ، وفطن الناس إلى ما فى الدنيا من ذخائر ، وتطلعت مطامعهم إلى انتهاب ما فيها من منافع، وبذلك جاز ان يفكر الانسان فى الانتقال من أرض إلى أرض ليظفر بأكبر نصيب من الغنائم والاسلاب .

ذلك أساس الفكرة فى موضوع هذا الحديث ، ولم يبق إلا التفصيل .

تأثير الفكر فى الحرب

كان الناس فى الازمان الخوالى يستكثرون ان تكون لهم قوة ذاتية تنقلهم من ميدان إلى ميادين ، فكانوا يتصورون ان العراك لا يقع بين شعب وشعب وانما يقع بين اله واله . ومعارك الآلهة فى تصور القدماء كانت تنبعث عن مبادئ وآراء ، كالقتال بين اله الخير واله الشر ، أو آلهة الانوار وآلهة الظلمات . وذلك أول مظهر لتأثير الفكر فى الحرب .

(*) مجلة الهلال بتاريخ ١٩٤٠/٧/١ .

ثم اعتد الناس بأنفسهم بعض الاعتداد فتناسوا آلهتهم قليلا ، وصار بعضهم يعتدى على بعض باسم الفضائل الذاتية ، وتلك خطوة ثانية لتأثير الفكر فى الحرب .

وفى ظل هذين العهدين من عهود الفكر وقعت أشهر المعارك فى التاريخ ، فالصراع بين الوثنية والتوحيد يرجع إلى نزعة فكرية ترتكز على الدين ، والصراع بين الشرق والغرب يرجع إلى نزعة فكرية ترتكز على العنصر أو اللون ، وعلى هذا الاساس سنَّ الاصطراع بين الشعوب لاسباب مختلفات ترجع فى جملتها إلى سبب واحد هو اختلاف الفكر فى تصور النزاع بين السلالات والاجناس ، فالفكر هو السبب الاصيل فى وقوع الحروب ، وهو مصدر ما يقع بين الخلائق من عداء وشقاق .

قد يقال ان الاقتصاد هو السبب الصحيح لعدوان بعض الشعوب على بعض ، وأجيب بأن الاقتصاد لم يصبح معضلة انسانية إلا بسبب الفكر ، فالفكر هو الذى نوع المنافع وحول الكماليات إلى ضروريات ، وهو الذى فرض أن يشقى الإنسان أعظم الشقاء ليظفر بنصيبه من العيش المقبول ، وهو عيش يتمثل فى منزل مؤثث ، وطعام مشكل ، وهندام جميل وقد يجوز الحكم بأن ميزانية الرجل الحضرى فى اليوم الواحد تكفى للانفاق على بدوية أياما أو أسابيع .

فالفكر هو الذى خلق معضلة الاقتصاد وهو الذى خلق الحروب العالمية ، ولولا الفكر لظلت الحروب محصورة فى بيئات محلية على نحو ما كانت فى العصور التى سبقت المدنية بأجيال .

ثم أواجه صميم الموضوع بصراحة فأقول :

ان الحروب المواحق التى يعانيها الناس فى هذا العهد تقوم على قواعد من اختلاف المبادئ ، فالصراع هو فى ظاهره بين جيوش وجيوش ، وهو فى باطنه نزاع بين أفكار ومذاهب ، ولا يتقدم جيش أو يتأخر إلا بقدر ما يؤمن أو يرتاب ، وسنعرف يوم يسمح المقام بتأريخ هذه الحرب كيف نردها إلى مصادرها الصحيحة من صراع المذاهب والآراء ولعل ذلك قريب !

ومما يشهد بتأثير الفكر فى الحرب ما نراه من اهتمام المحاربين بالدعايات ، فهم يعرفون إن الأمم تقاد بما تقرأ وما تسمع ، وهم يعرفون ان الفكر ينقل العزائم والقلوب من حال إلى أحوال، وهم يعرفون ان كلمات التشجيع أو التعويق تفوق السحر فى التأثير على الجنود ألم تسمعوا ان ألمانيا كانت تصادر الرواية المشهورة « لا جديد فى الميدان الغربى».

ألم تسمعوا ان فرنسا كانت تصادر المؤلفات التى تغض من الديموقراطية ؟

ألم تسمعوا ان أكثر الامم تميل إلى فرض الرقابة على ما ينشر وما يذاع لتأمن طغيان الفكر فى تحويل المبادئ من وضع إلى وضع ؟

وليس هذا بجديد ، أيها القراء ، فمنذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا كان المسلمون يحرمون رواية الاساطير الجاهلية ، لأنهم كانوا يرون فى روايتها خطرا على العقيدة الإسلامية .

وقبل ذلك قضى النبى محمد ألا يكون فى الجزيرة دينان ، لأنه كان يعرف أن الاختلاف فى العقيدة يستوجب الاختلاف فى الرأى ، وفى ذلك صدع لبناء الجزيرة العربية .

وبعد سقوط الاندلس كان الاسبان يحاربون ما بقى من تقاليد المدنية الإسلامية لئلا يقسم الاهلون بعضهم على بعض .

وكان الاتراك يحاولون أن يجمعوا أتباعهم فى مختلف الممالك الإسلامية على مذهب واحد فى الفقه ورأى واحد فى التوحيد ليأمنوا شر الخلاف .

وفى العصر الحديث قضت فرنسا ألا يكون لانصار الملكية أو رجال الدين أعضاء فى البرلمان .

فما مدلول هذه الشواهد ؟

لهذه الشواهد مدلول واضح هو الخوف من أثر اختلاف الفكر فى زعزعة عزائم الجماهير التى يقوم عليها بناء الممالك والشعوب .

وقد يحدث ان تقوم فتنة بسبب لفتة فكرية جرت فى خطبة أو قصيدة ، فالرشيد صمم على ابادة البرامكة حين غنته احدى القيان :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة   انما العاجز من لا يستبد

وفى أسباب الحروب أشباه لذلك ، فالعداوة بين ألمانيا وفرنسا كان لها وقود من أقوال الخطباء والشعراء .

وفى اثناء الحرب الماضية ظهر كتاب فرنسى اسمه La Barbarie Allemande وهو كتاب يشرح عناصر القسوة الألمانية ويردها إلى مصادر من آراء الفلاسفة والمفكرين .

وكان أمراء العرب وخلفاء المسلمين لعهد بنى أمية يحرصون على تربية أبنائهم فى البوادى ، وقد ظن اللغويون ان ذلك يرجع إلى الرغبة فى التمكن من لغة الاعراب ، ولهذا الظن وجه ، ولكن الصحيح أن ذلك يرجع إلى لمحة فكرية هى الإيمان بأن حياة البداوة تروض الناشئين على القسوة والعنف وتفطرهم على الضراوة والافتراس .

* * *

تأثير الحرب فى الفكر

ذلك تأثير الفكر فى الحرب ، فما هو تأثير الحرب فى الفكر ؟

بفضل الحروب ظهرت أفكار نراها مسطورة فى أحكام المشرعين وأقوال الادباء .

ففى كل كتاب من كتب الفقه الإسلامى نرى بابا اسمه « باب الجهاد » وهو يشرح آداب الحرب ، ويفصل ما يجب أن يتصف به المحاربون من شمائل وخصال ، ويبين ما يجب فى معاملة الاسرى والسبايا ، وما يجب فى توزيع الغنائم والاسلاب .

وكذلك الحال فى سائر الشرائع ، فلكل أمة آداب متصلة بالحرب ، وهى آداب خلقتها الحرب وحولتها إلى قوانين .

وأنتم تجدون فى هذه الايام عبارة « المدينة المفتوحة » وهو اصطلاح خلقته آداب الحرب ، وله نظائر فى الآداب القديمة ، فقد كان فى المحاربين القدماء من يستقبح العدوان على المسالمين ويستقبح البطش بالنساء والاطفال .

ولو اهتم باحث بمقارنة ما ورد فى الشرائع من الاحكام المتصلة بالحرب لوصل إلى ثروة فكرية تنصب الموازين ، لدلالتها على اختلاف النزعات باختلاف الامم التى تصدر عنها القوانين ألم تسمعوا ان الرق وضعت فيه مئات التصانيف ؟

أليست هذه ثروة فكرية خلقتها الحرب ؟

أما تأثير الحرب فى تكوين الافكار الادبية فله حواش وذيول ، ويحتاج تفصيله إلى مجلدات .. وهل فيكم من ينسى أن انهزام الفرنسيين فى الحرب السبعينية خلق فرنسا خلقا جديدا من الوجهة الأدبية ؟

لقد وضع الفرنسيون من المؤلفات ونظموا من القصائد ما يفوق الحصر فى التوجع لمصير الالزاس واللورين ، ولم تهدأ أفكارهم وأقلامهم إلا بعد ان استردوا هذين القطرين فى الحرب الماضية .

وقد وصل التوجع للالزاس واللورين إلى المقابر : فقد رأيت فى مقبرة بير لاشيز سنة ١٩٢٧ لوحة مرقومة فوق قبر حزين كان صاحبه أحد الذين استشهدوا فى الدفاع عن الإلزاس .

وفى أعقاب الثورة المصرية كنت معتقلا فى ثكنات قصر النيل مع جماعة من الاسرى الاتراك ، وفى صباح أحد الأيام مرت فرقة موسيقية فوق جسر قصر النيل وهى تعزف لحنا شجيا بكى له تركى أسير ، فلما سألته عن سبب بكائه أجاب بأن تلك الفرقة لا تعرف سر ذلك اللحن الحزين ، فهو لحن وضعه أحد الاتراك للتوجع على ضياع «الجزائر» من يد الاتراك .

وكذلك نعرف أن الحرب تؤثر فى الفنون كما تؤثر فى الشرائع والآداب .

وفى سنة ١٩٣١ شهدت فى أحد مسارح مونمارتر رواية دار لها رأسى ، وهى رواية Atlas Hotel فقد كانت حوادثها تقع فى أفريقيا الشمالية ، ولم تكن الا تصويرا للعداوة بين الفرنسيس والطليان ، وقد انتهب نص هذه الرواية من الاستاذ زكى طليمات قبل شهرين ، ولم أكن أعرف ان حوادثها ستمثل من جديد بصفة واقعية بعد أن تعلن ايطاليا الحرب على الحلفاء !

لا موجب للرجوع إلى التاريخ القديم فى بيان تأثير الحرب على الفكر ، فالناس جميعا يعلمون أن « الالياذة » وثيقة من وثائق الحرب ، والناس جميعا يعلمون ان أعظم قصائد أبى تمام هى البائية التى نظمها بعد اندحار الروم فى عمورية ، والويلات أن أعظم قصائد شوقى هى الاندلس الجديدة » وقد نظمها أيام الحصار الذى عانت منه « أدرنة » أشنع الويلات، أن أعظم قصائد فيكتور هوجو هى قصيدته فى « واتولو » إلى آخر ما نحفظ من تاريخ الادب الذى خلفته الحرب .

فما الذى سيجد فى دنيا الادب والتشريع بعد خمود الجحيم الذى يتسعر فى هذه الايام الحمراء ؟

ما الذى سيجد فى حيوات الناس من الوجهة التشريعية والادبية ؟

ستكون للفكر ألوان جديدة فى الامم الجرمانية واللاتينية والسكسونية والعربية .

وستخلق مذاهب فكرية جديدة يخضع لها المجتمع ، لأن المجتمع ليس إلا صورة من صور الآراء والاهواء .

* * *

أما بعد فهذا مقال اقترحه « الهلال » وذلك الاقتراح يشهد بأن الفكر قد يتأثر بالحرب والهلال نفسه أصدر أعدادا خاصة بالحرب ، لان محرريه لا يملكون السكوت عما يشهدون من قلقلات التاريخ .

وفى ختام هذا المقال أذكر القراء بالصوت المشهور :

عشنا وشفنا سنين ومن عاش ياعينى يشوف العجب

فهو صوت خلقته احدى الحروب ، فما هى تلك الحرب؟ ومن هو صاحب ذلك الصوت؟

الدنيا هى الدنيا والناس هم الناس ، وصدق بديع الزمان حين قال :

رأيت الناس خداعا إلى جانب خداع

يعيشون مع الذئب ويبكون مع الراعى

والله وحده هو المستعان على مكاره هذا الزمان .

* * *

نفعهم أكثر من ضررهم[*]

بقلم الدكتور زكى مبارك

أسارع فأقرر أنى قبلت هذا العنوان كما اقترحه الهلال ، وإلا فمن البداهة أن الاستشراق عمل واقع ، وأن المستشرقين طائفة من العلماء الجادين يجب الاتصال بهم ، والتعاون معهم ، ولسنا من الداعين إلى قطع الأواصر الأدبية والعلمية التى يطرد نموها بين الممالك والشعوب .

قالوا ان المستشرقين طلائع المستعمرين ، وهذا صحيح ، ولكن هل الاستعمار فى ذاته جريمة ؟ وكيف وهو شريعة حيوانية ؟ والشرائع الحيوانية أبقى على الزمان ! وليس يكفى فى دفع الاستعمار أن تبغض أهله وأن تقاطعهم على الطريقة الفطرية التى تقف عند فصم العلائق وكف التحيات إلى أن يفصل القتال . لا ، فهناك وسائل سلمية لدفع الاستعمار : هى أن تعرف أهله وتقف على أسرارهم فى العلوم والفنون والآداب ، وتفهم من أين يطمعون فيك وكيف يتيسر لك أن تصدهم عنك . فإن عرضت لك هذه الفرصة ثم وليتها جانب زهدك ، فأنت آثم فى حق نفسك وفى حق وطنك ، ثم لا تكون زهادتك فى الوقوف على ما لديهم ، وكف بعض أطماعهم إلا مغرية بأن يتواصوا عليك ويمدوا لك فى غفلتك قانصات الأشراك !

على أن المستشرقين لا يستطيعون أن يقضوا أعمارهم جميعًا وهم أدوات استعمارية ، فإن بداية الاستشراق أن يرغب الشاب الاوربى فى عمل يعيش منه فى المستعمرات . ومن أجل هؤلاء الشبان أنشأت الممالك الكبرى فى أوربا مدارس خاصة بتعليم اللغات الشرقية الحية كالعربية والفارسية . والمتخرجون فى مدارس اللغات الشرقية يستخدمون غالبًا فى السفارات ومكاتب الترجمة وبعض مناصب التدريس . وقد يقف أكثرهم عند الهمة التى تنفعه فى المعاش ، ولا يقف حياته على درس الشرق وآدابه وعلومه إلا طائفة قليلة سمت بها الهمة إلى مطامح الرجال . وهؤلاء يتحولون مع الزمن إلى علماء ـ بكل ما تؤدى هذه الكلمة من معنى ـ وتكون النتيجة أن تضعف فيهم النزعة الاستعمارية وتغلب عليهم النزعة العلمية . أريد بهذا أنهم يصبحون من دعاة المجد الشرقى ومن أنصار حضاراته وتقاليده ـ ودياناته أيضًا ـ فمن عرف شيئًا أحبه ومن جهل شيئًا عاداه .

---

[*] مجلة الهلال بتاريخ ١٩٣٤/١ .

ومن دلائل هذا الميل الخالص انكباب كثير من المستشرقين على مسائل نظرية بحتة لا تقدم ولا تؤخر فى خدمة الاستعمار . فقد يتفق لكثير منهم أن يشغل بدرس الفروق بين مذاهب البصريين والكوفيين ويقضى أعوامًا فى جمع المصادر وطبع بعض النصوص واستفتاء العلماء ، واستنطاق بعض القبائل ، وتوجيه ما اختلف من اللهجات ، إلخ . إلخ. أفيظن القارئ المنصف ان مثل هذا العمل لا يخلو من نزعة استعمارية ؟ انا لا أتصور ذلك. وانما أفهم ان مثل هذا الباحث تحولت حماسته إلى نشاط خصب يمضى به إلى آفاق الابتكار والابتداع فى مسائل دقيقة لا يعرض لها العلماء إلا حين تصفو نفوسهم من شوائب الاغراض .

قالوا : وللمستشرقين أغلاط ! وهذا صحيح . وأكثر ما يعرض لهم الغلط حين يقصدون إلى شرح النصوص . فإن اللغة العربية كسائر اللغات لها دقائق لا يدركها إلا أهلها الاقربون . وكبار المستشرقين لهم أغلاط مضحكة فى فهم المعانى الشعرية ، نذكر منها مثالين اثنين من باب التمثيل . الشاهد الاول ما اتفق للمستشرق الشهير جدًا المستر مرجوليوث حين عرض لقول أبى الفتح ابن العميد :

يقول لى الواشون كيف تحبها ... فقلت لهم بين المقصر والغالى
ولولا حذارى منهمو لصدقتهم ... وقلت هوى لم يهوه قط أمثالى
وكم من شفيق قال مالك واجمًا ... فقلت انى مالى وتسألى مالى

والابيات واضحة إلا الشطر الثانى من البيت الاخير فقد حار المستر مرجوليوث فى فهمه ثم حاول اصلاحه فقال :

« لعل الصواب : فقلت أنا مالى وان تسألى مالى » .

وهذا تصحيح مضحك وهو أشنع من الغلط الاول ، ولو رجع المستر مرجوليوث إلى أصل الابيات فى « ابن خلكان » لرأى أن الصواب :

فقلت ترى ما بى وتسأل عن حالى !

والشاهد الثانى ما وقع لجماعة من فضلاء المستشرقين تعاونوا مع المسيو دوزى على تحقيق كتاب « نفح الطيب » حين عرضوا لقول أبى الوليد بن حزم :

إليك أبا حفص وما عن ملالة ... ثنيت عنانى والحبيب حبيب
مقالا يطير الجمر عن جنباته ... ومن تحته قلب عليك يذوب

فقد وقفوا عند كلمة « مقالا » من البيت الثانى وذكروا أنها رويت فى كتاب آخر «مطالا» ثم كتبوا بالفرنسية ما ترجمته :

« لا الكلمة الاولى ولا الثانية تقدم معنى شافيًا . ومن المحتمل أن يكون هناك بيت سقط من بين هذين البيتين : »[١] .

والواقع أن البيتين على هذه الرواية فى غاية من الجودة . ولكن الغلط وقع لاولئك المصححين حين جهلوا وجه الاعراب فى كلمة « مقالا » ولو تأملوا لعرفوا أنها مفعول به لكلمة « إليك » فى البيت الأول . فإنها اسم فعل أمر . وهو اسم فعل منقول .

وانما ذكرت هذين الشاهدين من أغلاط المستشرقين لانهما يقيمان حجتى . فالشاهد الأول وقع فى كتاب « معجم الادباء » الذى نشره المستر مرجوليوث . ومن الممكن أن نتعقب أغلاط مصحح ذلك الكتاب فنراها تعد بالعشرات ولكن أين تلك الأغلاط وأين يقع شرها بجانب الفضل العظيم الذى أسداه المستر مرجوليوث إلى لغة العرب حين نشر ذلك المعجم فى سبعة مجلدات وقضى فى تحقيقه السنين الطوال ؟

ان طبع « معجم الادباء » ونشره على تلك الصورة الجميلة ليعد منقبة عظيمة تصغر بجانبها منكرات الاغلاط عند من يقومون أعمال الرجال .

والشاهد الثانى وقع فى "نفح الطيب" ولو مضيت أحاسب مصححى ذلك الكتاب لعثرت لهم على أغلاط أقبح وأشنع . ولكن ما قيمة تلك الاغلاط بجانب الجهد الذى بذل فى تنظيم كتاب يعد المصدر الأول لأدب الأندلس؟.. لقد طبع هذا الكتاب فى مصر طبعة يغلب عليها التحريف . وظل إلى اليوم بلا فهرس يجمع أطرافه ويمكن الباحث من الوصول إلى ما فيه من دقائق الادب والتاريخ. وقد اكتفى أولئك المستشرقون بطبع الجزء الأول والثانى وسكتوا عن الثالث والرابع . ولأن الجزءين الاخيرين قصرا على نقطة واحدة هى حياة « لسان الدين بن الخطيب » . أما الجزآن الاولان ففيهما مراجع وافية لما شغل به الاندلسيون من الادب والفلسفة والتشريع .

قالوا : وللمستشرقين أخطاء فى شرح قواعد الاسلام ! وهذا أيضًا صحيح ، فلكثير منهم فضول لا يجمل بالعلماء ، وخاصة حين يتحدثون عن حياة الرسول . فلهم نظرات إلى حياته المنزلية والاجتماعية والتشريعية تدل على أن فريقًا منهم يخدم بعض الهيئات الدينية !

والعيب الاكبر أن يصبح العالم أداة للدعايات المختلفة تصرفه كيف تشاء وتصبغ أسلوب تفكيره بمختلف الالوان . وأنا فى هذه النقطة أوافق مناظرى المفضال وألعن الزمن

---

[١] أنظر هامش ص٣٢٣ ج٢ من « نفع الطيب » طبع ليدن .

الذى صارت فيه المادة إلهًا يعبد ويطاع ، ولكن فى هذا أيضًا ما يقيم حجتى ، وهو عجب عجاب ! وإلى القراء بعض البيان :

ان خصوم الإسلام من المستشرقين خدموا الإسلام بخصومتهم أجل الخدمات . فقد عمدوا إلى القرآن والحديث فطبعوا كل ما يتصل بهما من جيد المؤلفات ، وفهرسوها وبوبوها ورتبوها ترتيبا تعجز عنه مشيخة الازهر الشريف . والمسيو فنسنك الذى تعقبه صديقنا الدكتور حسين الهراوى ورماه بسوء الفهم والنية - هذا الرجل نفسه خدم الإسلام بكتابه فى الاحاديث النبوية . ولنفرض جدلا أنه لم يقصد وجه الحق بنشر كتابه ذاك فإن هذا لا يمنع أنه خدم الإسلام من حيث لا يريد ، وهل هناك خدمة أجل من نشر الآثار الإسلامية فى الاقطار الاوربية والامريكية ؟ ان هذه الخدمة كانت تنتظر من المسلمين أنفسهم فغفلوا عنها وتركوا الاجانب يتصرفون فى تراثهم بما يشتهون ... أضيف إلى ذلك أن حياة الافكار فى تقليبها وترديدها وتغشيتها بألوان من القيل والقال . والإسلام يستفيد ممن يتحدثون عنه بالشر كما يستفيد ممن يذكرونه بالخير . وآفة الفكرة أن تهمل وأن يسكت الناس عنها فلا يتناولونها بحمد ولا ملام . وقد كنت وأنا فى باريس أغار من المطبوعات الكثيرة التى تذاع عن البوذية وخرافاتها وأساطيرها . وأتمنى لو رزق الإسلام ناسا يدورون حوله فيذيعون من فضائله ومن سيئات أهله ما يقيم له وجودًا ذهنيا وروحيا فى تلك البلاد التى يتطلع أهلها بفضل حيويتهم إلى كل طريف !

أفهمتم الآن أن أسوأ جانب فى حياة المستشرقين لا يخلو من خير ونفع ؟

وأضيف إلى كل ما سلف أن المستشرقين سبقونا إلى الدراسات الادبية والإسلامية بنحو ثلاثة قرون . والباحث الجاد فى مصر والشرق لا يستطيع الفرار من بحوثهم التى تطالعه من كل جانب . أليس من المخجل أيها الناس أن نحدثكم بأن الازهر الذى يعد معقل الإسلام لم يعرف أهله كيف يدرس التاريخ الإسلامى إلا منذ سنوات معدودات ؟ أليس من العار أن نحدثكم بأن عدد الطلبة فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية أقل من عدد الطلبة بقسم اللغة العربية فى السوربون ؟ أليس من الفضيحة أن أخبركم ؟ أنى كنت أجد بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية فى باريس مصادر عربية مطبوعة لم أجد لها ظلا فى دار الكتب المصرية ؟

أنا رجل أعيش فى ضوء الحكمة التى تقول : « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » وكل مناى أن أصبح حجة فى اللغة العربية على نحو ما يكون الباحث الاوربى حجة فى لغته القومية . وليس لدى ما يمنع من الاعتراف بأن أثر المستشرقين أبقى فى ذهنى

وأوضح، وأن فضلهم على أظهر وأرجح . ومن النصيحة لأمتى أن أشير بتأثر خطوات المستشرقين فى غير زيغ ولا ضلال . ولا ننس أن المستشرقين ناس لهم مطامع ولهم أهواء، وأكثرهم لا يتصل فى بلده بغير وزارة المستعمرات ، فهم ليسوا ملائكة ولا قديسين ، وانما هم بشر مثلكم يخطئون ويصيبون ، وخطؤهم أبقى أثرًا فى أذهان الناس لأن لهم من وسائل النشر مالا يملك الشرقيون .

وبعد ، فأنا لا أهون أغلاط المستشرقين ، ولا أدعو إلى متابعتهم فى غير بصيرة ولا روية ، ولكنى أجزم بأن أعمالهم أدخلت كثيرًا من عناصر الحيوية فى الدراسات اللغوية والإسلامية . وليس فى الدنيا شر خالص ولا خير خالص ، وإنما النفع فى أعمال هؤلاء الباحثين أقوى وأغلب .

* * *

شكر وتقدير

حين أرسلت نصوص كتاب "راية الحرية الأدبية" بقلم الدكتور زكى مبارك لم أكن أطمع فى أن يتفضل مشكورا الدكتور عبد الله محمد باشراحيل بطبع الكتاب على نفقة صالون الشيخ محمد صالح باشراحيل الأدبى يرحمه الله .

كنت فقط أتمنى من أبناء المملكة العربية السعودية الكرام مساعدتى فى طبع الكتاب... فزكى مبارك رحل عن عالمنا ومقالاته فى الجرائد والمجلات مازالت مبعثرة هنا وهناك لا تجد من يطبعها ... وكنت أتحسر حين أجمع بعض كتبه ولا أستطيع طبعها لترى النور .

أيضا لم أكن أطمع فى تلك الافتتاحية التى شرف بها الكتاب فى صفحاته الأولى بقلم الأديب الناقد والشاعر الفنان الدكتور عبد الله محمد باشراحيل .

إن الحزن الذى عاشه زكى مبارك قد لفنى معه فلم تعد الدموع تعرف طريقها إلى عيونى .

ولكن كلمات الشاعر الفنان الدكتور عبد الله محمد باشراحيل قد هزتنى فبكى قلبى شكرا وعرفانا بالجميل .

كريمة زكى مبارك

الثقافة العربية(*)

هل ينبغى استقلالها عن الثقافات الأجنبية

بقلم الدكتور زكى مبارك

الاستقلال ؟ تلك كلمة نسمعها فى مناسبات كثيرة ونغفل عن مدلولها الحق فى أكثر الأحيان يهتف الهاتفون : ليحى الاستقلال ! أترونهم يريدون بذلك أن يتطلعوا إلى الانقطاع عن العالم انقطاعًا تاما فلا يكون بينهم وبين غيرهم من الممالك أخذ ولا عطاء؟ ماذا يريد المصريون مثلا حين يقولون : فليحى الاستقلال التام ! انهم يريدون ألا يكون لأحد عليهم سلطان ، ولكنهم لا يأبون أن يكونوا مثل الانجليز الذين يعلنون حاجتهم إلى معاملة من بعد عنهم من الممالك والشعوب .

> **« إن الثقافة هى خلاصة المعارف والتجارب ولا يغمض عينيه عن تجاريب غيره إلا غافل أو جهول .. أما العاقل ، فيتطلع إلى مختلف المعارف والثقافات فى مختلف الممالك والشعوب »**

الاستقلال فى عالم السياسة هو السيادة ، وهو شىء يختلف عن الانعزال ، فالأمة المستقلة تسود ولكنها لا تنعزل ، لأن العزلة ليست من مذاهب الأحياء . وكذلك نقول فى استقلال الثقافة العربية عن الثقافات الأجنبية ، فنحن نريد أن تكون للأمم العربية ثقافة لها خصائص وأصول ، ولكننا ننكر انقطاعها عن الثقافات الأجنبية ، لأن الانقطاع عن العالم من علائم الضعف والخمود .

ومن أجل ذلك أنكر تنقية اللغة العربية من الالفاظ الأجنبية ، لأن اللغة التى تخلو من الألفاظ الأجنبية تشهد على أهلها شهادة سيئة ، إذ تصورهم منقطعين فى الميادين الصناعية والاقتصادية . والأمة التى تخلو لغتها من الالفاظ المعاشية والمدنية هى أمة ضعيفة لا تعرف كيف تعامل الناس . وهل يعيب الانجليز والفرنسيس والالمان أن يكون فى لغاتهم ألفاظ أجنبية ؟

لقد قيل أن فى الانجليزية أكثر من ألف كلمة عربية تدور على الالسنة فى المخاطبات والمكاتبات ، فهل كان ذلك دليلا على ضعف الانجليز ؟ هيهات ، انه بالعكس دليل

(*) مجلة الهلال بتاريخ ١٩٣٦/١١/١ .

الفتوة والجبروت ، وهو يدل على أن الانجليز خالطوا الامـم العربيـة فـأخذوا وأعطـوا بـلا تهيب ولا اشفاق ، وسيأتى يوم ينحصر فيه الانجليز فى جزيرتهم على نحـو مـا كـانوا فـى الاعصر الخالية . ويومئذ لا يكون هناك ما يدل على ماضيهم المملوء بالحركة والتغلب غير ما يبقى فى لغتهم من الألفاظ الاجنبية .

ان فكرة الاستقلال فكرة سياسية ، لا مدنية ولا علمية ولا أدبية ، وإذا جاز أن يكـون لهذه اللفظة ألسنة تلوكها فى عالم السياسة فإنه لا يصح أن تجـد مـن ينطـق بهـا فـى عـالم العلوم والآداب والفنون .

لا ينبغى أبدًا أن تستقل الثقافة العربية عن الثقافات الاجنبيـة . ولكـن يجـب أن يكـون للثقافة العربية مقام ملحوظ بين سائر الثقافات وهـل اسـتقلت الثقافـة الفرنسية أو الثقافـة الانجليزية ؟

إن هاتين الامتين مدينتان لعناصر أجنبية أشهرها ما ورثوه عن اليونان والرومان .

وكيف تستقل الثقافة وهى لا تقوم إلا على أساس الادراك والاستيعاب ؟

أيمكن أن نقارن من أطلع على أدب واحد بمن اطلع على أدبين ؟

ان الثقافة هى خلاصة المعارف والتجاريب . ولا يغمض عينيـه عـن تجـاريب غـيره إلا غافل أو جهول . أما العاقل فيتطلـع إلى مختلـف المعـارف والثقافـات فـى مختلـف الممـالك والشعوب . لأنه يدرك جيدًا ما يعود على عقله وذهنه من النور وهو يتلقف ما جادت به القرائح فى مختلف البلاد .

يجب أن نستوعب الثقافات الأجنبيـة ، ويحسـن حـين يمكـن ذلـك أن نهضمهـا بحيـث تصبح عنصرًا من ثقافتنا القومية ، وهل كانت اكثر معارف فولتير إلا اقتباسًا استفادها من أسفاره فى الممالك الأوربية ثم حولها بلباقته إلى أصول فرنسية ؟

اذكروا لى رجلا واحدًا مـن المصلحـين كـان أدبـه كلـه وليـد البيئـة المحليـة ، ان جميـع المصلحين فى العالم كانوا من أهل الشره فى الاطلاع على الثقافـات الأجنبيـة ، وكـانت قرائحهم تتوق إلى اقتناص الشوارد من الأفكار والآراء .

انظروا إلى مصر فى الماضى والحاضر تجدوا المصلحين كانوا قوما اتصلوا بـأهل الشـرق أو الغرب ، انظروا إلى كبار الأدباء والكتاب والمفكرين تجدوهم قد اتصلوا بـأهل الشـرق أو بأهل الغرب ، وإن اتفق لكم أن تروا رجلا مستنيرًا لا يعـرف لغـة أجنبيـة فثقـوا بأنـه اتصل بالآداب الأجنبية عن طريق المترجمات أو الاتصال بمن درسوا الآداب الأجنبية ، فـإن لم يكن هذا ولا ذاك فثقوا بأن الجو الأدبى نقل إلى ذهنه طوائف من الصور والأساليب .

وتذكروا دائمًا انى لا أوصيكم بالفناء فى الآداب الأجنبية ، ولكنى أوصيكم بالتخلق بأخلاق الأقوياء من الأجانب ، وعهدى بهم ينقلون إلى لغاتهم ما يملكون نقله من جيد الآراء ، ثم يتصرفون تصرف العبقريين لا تصرف الناقلين .

* * *

وما الذى يمنع من التذكير بماضى اللغة العربية ؟ ان هذه اللغة مدينة منذ أجيال طوال للغات الأجنبية ، ألم ينقل العرب إلى لغتهم أنفس ما عرفوا من آثار الهنود والفرس والروم؟ ألم تمض على العرب أزمان وهم يتصرفون فى تراث اليونان ؟

وكيف كان يمكن أن نتصور أدب العرب لو أغمضوا أعينهم عن طرائف الآداب الفارسية واليونانية ؟

وأنا فى هذا المقام أدعو إلى التخلق بأخلاق العرب القدماء ، فإنهم هضموا أكثر ما عرفوا من الثقافات الأجنبية ، ثم فرضوا ثقافتهم على من اتصل بهم من الناس ، وما أريد أن نكون اليوم آلات حاكية تردد ما يقول الاجانب بلا فهم ولا وعى ، وإنما أريد أن يكون لنا بجانبهم وجود ذاتى ، وان تكون ثقافتنا من المراجع ، وأن يكون أدباؤنا أئمة يهتدى بهم أهل الشرق والغرب ، على نحو ما يتفق لبعض الآداب الاوربية التى تقرأ ذخائرها فى الصين واليابان .

* * *

لقد لاحظت أن بعض الطوائف يكثر فيها العرج ، فسألت أحد الاطباء عن سر ذلك، فأخبرنى أن السبب يرجع إلى انهم يتزاوجون فيما بينهم ولا يصاهرون الاجانب على الاطلاق.

أفلا يصح فى عالم المعانى ما صح فى عالم الاجساد ؟

ألا يمكن أن يقال أن بعض الأمم تصاب (بالعرج العقلى) حين تنطوى على نفسها فى أفق الفكر والبيان ؟

أنظروا الموسيقا الشعبية فى مصر ، وتأملوا كيف ركدت حين وقفت عند الطبل والأرغول . ثم انظروا كيف ارتفعت الثقافة الموسيقية فى مصر حين استبحنا نقل الموسيقا الغربية . أما بعد فإن الاستقلال يمكن تصوره فى كل شىء ما عدا العلوم والآداب والفنون.

يمكن لكل إنسان أن يكتفى بما عنده من طعام وشراب ، ويمكن لكل رجل أن يلبس كما كان أجداده يلبسون ، ولكن لا يمكن لعاقل أن يكتفى بما فى وطنه من المعارف والآراء ، لأن الزهادة فى تثقيف العقل باب من الخيال .

انهبوا الدنيا كلها ان استطعتم ، وانهبوا ما فيها من محسوس ومعقول ، واتركوا التغنى بموروث التقاليد للعجزة والضعفاء ، فإن الجد الكبير كان دائمًا سناد الخائبين .

* * *

وهنا كلمة واجبة :

فقد نرى بعض الناس يتشدقون بالتحدث عن الثقافات الاجنبية وهم من نماذج الضعف فى الثقافة العربية ، وإلى هؤلاء نسوق الحديث :

لا يليق بالرجل أن يجهل ما يملك ، أو ما يجب أن يملك ، من التراث الاصيل ، ثم يتشدق بما لا يملك من أدب الناس .

ان المثل الأعلى للأديب أن يتفقه فى لغته أولا ، ثم يدرس من اللغات ما يشاء .

والأدباء النابهون فى الدنيا هم ادباء فى لغتهم أولا ، أما المخلوقات الحديثة التى تجهل اللغة العربية ثم تتحدث عن ذخائر الآداب الأجنبية فهى من مبتدعات الشيطان فى هذا الجيل .

وحين ندرس أقطاب الأدب فى العصر الحاضر نجدهم من أهل البصر بلغاتهم ، وكذلك كان الحال فى كل أرض وفى كل زمان .

فالأديب العربى مسئول عن التعمق فى اللغة العربية ، ولا يليق به أن يعرف شكسبير قبل أن يعرف المتنبى ، ولا يصح أن يعرف ملتون قبل أن يعرف المعرى .

فإن سمعتم أن فى بعض المصريين أو السوريين أو العراقيين من يحسن الكلام عن ويلز أو بلزاك وهو لم يسمع باسم ابن خلدون ، فاعرفوا أنه أديب شيطانى سيموت عند حلول رمضان !

الأديب الحق بين العرب هو الذى يعرف من أسرار اللغة العربية ما يعرف الأديب الفرنسى أو الانجليزى أو الألمانى من أسرار الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية .

الأديب الحق يعيش مغمور القلب بالعواطف الوطنية ، ومعمور الرأس بالمعارف العالمية، هو رجل يتكلم بلغته القومية ، ولكنه يتسامى إلى التفكير على نحو ما يفكر أكبر عقل ، وإن كان صاحب ذلك العقل من سكان المريخ .

زكى مبارك

الشباب فى جامعة باريس(*)

بقلم الدكتور زكى مبارك

اثر الشباب فى حياة المدائن وفضله فى تطور الاذواق ـ الحى اللاتينى عصبة أمم حقيقية ـ حياة الطلبة فى جامعة باريس ـ الطلاب الفقراء وصبرهم فى البأساء ـ الحب فى حياة الشباب ـ غضبة اللّه على الحب ـ النساء فى الحى اللاتينى ـ سخرية الطلاب من الاساتذة ـ ملامح من حياة الشباب .

* * *

ليت محرر الهلال يعلم ما ألقى من الانس وأنا أكتب هذا المقال ، فلست أبخل عليه بألف دينار جزاء وفاقا على أن دعانى للتحليق فى الآفاق الشعرية ساعة من زمان .

وإلا فأى بهجة فى الدنيا أروع وأمتع من الحديث عن حياة الشباب فى الجامعات الفرنسية أو الانجليزية أو الالمانية ؟ ان حياة الشباب هناك دنيا من المجد والحب . وهل بعد المجد والحب أمل يسمو إليه عقل رزين ، أو قلب طروب !

ان الشباب فى تلك الجامعات يحيا حياة يقظة متوثبة لا يحدها تزمت ولا يصدها جمود، وهو فى كل مكان مبعث الحيوية ومصدر الشعر والخيال ، وليس من الاسراف أن نحكم بأن شباب الجامعات هم زينة المدائن وأصل ما فيها من حياة العقل والوجدان ، فإليهم المرجع فى تطور الفنون والاذواق وحول مغامراتهم ومخاطراتهم تنظم القصائد وتنشأ الاساطير والاقاصيص .

لا تسألوا المدائن عن أحداثها السياسية أو الاجتماعية . ولكن اسألوا الأرض كيف ضجت بمن مشى فوقها من أصحاب العزائم الفتية والآمال الصحاح ، وفى الآمال لو فطنتم صحة واعتلال ، والشاب الجامعى هو الذى يجمع بين سذاجة الاطفال وحصافة الكهول ، هو عالم من الحب والمجد لا يصحو ولا يغفو إلا وفى رأسه وقلبه كنوز من رزانة الحقيقة وطيش الخيال .

إى واللّه ، ذلك شباب الجسم والعقل والوجدان ، هى بسمة العمر كله ، وليس قبلها غير الغفلة ولا بعدها غير العبوس .

(*) مجلة الهلال بتاريخ ١٩٣٦/٤/١ .

والمحروم من نعيم المتع الروحية والذوقية والعقلية هو المخلوق الذى حرمته المقادير من معاقرة الحياة فى جامعة باريس أو برلين ، إن الذى حرم من ذلك الرحيق لا يفهم من الدنيا إلا توافه الأخبار ومرجوح الاسانيد ، هو مخلوق يتلهى بما يقرأ وما يسمع ، وليس له من « ليلى » حظ ولا نصيب .

فإلى الله عز شأنه أقدم آيات الشكران على سكرات العيش التى عرفتها فى جامعة باريس .

أما بعد فقد كان الغرض من هذا المقال وصف حياة الشباب فى الجامعات الغربية ، ولكن الغرب آفاق طوال عراض ، وأنا لم أعرف من الغرب غير فرنسا . ولم أعرف من جامعات فرنسا غير جامعة باريس ، فلا تلومونى ان اكتفيت بوصف حياة الشباب هناك .

على أن الذى يصف الشباب فى جامعة باريس يستطيع أن يزعم أنه أطاف بحياة الشباب فى الجامعات الغربية ، فقد كانت باريس ولا تزال مطمح الانظار ، وكان من تقاليد الشباب فى الغرب كله أن يزوروا معاهد باريس ، وأن يتذوقوا ألوان العيش فى الحى اللاتينى ، وأن يسمروا مع الفتيان فى مونبارناس .

وجامعة باريس تمتاز بين جامعات العالم بكثرة من يفد إليها من الشبان الاجانب : ففيها طوائف من كل أمة ، وفيها من كل أرض اخلاق وطباع .

والحى اللاتينى فى باريس خليق بأن يسمى بالحى العالمى : ففى كل بيت عصبة أمم صغيرة ، وفى كل مكتب البريد فى ذلك الحى تتمثل عظمة اتحاد البريد ، ويرى السعاة مئات الاشكال من الطوابع والخطوط . فالدنيا تفترق كيف تشاء . ولكنها تتجمع هناك . ومن الذى عاش فى باريس ثم لا يذكر اختلاف الوجوه والملامح فى قهوة السورس وقهوة الدوم والروتوند والكوبول ؟

هى امم مختلفة الامزجة والمشارب والمنازع تجمعها سفينة باريس ، كما جمعتها فى غابر الزمان سفينة نوح . فلا يظن القارئ أننا نبعد عن الحق حين نحكم بان حياة الشباب فى جامعة باريس هى نموذج لحياتهم فى غير باريس . باريس هى الكعبة وإليها يتوجه أهل الغرب خاشعين .

* * *

ولكن كيف يحيا الطالب فى جامعة باريس ؟

يفد الطالب على تلك المدينة وهو حى القلب والاحساس : فلا يكاد يدخل الجامعة حتى يتبين انه فى قلعة حصينة الابراج . ثم يتلفت ذات اليمين وذات الشمال فلا يرى

غير تماثيل العظماء : عظماء العقل والروح . فإذا دخل الدرس هاله ما يرى وما يسمع ، وانهالت عليه الآمال والمخاوف ، واطمأن إلى أن يواجه أصعب ميادين النضال . وما ظن القارئ بجو علمى يتنفس فيه تونلا ومورنيه ؟

قد أنسى كل شيء فى دنياى . ولكننى لن أنسى محاضرات مورنيه عن القرن الثامن عشر . ولن أنسى محاضرات تونلا عن الصلات بين الأدب الفرنسى والأدب الالمانى . وتونلا هذا استاذ عظيم يخلف الشاب من اجل درسه ألف ميعاد من المواعيد الغرامية ، وكم شغلتنى دروسه عن مواعيد كنت فيها موصول العهد بصواحبات فينوس ، عليها رضوان الحب . ولم أكن وحدى فى ذلك المعترك : فقد كان لى أمثال من الشبان تلهيهم محاضرات الاساتذة عن مراتع الظباء فى مونبارناس . واعيذك ايها القارئ ان تسخر من هذه البدوات . فقد عشنا فى باريس بين رحيقين : رحيق الدرس ورحيق الحب . ولا اكتمك ان رحيق الدرس كان اشهى وامتع . ولك ان تقول فى قلبى ما تشاء ، فإنما أصدق . والصدق احب إلى قلبى من البحث عن مواقع هواك .

ان الشاب فى جامعة باريس يعدو إلى الدرس عدوًا . وله عند كل استاذ ديون . وليس بإنسان من عاش فى باريس ولم يعلق قلبه بدروس السوربون .

ان اسم السوربون وحده خليق بالعشق . وما ظنكم بمعهد تدخلونه فتجدون نحو خمسين من الاساتذة يتكلمون فى وقت واحد ، ثم تكون لكم الحرية المطلقة فى استماع ما تشاءون من نفيس المحاضرات ؟ وما أذكر أنى فارقت باريس مرة إلا بعد وداع السوربون ، ولكن أى وداع ؟ انه ليقع فى لوعة دونها لوعة أبى العلاء حين فارق بغداد. وما زلت علم الله أشعر بمثل وقدة الجمر فى كبدى كلما تذكرت حسرتى يوم نجحت فى الامتحان الاخير . فقد كان ذلك النجاح مؤذنًا بالفراق وكنت أود أن لا أموت إلا وأنا استمع إلى الدرس فى السوربون .

افهم هذا جيدًا أيها القارئ ، وصدقنى حين أؤكد لك أن الشبان فى الجامعات الغربية يحبون دروسهم حب المجانين ، فإن سمعت أنهم يلهون ويلعبون فاعلم أن ألعابهم وملاهيهم ليست شيئًا بالقياس إلى غرامهم بالدروس .

فإن كنت فى ريب من ذلك فاسمع هذا الحديث :

طلاب جامعة باريس يعدون بالالوف ، أتراهم جميعًا من الأغنياء ؟ هيهات !

فى جامعة باريس طلبة فقراء يكتفون بالخبز القفار ، ويسكنون فى حجرات ضيقة مظلمة تسمى « الكابين » وهؤلاء لا ينتظر أن تكون لهم ميادين غرامية ، فأين يسكبون

دم الشباب ؟ انهم يسكبونه فى الدرس وتحت ظل المصباح . ولا ازال أذكر مع الشوق الليالى المأزومة التى قضيتها محرومًا من أنس الحب . وكانت رحمها الله من ليالى الاعياد .

وأى ليلة أطيب من ليلة يقضيها الشاب فى الدرس حتى تضج عيناه ؟

تلك والله ليالى الشبان المخلصين الذين لا يستهويهم من باريس غير علم باريس . ومن الخطأ الفاحش ان يظن ان اهل باريس لا يعرفون إلا فى مونمارْتر ومونبارناس . ان الباريسى الصميم لا يعرف الملاهى إلا لماما . وهو لا يسقط إلا حين يحب . والحب قدر محتوم لا ينجو منه شريف ولا وضيع .

فإن اردتم ان تتمثلوا طلبة الجامعة فى باريس فاذكروا الكدح الدائم والجد الموصول واعرفوا أن الطالب هناك ليس إلا جنديًا فى الميدان . ولا بأس من الاعتراف بأن فيهم من يكسل ومن يخيب : فذلك قانون الحياة يؤتى الفضل من يشاء وينزع الفضل ممن يشاء .

أعيذكم ، يا قرائى الأكرمين ، أن تظنوا أن الشبان فى الجامعات الغربية يعيشون جميعًا عيشة الترف واللين ، وكيف وفيهم من ينساه أهله لضيق ذات اليد فيظل يقتات الأسى والحزن ، ولا يعزيه فى بلواه غير الدرس والكتاب ولا يملك غير الصراخ بمثل هذا الشعر الحزين فى خطاب باريس:

يا جنة الخلد كيف يشقى فى ظلك النازح الغريب[*]
الناس من لهوهم نشاوى ودمعه دافق صبيب
يقتات أشجانه وحيدًا فلا صديق ولا قريب
أقصى أمانيه حين يمسى أن يهجع الخفق والوجيب

وفيهم من يمرض فلا يجد من يعوده ، ثم يصارع العلة فتصرعه وهو فى غرفته بعيدًا عن الاهل والاحباب ، فيستقبل الموت وليس بجانبه من يغمض عينيه ، ثم لا يعرف خبره إلا بعد أيام ، وكم فى ميدان العلم من شهداء !

أيها القراء .

أعفونى من الكلام فى هذا الموضوع المحزن ، واسمحوا لى بالانتقال إلى باب آخر من حياة الشبان فى تلك البلاد .

* * *

---

[*] هو شعر زكى مبارك من قصيدة له على صفحات كتابه : "ذكريات باريس" .

دخلت باريس أول مرة فى شباب الربيع سنة ١٩٢٧ وخرجت منها بعد أداء الامتحان فى شباب الربيع أيضًا سنة ١٩٣١ فياحسرة القلب الذى يلقى باريس فى الربيع، ثم يفارقها فى الربيع ! ومن عجائب المصادفات انى دخلتها يوم عيد ، وخرجت منها يوم عيد ، ولعل هذا هو السبب فى تلك اللوعة التى يشهدها من يقرأ كتاب «ذكريات باريس » فإن أحس القارئ فى هذا المقال غرابة فليتذكر أننى واجهت الحياة فى جامعة باريس بعين العاشق وقلب المشوق ، وكنت قبل أن أصل إلى هناك قد تمثلت فى ذهنى ألوانًا من الحياة ، وكنت أحسب أن الشاب يحتاج إلى تصون كبير حتى يستطيع الانقطاع للدرس ، فلما دخلت الجامعة رأيت الجد هو الاغلب . ورأيت اللهو من الفضلات التى لا يتقحمها غير العاجزين .

ومع هذا فلابد من الاعتراف بخطر الحب وما يجر على الشباب من أسباب البلاء . والمعروف أن الحى اللاتينى لا يغشاه من الغانيات غير صاحبات الاذواق ، وأن الشاب لا يدفع غير قلبه فى سبيل الحب ، وقد يتفضل على محبوبته بهدية صغيرة لا ترهق كيسه الأجوف العليل .

وهنا يبدأ نبل الشباب ، فإنهم يتواصون بالبر والكتمان ، فيكون من نصيب أحدهم أن ينفق ومن نصيب الآخر أن يحب . وإليكم هذا المثال :

كان لى صديق مصرى يتعلم فى باريس ، وكنا رفيقين ، ثم بدا له أن يرحل إلى جامعة مونبلييه ، لأن المعيشة هناك خفيفة الاعباء ، وبعد مدة كتب إلى أنه أحب فتاة أسيلة الخد مشرقة الجبين .

ولكنها عرجاء ، وسألنى عن رأيى فى ذلك . كأنى كنت خبيرًا فنيًا أعرف دقائق الجمال ، وأتمتع بحق الوصال ، فكتبت إليه أذكره بحكاية الجارية الحسناء التى عرضت على هرون الرشيد فنظر إليها مقبلة ومدبرة ثم قال : « ما أجملك لولا عرج خفيف ! » فقالت : « إنه عيب لا يظهر عند حاجتك يا أمير المؤمنين ! » .

وبعد أشهر كتب إلى يشكو الافلاس . ويذكر انه لا يجد ما يصلح به حاله مع رفيقته العرجاء ، ويرجونى أن أغيثه بمائة فرنك ، فكتبت إليه أنى مأزوم وأنه يستطيع أن يقترض من مواطنيه فى مونبلييه ، أو من المنزل الذى يسكن فيه ، فجاءنى جوابه فى اليوم التالى وفيه هذه الكلمات :

« الطلبة المصريون يبغضوننى لأنى موفق فى الحب ، وأما البيت الذى أقيم فيه فهو خاو على عروشه . فأنقذنى بمائة فرنك أحفظ لك فى قلبى منزلة لا تمحوها السنون » .

ونظرت فرأيتنى أملك مائتى فرنك ، فأسعفته بمائة واستبقيت مائة . وقررت الاكتفاء بالغداء والاستغناء عن العشاء .

ولكن كيف أروض نفسى على ذلك ؟ ان شوارع باريس تظل من السادسة إلى الثامنة مرتعًا للآكلين ، والناس هناك يستحبون أن يتناولوا الطعام على قارعة الطريق . فماذا يصنع الجائع وهو يرى الناس يلتهمون العشاء ؟!

صممت على قضاء تلك الساعات فى التنزه على شواطئ السين بعيدًا عن المطاعم والقهوات . ومع ذلك كنت أشعر بقسوة الجوع فأهتف :

« لعنة اللّه على الحب . وغضبة اللّه على المحبين » .

وكان درسًا انتفعت به بعض الانتفاع . فما أذكر أنى واسيت عاشقا بعد ذلك ، غير صديق واحد يقيم فى القاهرة . والعشاق جميعًا لئام لا يردون الحقوق !

* * *

ولكن لا تظنوا أن الهوى المحرم الذى يقع فيه طلاب الجامعة فى باريس أو غير باريس يمر دائما بسلام . وكيف وفيه أوحال ومزالق يتردى فيها أبصر الناس ؟ وقد اتفق لى مرة أن أحاول اقتناء كل ما كتب عن فتنة النساء فى الحى اللاتينى فرأيت ذلك فوق ما أطيق، وما ظنكم ببقعة لا يمر بها عابر سبيل إلا كتب عنها شيئًا وقال فى وصفها أشياء ؟ وأدق ما اطلعت عليه كتيب ألفه طالب فى جامعة باريس ونشره فى سنة ١٨٦٠ وعنوان هذا الكتيب « الطلبة ونساء الحى اللاتينى » Les etudiants et les femme du Quartier Latin وهو كتيب مزعج لانه يصور عنف المرابين فى ذلك الحى ويبين ما يتعرض له الشبان من ألوان الفساد . وانتهى إلى مصارحة القارئ بأن الطالب يفد على الحى وهو يؤمن بكل ما هو جميل ، وكل ما هو نبيل ، وكل ما هو عظيم ، وقلبه مملوء بأرق العواطف وأشرف الآمال . ولكنه بعد شهرين يسقط فى الهاوية : هاوية الفضيحة والشقاء .

والطلبة فى باريس يعانون مختلف الآلام : ففيهم من يبيع ملابسه ليشترى كتابًا أو كتابين ، ومنهم من يبيع كتبه كلها ثم ينفق ثمنها فى ساعة حب أو رقص . ولعل هذه الاشياء يقع مثلها فى سائر الجامعات . ولعلها تقع فى القاهرة ، ولكنكم لا تعلمون[**] .

* * *

[**] ذكر زكى مبارك أكثر من مرة أنه فى باريس كان يبيع بعض ملابسه ليشترى بثمنها ما يحتاج إليه من الكتب .

فى السوربون مكتبة كبيرة جدا . والمراجعة فيها سهلة ميسورة . ولكن ما فيها من الكتب لا يكفى المتعطشين فى جميع الأحيان . ومن أجل ذلك تجدون من الشبان من «يشترك» فى المكاتب فيدفع مبلغًا من السنتيمات أو الفرنكات عن كل كتاب يقرأه ثم يرده . وتجدون من بينهم من يقضى ساعات فى المكاتب وهو واقف يقرأ من كل كتاب صفحة أو صفحتين أو يلتهم فصلا أو فصلين . وكانت تلك عادتى فى أيام الافلاس وكان أصحابى يسألون عنى هناك إن عز عليهم أن يجدونى فى البيت أو فى السوربون .

* * *

أما الشيطنة فى معاملة الاساتذة فحدث عنها ولا حرج . فلكل استاذ ألف صورة هزلية تمثل من شمائله ما يريد أولئك الشياطين . وحين يجلس الاستاذ ينقسم الطلبة إلى فريق يستمع الدرس وفريق يرسم ملامحه على القرطاس . ويندر أن يسلم أستاذ من سفاهة أولئك الشبان . ومن الغريب أن صور الاساتذة تباع فى بعض المكاتب بثمن مقبول وهى صور جريئة تدل على فهم أصحابها للادب وبراعتهم فى الفنون .

* * *

وأكثر الشبان فى جامعة باريس من أتباع الحزب الملكى لان هذا الحزب يظهر غيرة شديدة على الوطن والاخلاق . وهم يدافعون عن مبادئهم بالعصى والمسدسات . وتبلغ بهم الحماسة إلى حمل مجموعات من جريدة الاكسيون فرانسيز لبيعها فى المقاهى والطرقات .

والويل كل الويل لمن يجادل أولئك الشبان فهم يعرفون كيف تكون وسائل الاقناع !

ثم ماذا ؟ لم يبق إلا الاشارة إلى أيام الامتحان وهى عندهم مواسم جهاد . ومن الشبان من يحلق شعره بالموسى ليحبس نفسه بين الدفتر والكتاب ثم يظل أجرد الرأس لا يصلح للسهرات حتى يقضى مأربه من الفوز المنشود . وتلك عادة لا يعرفها من الشبان إلا الأقلون .

وأيام الدرس أيام جهاد ، والعاقبة للصابرين .

* * *

مدينة النور*

تعانى ظلام الخطوب

للدكتور زكى مبارك

قُضِىَ الأمر وسقطت باريس بين أيدى الألمان !

فمن كان يستبعد أن تميد الجبال فليعرف اليوم أن الوجود لا يعرف المستحيل . ومن كان يرتاب فى « يوم القيامة » يوم « الفَزَع الأكبر » فليتصور الساعة التاريخية التى اعترف فيها الجيش الفرنسى بأنْ لا فائدة من الدفاع عن باريس .

ولكن أى جيش ؟

هو جيش صام عن النوم والطعام سبعة أيام إلى أن لم يبق من قُواه غير أشلاء ، وكان مع ذلك يحب أن يقاتِل إلى أن يبيد وهو يذود عن باريس ، ولكنه خاف على ذخائرها الغالية فقرر أنها « مدينة مفتوحة » ومضى يقاتل قتال اليائس المستميت فى مواضع لا قِلاع فيها ولا حُصُون .

إذًا حقت المخاوف وسقطت باريس ، باريس صاحبة الحق على جميع الشعوب بفضل ما علمت الناس أصول الثورة على الظلم والاضطهاد .

فإن قال قائل إن باريس هى عاصمة فرنسا الاستعمارية ، فليذكر أنه لم يَثُر ثائرٌ على الاستعمار فى مَشرق أو فى مغرب إلا وفى روحه جذوة من النار التى أوقدتها باريس للغضب على استعباد الشعوب .

أقول هذا وقد لامنى صديقٌ على التوجع لمصير فرنسا فى مقال نشرته بجريدة الأهرام منذ أسابيع ، وكانت حجته أن فرنسا صنعتْ فى الشرق ما صنعتْ ، وأنه لا يجوز الحزن على أمة تحملها القوة على أن تبغى وتستطيل .

وهل كنت أجهل عيوب الأمم الاستعمارية حتى يدلنى عليها ذلك الصديق ؟

إن الأسد هو الصورة الفظيعة للبطش والفتك والافتراس ، ولكن هل يشمت الحُرُّ بالأسد حين يراه فى مدارج الضيم والاستذلال ؟

---

* مجلة الرسالة ٢٤ / ٦ / ١٩٤٠ .

ذلك حالى فى التوجع لفرنسا الجريحة ، وقد حاربتها بقلمى مرات حتى صح لوزير الخارجية الفرنسية أن يعارض فى منحى وسام الأكاديمى سنة ١٩٣١ وهو سرٌّ لم أذعه قبل اليوم ، وما أذيعه الآن إلا ليعرف الصديق المتعنّت أنى لا أهتم بغير المعانى . وقد مُنِحتُ ذلك الوسام بعد تلك الجفوة فى سنة ١٩٣٦ فلم أر فيه إلا تحية لرجل يصادق فرنسا صداقة علمية لا سياسية .

ومن كان فى مثل وطنيتى فهو فوق الشُّبهات والظنون ، والصدق فى الوطنية من أشرف الأرزاق .

إن الضعيف هو الذى يشْمتُ بالقَوىّ حين تزلّ قدماه ، فليعرف ذلك من يحس الشماتة بمدينة النور ، على عهودها الزواهر أطيب التحيات !

وهل أملك إخفاء حسراتى على ما صارت إليه باريس ؟

وهل يستطيع أديبٌ ألمانىٌّ أن يُخفى لوعته على مصير تلك المدينة وهو عدوٌّ حتى يستطيع أديبٌ مصرىٌّ أن يخفى لوعته وهو صديق ؟

حدثتنا البرقيات أن الجنود الألمان طافوا بشوارع باريس وهى خالية ، فأىُّ أديبٍ لا ينفطر قلبه حُزْنًا حين يسمعُ أن شوارع باريس عرفت الهدوء لحظة من زمان ؟

هى لفتة من لفتات الدهر الغادر الذى يرى كسوف الشمس وخسوف القمر ضربًا من ضروب المزاح .

هى وثبة من وثبات القدر الذى يزلزل الوجود حين يشاء .

فمن كانت عنده بقية من الصبر على مكاره الأيام فليتفضل علىَّ بكلمة عزاء لأتناسى أصدقائى فى باريس ، أصدقاء العهد الجميل يوم كنت طالبًا فى السوربون ، السوربون التى صارت اليوم قفرًا يبابًا لا يطوف بأركانه غير الشامتين من غُلْف القلوب .

باسم القوة غُزِيت باريس ، وذلك جزاءٌ وفِاق ، فليس فى باريس مكان إلا وهو نَدِىُّ الثرى بالدماء المسفوكة فى سبيل الحرية ، والحرية من أسماء القوة ، والرجل الحرُّ لا يرضى الموت بغير السيف ، وكذلك تستشهد باريس . فإن استطاع الألمان أن يخمدوا اللهب الذى يتوقد فوق قبر « الجندى المجهول » تحت « قوس النصر » فسيذكرون بعد حين أن تلك الجذوة ستنقلب إلى سعير يفتك بمجامع الأضغان ، ويرد الدنيا إلى عهدها القديم يوم كانت دار علوم وآداب وفنون ، كما كانت لعهد باريس قبل أن يحولها الغزو إلى أشباح لا تملك الجواب بغير الصمت البليغ !

إن لبست باريس أثواب الحِداد فى سنة ١٩٤٠ فقد ألبست برلين أثواب الحِداد فى سنة ١٩١٨ . والحروبُ قصاص ، وكما يَدين الفتى يُدان . وهنيئًا لمن يحمل السيف فينتصر فى وقائع وينهزم فى وقائع ، فما الحياة الحق إلا عراك ونضال وقتال .

ومَن ظنّ ممن يلاقى الحروب   بأن لا يصاب فقد ظنّ عجْزاَ

وهل كفت باريس عن الدعوة إلى الحرب حتى تنكر عواقب الحرب ؟

فى باريس مئات من التماثيل لعظماء الرجال الذين كافحوا فى مختلف الميادين ، وفى كل خطوة يخطوها زوّار باريس أثرٌ ينطق بأن مدينة النور لا تعرف الحياة فى غير الصراع والصيال ، فما جَزَعُك يا باريس وأنت صيرت الحرب من شرائع الوجود ؟

إن قوة الألمان فيضٌ من قوتك يا باريس ، فأنت غرستِ الحقد فى صدورهم ، وأنت قهرتِهم على أن يتربصوا بك الدوائر عشرين سنة ليلقَوك بأفئدة موتورة لا يشفى غليلها غير الولوغ فى دماء الرجال .

فبفضلك استطال الألمان يا باريس ولولا خشيتهم مما تملكين من عظمة وجبَرُوت لما وصلوا فى التسلح إلى الحد الذى يسمح بأن يقهروك على إلقاء المقاليد .

وانهزامُك يا باريس سيكون درسًا لأبناء الجيل الجديد ، وبه يعرفون أن لا قيمة للاعتماد على التاريخ ، وأن لا قيمة للتمدح بالفضائل الإنسانية ، فما زال أبناء حوّاء يخضعون لفطرتهم القديمة يوم كانوا من جيوش الغريزة قبل أن يصيروا من رجال الوجدان.

ألم أشهد العجائب فى الأعوام التى قضيتها فى السوريون ؟

كان شبان فرنسا فى ذلك العهد يرون الحرب من بقايا الوحشية ، ويَتواصَوْن بأن يكونوا أنصارًا للسلام مهما تغلبت الظروف ، ثم سمعتُ بعد أن فارقت باريس أن أقطاب فرنسا يختلفون حول فكرة التسلح وأن فيهم من يرى أن ترصد جميع أموال الدولة للمنشآت العمرانية والمدنية .

وذلك ذنبك يا باريس ، فأنت وثقت باعتدال الموازين قبل أن تستعد فطرة الإنسان الحيوانية للترحيب باعتدال الموازين .

ولو كانت باريس غير باريس لعرف أهلها أن فى الدنيا خلائق تعيش بغرائز موروثة عن العهود التى سبقت التاريخ .

إن الورد يعتصم بالشوك ، فكيف فات باريس أن تعتصم بالسلاح ؟

تلك هفوة سيكفّر عنها أبناء الجيل الجديد فى باريس يوم تنجلى الغُمَّة بعد أن تضع الحرب أوزارها الثقال .

ولكن متى ؟

إن انتظار السلام قد يطول !

* * *

فى أى المحامد والمحاسن والمناقب يفكر الرجال حين يجزع لبلواك يا باريس ؟

أيذكر أن مطابعك كانت تخرج نحو سبعين كتابًا فى اليوم الواحد ؟

أيذكر أن مكاتبك مرجع لجميع ما أبدعت العقول الإنسانية فى القديم والحديث ؟

أيذكر أنك صورة الإنسانية ، الصورة المجسّمة التى تمثّل ما تملك الإنسانية من آراء وأهواء ، وحقائق وأباطيل ؟

أيذكر أنك أرحب ميدان للصراع بين الحلم والجهل ، والشك واليقين ؟

أيذكر أن معاهدك العلمية والأدبية والفنية كانت النّبراس لأهل العقول والأفكار والأذواق فى أكثر بقاع الأرض ، وأن برلين نفسها لم تنجُ من الافتتان بسحرك القهار ؟

أيذكر أن النشوة الروحية لا تقع إلا لمن يفتح عينيه على نورك الوهّاج أول مرة ؟

وما أسعد من يراك يا باريس أول مرة قبل أن يألف مناظر الفردوس ! وهل تحقّ السلوة لمن يطول عهده بجمالك الفتّان ؟

قد ينسى الناس محامدك يا باريس ، إلا محمدةً واحدة ستبقى فى ذاكرة الخلود .

فأعداؤك يا باريس لم يكونوا يجدون الأمن والعافية إلا فى ربوعك الضواحك ، وما استطاعت المطابع فى أى أرض أن تذيع الطعن فى فرنسا كما استطاعت مطابع باريس ؟ وما شُتِمتْ فرنسا فى أى بلد كما شُتِمتْ فى باريس !

لم تكن باريس وطنًا خالصًا للفرنسيين ، وإنما كانت أوطانًا لطوائف من المفكرين والثائرين يفدون إليها من كل فج ويطعنون أهلها إن أرادوا بلا رقيب ولا حسيب .

كانت باريس هى المنفى الأمين لمن تلفظهم حكوماتهم من أصحاب المبادئ والمذاهب، وكانت منتدياتها مجالاً للثائرين على موروث الأفكار والتقاليد من سائر أبناء الشعوب .

كانت باريس هى الملعب الذى تراض فيه عضلات الأفكار على المُرونة والعُنف .

كانت باريس حربًا على أهلها بفضل تلك الحرية ، ولكنها كانت تشعر بالأبوّة الرحيمة لكل من يلجأ إليها ، ولو كان من دعاة الهدم والتخريب .

كانت باريس تعرف أن نشر المعاد من الأفكار الموروثة لا يحتاج إلى حماية ، ففى مقدور كل مخلوق أن يذيع الآراء التقليدية حيث شاء ، وكذلك رأت باريس أن تكون

حامية الفكر المحرَّر من جميع القيود ، وفى رحابها ترعرعت المبادئ الجوامح التى سارت عدة أعدائها من الروس والألمان والطلبان .

فكيف صِرتِ اليوم يا باريس ؟ وكيف تصيرين بعد اليوم ؟

أنا أعرف أن جراحك لن تندمل فى يوم أو يومين ، واللحظة الواحدة من آلام الأحرار تقدَّر بأعوام طوال ، فماذا تَنوين وقد قهرك بغىُ الأعداء على اعتناق مبدأ الحقد الأسود ؟

فى رحابك اليوم شيوخ وأطفال لا يفتحون عيونهم إلا على ظُلُمات من فوقها ظُلُمات ، فهل تختفى البشاشة الروحية والوجدانية من أدبك الرفيع ؟ وهل يَحُلّ النفاق محل الصراحة بعد أن دفعت الأثمان الغالية فى عقوبة الترحيب بالرأى الصريح !

وهل تصيرين مثل موسكو وروما وبرلين فى خضوع الأفكار والمذاهب للسلطة العسكرية ؟

أنا لا أخاف أن تموت باريس ، وإنما أخاف على باريس عادية الجمود .

إن أبناء باريس حاولوا تخريبها مرات كثيرة بسبب العداوات الحزبية ، ولم يُفلحوا ، فكيف يُفلح فى تخريبها الأعداء ؟ وهل خُلِقتْ باريس للموت ، وهى أسطعُ جذوات الخلود ؟

أحب أن أعرف ما الذى ستصير إليه باريس بعد اليوم ؟

أحب أن أعرف مصير الحرية الفكرية فى هذا الوجود الموبوء بأنفاس المُرائين والمخادعين ؟

لم أتفجَّعْ على باريس لقرابة أو جِوار ، وإنما أتفجع على باريس لما بيننا وبينها من أنساب علمية وروحية ، فإليها يرجع الفضل فى تخريج من عرفنا من كبار الأدباء والزعماء ، وتلك وشائج لا ينساها إلا من ابتلاه الله برذيلة الجحود .

سيعضُّ قومٌ بنان الندم على الشماتة بمدينة النور ، يوم يعرفون أنْ لم يبق فى الدنيا مكان تذاع فيه آراء الأحرار بلا تهيب ولا إشفاق بعد خمود باريس .

لابُدَّ للفكر من مدينة فى مثل صراحة باريس وسماحة باريس ، فإلى أين يذهب الفكر وقد ضُرب الحرَج على باريس ؟

إن الفكر هو أثمن ما غنِمت الإنسانية ، وبفضل الفكر الحرّ عرف الإنسان قيمة الوجود .

لابدَّ للعالم المفكّر من باريس ولو رُفعت فوق ذراها راية الصليب المعقوف !

وهل أُطفِئت أنوار أتينا الفكرية بعد أن دحرها الرومان ؟

وهل أُطفئت أنوار بغداد الفكرية بعد أن غلبها التتار المجرمون ؟

وهل استطاع الذين حاربوا القاهرة مئات السنين أن يحجبوا أنوارها عن الشرق ؟

المدُن الفكرية لا تموت ، وكيف يموت الفكر وهو أطول عمرًا من الزمان ؟

* * *

أما بعد ، فهذه كلمة فاض بها قلبٌ يتوجع لأحزان باريس ، وطن أساتذتى الأماجد من أمثال مورنيه وتونلا وشامار وميشو وديبويه ومَرسيه وديمومبين ولالاند وماسينيون ، وطن المكاتب التى كنت أقضى فيها سهراتى بالمجان حين كان يُعوزنى المال لقضاء السهرات فى مراتع اللهو والفُتون .

هذه كلمة فى التفجع لمصير المدينة التى قضيت فيها أطيب الأعوام من شبابى ، المدينة التى أوحت إلى قلمى كتاب « ذكريات باريس » .

فإن ترجع الأيام بعد الذى مَضى بذى الأَثْل صيفًا مثل صيفى ومَرْبَعى
شددتُ بأعناق النوى بعد هذه مَرائرَ إن جاذبتها لم تقطَّع

وسنلتقى يا باريس ولو بعد حين وقد طَبَّ الزمان لجراحك الداميات !

كيف الحال فى بُولميس يا باريس ؟

وكيف الحال فى الشانزليزيه ؟

وكيف الحال فى فرساى وقد قيل فيه ما قيل ؟

وكيف الحال فى دار المكتبة الأهلية ؟

وكيف حال السامرين على شواطئ السين، إن بَقىَ للسمر مجالٌ على شواطئ السين؟

وكيف حال اللاهين واللاعبين بين القصر الكبير والقصر الصغير فى الطريق إلى ميدان الأنفليد ؟

وأين مواعيد الصبابة والوجد فى ساحاتك الفيحاء ؟

وأين استقبال الغاديات والرائحات فى الضحى والأصيل حول مخازن السماريتين ؟

وأين صبح الأحد فى متحف اللوفر وعصر الأحد فى حديقة النَّبات ؟

وأين الصوت ! On ferme ليرجع العشاق إلى مخادعهم بعد العبث بأزهار البساتين ؟

وأين ؟ وأين ؟ وأين ؟

هى دنيا تذوقين من بأسائها بعض ما ذقتُ بعد فراقك الأليم فيامَرجع روحى بعد القاهرة وبغداد وسِنتريس ، ويا صاحبة الفضل على أكثر ما نظمتُ من قصائد وما نشرتُ من مؤلفات ، ويا وطن الجنرال بونال الذى كانت داره مَلاذ عزيمتى ، ويا وطن الكوللیج دى فرانس ومدرسة اللغات الشرقية والسوربون ، ويا وطن الصديق الحميم دى كومنين* أقدم إليك أصدق التحيات وأنا واثقٌ بنصيبك الأعظم من الخلود .

---

* المسيو دى كومنين كان رئيس البعثة العلمانية الفرنسية بمصر وكان صديقا حميما لزكى مبارك ... ورحل قبل رحيل زكى مبارك إلى عالم البقاء بأسبوعين فقط .

أثر بغداد فى الشعر العربى (*)

خلاصة بحث للدكتور زكى مبارك

يعد الدكتور زكى مبارك من أكثر الادباء نشاطًا ومثابرة على خدمة الادب العربى . وله بحوث ومقالات جديرة بالتقدير والاعتبار وقد جمع بين الثقافتين العربية والغربية فكان له من ذلك نتاج صالح وآراء مصقولة . ونحن ننشر له هنا هذا البحث الممتع فى الشعر العربى (المحرر) .

كان الشعر العربى قبل انشاء مدينة بغداد يصطبغ بالصبغة العربية البحتة التى تغلب فيها الخشونة والتقشف وبساطة العيش . فلما أنشئت هذه المدينة ، وظهرت فيها تلك النهضة الادبية التى جعلت بغداد قبلة أنظار العالم الإسلامى ، ومحط رجال الادباء والشعراء من كل حدب وصوب ، تطور الشعر العربى واصطبغ بصبغة جديدة ، ودخلته فنون لم تكن فيه من قبل ، فتغير أسلوبه ، وتنوعت معانيه ، واستفاد من الحرية والترف والرفاهية التى كانت تغمر الحياة العائلية والاجتماعية وقتئذ فى بغداد .

وفى يقينى ان النهضة الأدبية التى ظهرت فى بغداد فى العصر العباسى ، أحدثت فى العالم الإسلامى ما تحدثه باريس اليوم فى العالم الاوربى . فكما ان باريس تجتذب إليها كثيرًا من المفكرين والادباء ، وخاصة الالمان منهم والانجليز ، فإن بغداد فى عصرها الذهبى كانت مراد الأدباء ومباءة الشعراء والكتاب من جميع الأقطار الإسلامية .

وفى باريس اليوم ما يسمى « كباريه » . وهذه الكلمة لها مقابل صحيح فى اللغة العربية ، وهو « الحانة » وهذه الحانة كانت موجودة بكثرة فى بغداد . وكانت تجتذب إليها الكتاب والشعراء كما هى الحال الآن فى باريس ، فكان لذلك تأثيره الشديد فى الشعر العربى ـ هذا التأثير الذى ظهر بوضوح فى كثير مما خلفه العصر العباسى من آثار الكتاب والشعراء .

وقد كان يؤم هذه الحانات المنتشرة فى بغداد عصابات من الأدباء المشهورين وغير المشهورين ، منهم : أبو نواس ، ومطيع بن اياس ، ويحيى بن زياد وغيرهم .

وهذه العصابات هى التى أحدثت ذلك التطور العظيم فى الشعر العربى ، فأدخلت فيه فنون المجون والاستهتار ، وأوجدت به مذاهب الزندقة والشك والالحاد . وشجع هذه

(*) مجلة الهلال بتاريخ ١٩٣٢/٧ .

العصابات على الايغال فى هذه السبيل ما تمتعوا به من حياة الحرية والرفاهية والترف ، تلك الحياة التى تبعد الإنسان بطبيعتها عن اليقين والايمان ، وتسهل عليه تناول الملاذ والاستسلام للاهواء والشهوات . فتنطلق نفسه من عقالها ، وتمجن وتستهتر وتشك وتلحد . ومن هذه الحرية التى تجنى على الأخلاق يستفيد الشعر ويقوى .

وكذلك الحال فى بغداد . فقد كانت عصابات الشعراء تتمتع بنصيب من الحرية لم يتح لها فى أى زمن آخر . فاستفاد الشعر العربى من تلك الحرية ، وتقدم إلى الامام خطوات واسعة ، وان كانت الاخلاق قد أصابها كثير من الضعف والفساد .

وبجانب ذلك ظهرت طوائف القيان من الجوارى الحسان اللاتى كن يعشن فى بغداد ، ويملأن أنديتها بهجة وايناسًا . وكانت هؤلاء القيان ينافسن الغلمان فى ثقافتهم منافسة شديدة فقد شاع فى عصر العباسيين تقريب الغلمان والاعجاب بثقافتهم وأدبهم ، وكان فى بغداد جيش خطر منهم ، اضطرت الحرائر من النساء ان يحاربنه باتخاذ القيان المثقفات فى بيوتهن ، حتى بلغ بالسيدة زبيدة زوجة الرشيد ان تلبس قيانها لباس الغلمان .

* * *

وقد وجدت فى بغداد فكرة الظرف أو حياة التأنق . فكان الرجل الظريف هو الذى تكون له طريقة خاصة فى الحياة - طريقة أدبية شعرية ، بحيث ترى حياته متلبسة بكل ما هو أدبى ظريف ، فكنت تجد منزله مزدانًا بالاشعار المكتوبة على الجدران والسقوف والأرائك والمناضد والأسرة وآنية الطعام والشراب ، وكنت ترى الشعر مرسومًا على الغلائل والقمصان وأنواع الملابس الأخرى .

ولا تنس ان بغداد كانت مصطدم حضارتين : حضارة العرب ، وحضارة الفرس . والاولى مرتكزة على الخشونة والقوة . أما الثانية فكانت تقوم على الترف واللين . ولما كان انشاء مدينة بغداد يرجع إلى سواعد الفرس الذين سيطروا على دولة العباسيين وتغلغلوا فى ملكهم ، كان من الحتم ان تتغلب حضارتهم وان تؤثر فى الحياة العربية بوجه عام وفى الشعر العربى بوجه خاص ويمكنك ان تقول ان تأثير مدينة بغداد فى الشعر العربى ظهر ظهورًا واضحًا فى النصف الثانى من القرن الثانى وفيما يليه من القرنين الثالث والرابع حين بلغت الحرية فى الشعر مبلغًا يقرب من الاباحية .

ولكن هذا الذى حدث من الاباحية أوجد رد فعل عند بعض الشعراء الآخرين . فكما ان أبا نواس كان فى أكثر شعره ماجنًا مستهترًا ، نرى شاعرًا كأبى العتاهية زاهدًا متعبدًا . وكما ان كثيرًا من شعراء بغداد قصروا شعرهم على المجون والاسراف فى الشهوات ، نجد غيرهم من الشعراء يهتمون بالغزل العذرى مثل العباس بن الاحنف ، فهذا الشاعر يذكر

شعره بالشعراء العذريين الأمويين ، وقد كاد يقتصر على معشوقة واحدة هى « فوز » وقد امتاز بين شعراء العصر العباسى بالكلام عن الكتمان .

وإلى جانب ذلك ظهر الشعر الفلسفى ، واشتهر به شاعران عظيمان هما : أبو الطيب المتنبى ، وأبو العلاء المعرى .

* * *

هذا من جهة الاغراض التى أحدثتها بغداد فى الشعر العربى . أما من حيث الفن الشعرى ، فقد افتتن الشعراء بالمحسنات البديعية . وحامل لواء هذه المحسنات بشار بن برد وهو من مخضرمى الدولتين الاموية والعباسية . وكان أشهر من تأثر به من شعراء بغداد مسلم بن الوليد . ومسلم هذا يعتبر شخصية قوية فى العصر العباسى ، وقوته جاءت من حيث الفن البديعى لا الموضوع . وقد جاء بعد مسلم شاعر اسرف كل الاسراف فى تقليده ، وهو ابو تمام ، ويؤثر عنه انه حلف لا يصلى حتى يحفظ ديوان مسلم بن الوليد.. ولا ريب أن أبا تمام لم يفتنه من شعر مسلم غير الفن البديعى . لان مسلمًا من حيث الاغراض لم يخرج عن المعروف فى ذلك الزمان كالمدح والغزل والنسيب والرثاء ... إلخ .

ومما يدل على اتجاه العصر إلى الفن البديعى أن النقاد فى القرنين الثالث والرابع أكثروا من الكتابة فى نقد الشعر من هذه الناحية . وهذا الاهتمام يدل على أن ايثار الصورة الفنية فى الشعر كان من الامور ذات البال .

وكما أن اتصال العرب بالفرس وباليونان كان له تأثير فى الموضوعات والاغراض الشعرية ، فمن المؤكد أنه كان له تأثير أيضا فى الاهتمام بالفن الشعرى ، يدلنا على ذلك ما جاء فى كتاب الجاحظ عن بلاغات الامم . فقد تحدث عما يفهم الفرس واليونان والهنود من معنى البلاغة . وفى هذا دليل على أن العرب كانوا مشغوفين بمتابعة ما يقوله غيرهم فى هذا الباب .

* * *

بقيت لنا كلمة نقولها فى شعر أدباء آخرين وهم الكتاب . والكتاب فى الحقيقة هم زنادقة الأدب العربى . وهذا كلام لا نخلقه نحن ، فقد أشار إليه الجاحظ نفسه ، فقال : « وما ظنك بقوم أولهم ارتد عن دينه » ، وهو عبد اللّه بن أبى سرح كاتب الرسول .

وهؤلاء كان لهم تأثير شديد فى الجمهور لانهم كانوا يملكون الارزاق فقد كان بايديهم الخراج ، وكان الناس يتملقونهم .

وتستطيع أن تقول إن شعر الكتاب فى العصر العباسى كان يمتاز بالسهولة والوضوح وإصابة الغرض .

* * *

الحديث ذو شجون(*)

للدكتور زكى مبارك

فرصة ذهبية لاختبار العزائم والأخلاق ـ قسم اللغة العربية بكلية الآداب ـ إدفع الثمن يا جاحد ـ الموت فى الرؤيا حياة ـ إلى جيرانى أوجه القول ـ تحية عراقية .

******

فرصة ...

هى فرصة ذهبية لاختبار العزائم والأخلاق فاغتنموها قبل أن تفوت .

وما تلك الفرصة ؟ هى فرصة التنبه الشديد الذى يلازم النفوس والعقول عند اشتداد المكاره والمحرجات . ولا موجب للتذكير بما نعانى فى هذه الأيام « البيض » ، وإنما الواجب هو التذكير بالقيمة الصحيحة لأمثال هذه الأيام فى تأريث المشاعر والقلوب ، فهى عندى أصلح الأيام للنضال فى الميادين الأدبية والاجتماعية ـ بغض النظر عن الميادين السياسية ـ والرجل الذى يتبلد فى هذه الأيام بحيث يقضى أوقاته فى مضغ الحديث المعاد، هو رجل لا يصلح لشىء ، وهو بمسلكه البليد يشهد على نفسه بفتور العزيمة وضعف الأخلاق .

حين يأتى النذير بأن العالم معرض للدمار والهلاك ـ لا قدر اللّه ولا سمح ! ـ ينقسم الناس إلى فريقين : فريق يسارع إلى انتهاب اللذات ليأخذ منها حظه قبل أن يموت ، وفريق يستبق إلى الأعمال الجدية ليواجه الموت وهو على أشرف حال ، فإلى أى الفريقين تميلون ، يا قرائى ؟

كونوا كيف شئتم ، ولكن المهم هو تذكيركم بأن الساعة من هذه الأيام قد تساوى سنوات بفضل ما فيها من التنبه والتيقظ ، وبفضل ما تصنع فى إرهاف عزائمنا وقلوبنا ، وتلك فرص لا تسنح فى كل يوم، فاغتنموها قبل أن تفوت، ثم اغتنموها قبل أن تفوت.

لو كنا فى حرب لدعوت نفسى ودعوتكم إلى الاستشهاد فى سبيل الوطن الغالى ، ولكن مصر لم تقرر إعلان الحرب ، فلم يبق إلا أن ننتفع بالفرصة التى أتيحت بسبب تعرضنا لأخطار الحرب ، بلا بغى منا ولا عدوان .

(*) مجلة الرسالة ١٨ أغسطس ١٩٤١ .

هذه المقالة رغم أنها تحمل عنوان "الحديث ذو شجون" فلم تصدر فى كتاب "الحديث ذو شجون" بقلم الدكتور زكى مبارك والذى صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بأمر الشاعر صلاح عبد الصبور

والفرصة هى تلك اليقظة العقلية والروحية ، اليقظة التى محت جميع الغفوات ، وصيرت أعصابنا فى وقدة الجمر الوهاج .

لايجوز أن تنقضى هذه الأيام بلا محصول نفيس يرفع رءوسنا بين كرام الشعوب ، ولا يجوز أن نقف موقف المنتظرين لما تسفر عنه الأغداء الآتية ، وهى أغداء مجهولة الألوان ، ولا ينتظرها إلا أهل الغفلة والخمود .

لا يجوز أن تقل أوقات العمل عن عشر ساعات من كل يوم ، بالنسبة للضعفاء . أما الأقوياء فمن واجبهم أن ينتفعوا بجميع الأوقات ولو قهرتهم الغارات على اللجوء إلى ظلمات السراديب .

هى فرصة للتخلص من الأمراض النفسية والروحية ، فاغتنموها قبل أن تفوت .

هل سمعتم بجهنم - اعاذكم الله من حر جهنم - ؟

يقيم الآثم مدة فى جهنم عقابًا على ما اجترح من السيئات ، ولو أصغيت لوحى النزعة الصوغية لقلت : يقيم الآثم مدة فى جهنم ليتطهر من الأوضار النفسية والروحية بحيث يصلح لمجاورة سكان الفردوس .

ومكاره الحرب ليست عقابًا على آثام جناها المصريون ــ وهم نماذج فى الرفق والتسامح - وإنما هى مِحن مطهِّرة سنقطف ثمارها بعد حين .

والإقبال على الأعمال بشغف وشوق هو الذى يقصر أمد ذلك الامتحان ، فأقيموا الدليل على الصلاحية لحياة البِر والمجد ، ليرفع اللّه عنكم آصار الخوف ، وليُذهب عنكم أوجال هذه الأيام .

إن اللاهين واللاعبين لا يستحقون الحياة ، فمن حق الأقدار أن تسلب منهم هذه النعمة حين تشاء .

أما الذين يبذلون حياتهم فى الأعمال الجدية صابرين مُصابرين ، فلهم فى الحياة شرف الكرامة ، ولهم بعد الموت شرف الخلود .

فى كلية الآداب :

قيل وقيل إن قسم اللغة العربية بكلية الآداب سائر إلى الزوال ، مع أنه كان النواة لدوحة الجامعة المصرية ؛ فما أغربَ ما تصنع التقلبات بمصاير الشخصيات المعنوية فى هذه البلاد !

ويقال إن فكرة توحيد المعاهد التى تصوغ مدرسى اللغة العربية هى السبب فى إلغاء ذلك القسم ، فما تستطيع الدولة أن تحتمل الإنفاق على ثلاثة معاهد توصل إلى غرض واحد !

هو ذلك ، يا مَن أقمتم البرهان على تبحركم فى علم الاقتصاد ! ولكن هل يوجد فى الدنيا كلية آداب ليس بها قسم خاص بآداب اللغة القومية ؟

لكم أن تنشئوا معهدًا يتخرج فيه مدرسو اللغة العربية على المنهاج الذى تَنشُدون ... أما اعتداؤكم على قسم اللغة العربية بكلية الآداب فهو جناية لا يُقدم على اقترافها رجل حصيف .

وقد سمعت - وما أشنع هذا الذى سمعت - أن أساتذة كلية الآداب رحبوا بذلك الاقتراح اللطيف ! « يشهد بذلك خطاب تلقيته من أحد المتخرجين فى كلية الآداب ، وإن كان بغير إمضاء ، كأن صاحبه يخاف عواقب الجهر بالرأى الصحيح ».

أما بعد فهذه تجربة جديدة لأساتذة كلية الآداب ، فإن أُلغى ذلك القسم وهم شهود فسيعرف القلم كيف يجزيهم أحسن الجزاء .

كان يقال : إن من عيوب عهد الاحتلال أنه لم ير التعليم إلا وسيلة للتوظف ، فكانت مكيدة لقتل المواهب المصرية .

فأين أذناك ، لأسمعك صوت الحق ، يا عهد الاستقلال ؟!

وأين اليمين ؟ أين اليمين ؟ أى واللّه ، فقد أقسمنا على الوفاء لكلية الآداب ، وهى اليوم بلا ناصر ولا معين ، فأين أبناؤها الأوفياء ؟ كان الظن أن لا يلغى كرسى واحد من كراسى تلك الكلية ، ولو كان خاصًا بدرس لغة الزنوج ، فكيف يلغى قسم اللغة العربية؟ تلك أمور يحار فيها اللبيب .

ادفع الثمن يا جاحد !

هذا مدرس « من شرق الأردن » كتب إلىّ خطابًا بلغت كلماته ١٥٠٠ بالتقريب ، وإنما قدرت الكلمات لسبب سيعرفه بعد لحظات .

وذنبى عند هذا المدرس أننى لم أف بما وعدت من بسط القول عن الحياة الأدبية فى العراق ، فقد سكتُّ بعد بضع مقالات ... فهل غاب عنه أن الدنيا وقعت فيها أكدار صرفت القلم عما اعتزم المضىّ فيه ، وأن من تلك الأكدار انقطاع البريد بين مصر والعراق ؟؟ وما قيمة الكتابة عن الأدب العراقى ، وكان أهله فى شغل بما عرف الناس ، إلا ذلك المدرس الأديب ؟!

انتظر ، فقد نصل ما انقطع بعد أسابيع .

ثم أرجع إلى بيت القصيد فأقول : إن هذا المدرس أتعب نفسه بمناوشتي وهو يعتقد بأني لن أنشر خطابه في « الرسالة » ولن أرد عليه ، فمن أين عرف أني أبخل عليه بالنشر والردّ ، إن اتسعت صفحات « الرسالة » لما يريد ؟

لو فكر قليلاً لعرف أن من الخير للحياة الأدبية أن يكون فيها كاتب يثير بعض القراء إلى الحد الذى يسمح بأن ينفعل فيكتب مئات الكلمات باهتمام واحتفال : فكتابة ١٥٠٠ كلمة فى ساعة غضب توقظ العقل والذوق ، وتروض الكاتب على الاصطلاء بنار الفكر والوجدان .

وما قال أحد إنه يبغضنى ويحقد على إلا اطمأننت إلى تبليغ رسالتى الأدبية ، فأنا أخلق الفرص خلقًا لإذكاء نار الغضب والحقد فى القلوب التى طال عهدها بالغفوة والخُمود... وهذا الغاضب الحاقد لا يعرف كيف انشرح صدرى لما صدر عن قلمه من غضب وحقد، فذلك شاهدٌ جديد على أن جهودى الأدبية لن تضيع .

إن هذا المدرس لا يعرف كيف خدمته حين أثرت عواطفه الغافية ، وحين قهرته على الفزع إلى القلم والمداد والقرطاس ، وحين فرضت عليه أن يقول ما يقولً بألفاظ خفاف أو ثِقال !

إدفع الثمن ، يا جاحد ، ليرفع اللّه عنك إصر الجُحود !

الموت فى الرؤيا حياة

الأديب الفاضل السيد « كاشف » الذى كتب إلينا من « أعالى النيل » رأى فى منامه حلمًا أزهجه أشد الإزعاج ، وكيف لا ينزعج وقد رأى أن أعظم أحبابه الروحيين قد مات ؟

وأجيب بأن الموت فى الرؤيا حياة ، فله أن يطمئن كل الاطمئنان .

والطريف فى هذه الرؤيا أن الميت هو صاحب « النثر الفنى » وأن السيدة التى كانت تبكى خلف نعشه اسمها « ليلى » وهذا الأديب يرجونى أن أفسر له هذا الحلم المزعج ليذهب خوفه وأساه ...

ومن غريب المصادفات أن أقرأ فى جريدة الدستور قبل أن أتسلم خطاب هذا الأديب بلحظة قصيرة كلمة مترجمة عن جندى يابانى ، وهى :

«حلمت ليلة أمس أنى فقدت أبى ، وقد أخبرنى أحد رفاقى أن هذا الحلم فأل حسن».

والقول بأن الموت فى الرؤيا حياة هو قول ابن سيرين ، فاتفاقه مع العقيدة اليابانية دليل على ارتباط الأمم الشرقية بعضها ببعض فى كثير من المعانى والآراء .

أما بكاء « ليلى » خلف نعشى فهو شاهد على اعتزازى بمودة أهل العراق فهم أنصارى الأوفياء . أعزنى اللّه بودهم الوثيق .

إلى جيرانى أوجه القول :

لا تظنوا أن أعماركم سيضيع منها شىء إن أقللتم من الجزع وقت النذير بغارة جوية، ولا تتوهموا أن الأعداء عندهم من الذخائر ما يكفى لتقويض جميع البيوت ، ولا يخطر فى بالكم أن جنود السوء ستقصدكم بالذات ، فهم يجهلون مواقع أرواحكم بالنهار وبالليل ، ولعلهم يجهلون مواقع أرواحهم من وثبات القضاء .

تلك كروب ستنجلى وستنكشف بعد أمد قصير أو طويل ، ثم تعود الحياة إلى ما كانت عليه من الرخاء والصفاء .

العاقبة للصابرين ، يا جيرانى ، فلا تزعجونى بما أسمع من أمارات القلق والخوف ، وقد أويتُ إلى سِرداب البيت لأدوّن بعض الملاحظات فى أمان من اعتراض البوليس لا من اعتراض الموت ، فالأعمار بيد اللّه يتصرف فيها كيف شاء .

أكتب هذا وأنتم فى هرج ومرج ، كأن صفارة الإنذار هى النفخ فى الصور ، وكأن الدنيا على شفا الزوال !

يكفى أن تراعوا نصائح وزارة الوقاية ، تأدُّبًا مع النظام ، لا تخوُّفًا من الموت ، ولتصنع الأقدار بعد ذلك ما تريد .

لن يترك أحد من عمره دقيقة واحدة ، ولو عرَّض صدره لقواذف الموت ، فما جَزَعكم من كوارث لن تُصيب إلا من كُتِبتْ عليه فى سريرة الوجود ؟

ثِقوا ، يا جيرانى بأنكم باقون ، إلى أن تنتهى الحرب بسلام ، وثِقوا بأن الاستهانة بالخطوب تفلّ أنياب الخطوب ، واعرفوا جيدًا أن الحياة لا توَهب إلا لمن تَصغُر فى نفسه قيمة الموت .

ما هذا ؟ تلك قهقهة عنيفة يصل دويها إلى أذنىّ ، وهى الأمارة على أنكم أصحّاء النفوس والقلوب . جزاكم الوطن عن تلك القهقهة أحسن الجزاء .

تحية عراقية :

فى صدر جريدة « الأحوال » البغدادية تحية موَّجهة إلى مجلة « الرسالة » بإمضاء « رفيع » ، وقد وُضِعت التحية فى إطار جميل يصور بعض مواقع السحر فى بغداد .

فماذا نصنع فى رد تلك التحية ؟

نقدّم إلى قرائنا الأخبار الآتية :

أولاً - لم ألاحظ فيما يصل من جرائد ومجلات أمثال « الأحوال ، والأخبار ، والكرخ، والحضارة ، وصوت الحق » أن العراق كان وقع فى كروب بسبب الحرب ؛ فالعراق هو هو ، وروحُه المعنوى لا يزال قويًا سليمًا ، واهتمام هذه الصحف بشؤون التعليم والاقتصاد لم ينله أى ضعف ، فهى لا تلتفت إلى الماضى لتجترّ ما وقع فيه من لأواء ، وإنما توّجه جهودها إلى المستقبل بعزيمة وَمضاء ، وكذلك يفعل عقلاء الرجال .

ثانيًا - وزارة الدفاع الوطنى هناك تنشر الإعلانات من وقت إلى وقت فى دعوة الشبان إلى الإقبال على الجندية ، وهى ترْغبهم بشتى الوسائل كأن تقول إن مرتباتهم فى أيام الدراسة بمختلف المدارس العسكرية ستكون على هذا الوصف أو ذاك ، وأن حالتهم بعد التخرج ستكون على هذه القاعدة أو تلك ، وأعظم وسيلة فى نظر وزارة الدفاع هى تذكير أولئك الشبان بأنهم سيكونون حُماة البلاد . وهذا روح يدل على الشعور بقوة الذاتية ، ويبّشر بمستقبل مرموق ، حقق اللّه الآمال !

ثالثًا - فى جميع النشرات التى تُصدرها وزارة الدفاع نجد العبارة الآتية :

« يجب أن يكون الطالب عراقيًا ، وليس متجنَسًا » .

ومن هذه العبارة نفهم أن الاتجاه الجديد فى العراق يوجب أن يكون الجنود والضباط والقواد من دمٍ عراقىّ سليم ، ولهذا الاتجاه الجديد أسباب لا تخفى على أُولى الألباب .

زكى مبارك

الجوانب الجديّة فى شعر أبى نواسٍ (*)

العبقريون جدهم جدّ وهزلهم جد

بقلم الدكتور زكي مبارك

« .. كان أبو نواس أيها القراء جادا فى كل شىء ، جادا فى الجد ، جادا فى المجون . اما جده فليس بشىء لانه لن يستطيع ان يقف فى صفوف الجادين من معاصريه . لكنه كان فى هزله فارسا لا يشق له غبار - كان جادا فى هزله كل الجد لانه لم يكن يعبث .. » .

سيطلع قراء الهلال على جوانب من مجون أبى نواس . فليعرفوا أيضًا أن أبا نواس كان من أقطاب الجد الصراح ، والفرق بين الجد والمجون ليس بعيدًا كما يتوهم الاكثرون ، فالحياة جدها جد وهزلها جد ، والفرق بين اللفظين يرجع إلى تمثيل حالتين من حالات الحياة . ونحن فى الدنيا مسخرون لالوان من الطبائع فيها السواد والبياض والحلاوة والمرارة والجد والمجون . ونحن لا نعبث حين نشاء ، وانما نعبث حين تشاء قوانين الوجود. فأبو نواس العابث الماجن هو شخص يجد أعنف الجد فى تحقيق ما أرادت الحياة أن يكون، هو شخص مسكين وقفته الحياة فى صف من صفوف الحرب ثم قالت له : دافع أيها الجندى الامين عن « ثغر » المجون .

وقد عاش أبو نواس جنديًا يحارب حتى سقط فى الميدان ، ميدان الفضيحة لا ميدان الشرف ، لأن « الثغر » الذى وقف يحميه لا يسمى صرعاه بالشهداء ، فهذا المسكين الذى ضحى بحياته فى سبيل الحياة لم يظفر بشىء من المجد ، ولا بنصيب الجندى المجهول، وإنما ظفر بنصيب الجندى « المتعوس » وللحياة قوانين منها قانون اسمه قانون الحرمان ، وبفضل هذا القانون خلد ابو نواس .

وكان أبو نواس فى موقفه الحرج من أشجع الشجعان ، فالدعوة إلى الفضيلة يستطيعها كل مخلوق ، والتخلق بأخلاق الشرفاء لا يحتاج إلا إلى قسط ضئيل من الرياء . أما الدعوة إلى المجون فتحتاج إلى جرأة فاتكة لا يتسلح بها إلا من أمدته الحياة بمدد من القوة النفسية.

وكذلك كان أبو نواس ، كان مثال الشجاعة والاقدام والجرأة فى الدفاع عن «الثغر» المهدد بغارات الاتقياء ، هو رجل وقفته الحياة للدفاع عن قانون منبوذ لا يجهر أحد بالدعوة إليه ، ولا يستطيع مخلوق أن يصرح بأنه قانون ، هو الافعون الذى يتواصى الناس

(*) مجلة الهلال بتاريخ ١٩٣٦/٨/١ .

بقتله والاجهاز عليه ، هو الشيطان الذى أمر المؤمنون بلعنـه فـى أعقـاب الصلـوات ، هـو الفاكهة المحرمة التى نهى عنها آدم وحواء .

جد ابى نواس فى هزله

كان أبو نواس أيها القراء جادًا فى كل شىء ، جادًا فى الجد ، جدًا فـى المجـون . أمـا جده فليس بشىء لأنه يستطيع أن يقف فى صفوف الجادين من معاصريه ، لكنه كان فـى هزله فارسًا لا يشق له غبار ، كان جادًا فى هزله كل الجد لانه لم يكن يعبـث وانمـا كـان يدافع عن مذهب ، ومذهبه مذهب خاطئ يمجه العقلاء ، ولكنه مذهب كان له فى نفس أبى نواس قواعد وأصول . والحياة لم تكن تعبث حين أفسحت المجال للافاعى والضـلال ، وانما كانت غاية سيعرفها الناس بعد حين . ومذهب أبى نواس هو من الضلال فى العرف والاصطلاح ولكن الحياة فرضته علـى الشـاعر وقضـت عليـه بالدفـاع عـن ذلـك المشـرع الموبوء ، فلا تلوموه ولكن لوموا الطبيعة الساحرة التى جعلت المجـون مـن ألـوان الحيـاة ـ أترونني أدافع عن أبى نواس؟ وعمن يدافع المحامون ؟ أيدافعون عن الاتقياء الصالحين الذين تلثم أيديهم فى ساحات القضاء ؟

ان من الحذلقة ومن الرياء الممقوت أن نتكلف الفضيلـة بـالطعن فـى أبـى نـواس . هـو رجل قالت له الحياة كن فكان ، وهو لا يسأل عما صنع إلا فـى رأى مـن يتوهمـون أننـا نملك تلوين الوجود كما نشاء . ومن نحن ؟ من نحن ومـن أنتـم أيهـا النـاس ؟ نحـن وأنتـم ذرات صغيرة جدًا فى هذا الوجـود الهـائل الـذى يبتعـد فيـه بعـض الكواكـب عـن بعـض بمسافات يقطعها القطار السريع فى مئـات السـنين أو ألـوف السـنين . مـا نحـن وانتـم إلا فراش يحوم حول نور الوجود فنحترق بالالوف والملايين ويبقى الوجود .

أترون الفراش يهزل حين يحوم حول النـور ليحـترق ؟ انـه يجـد ولكنكـم لا تعلمـون . وكذلك كان أبو نواس يجد فى هزله كـل الجـد ، ولا يـراه لاعبًـا إلا مـن يقيـس الحقـائق الحيوية بمقاييس الجهلاء .

لماذا كان يهزل ؟

قد يقول ناس من خلق الله : أمن اجل هذه الفلسفة المضللة تكتب هذا المقال ؟

ان قالوا ذلك فإنى انقلهم إلى بحث جديد : لماذا كان يهزل أبو نواس ؟

انه كان يهزل بفضل ما عانى من قسوة الجد فهو فى هزله يتمثل الجد بصورة مخيفة .

كان أبو نواس من كبار العلمـاء ومـن كبـار الأذكيـاء وكـان يتمنـى أن يظفـر بمكـان مرموق فى دولة هرون الرشيد ، ولكن الحاقدين من معاصريه طوقـوه بـألوان مـن التمـائم

والوشايات وحالوا بينه وبين ما كان يشتهى من منازل المجد فأقبل على الصهباء يبثها شكواه من الزمن الخادع والرفاق اللئام . وما زال يمعن فى لهوه ومجونه حتى صح له أن يقول :

صيرتنى الوشاة نصب المشيريـ ـن وأحدوثة بكل مكان
لم أجد خاليين فى السر إلا قلت ما يخلوان إلا بشانى

وهذه الوسوسة هى النصيب الذى ظفر به أبو نواس فى عصره وهو الرجل الذى وصف بأنه كان أعرف الناس كيف تكلمت العرب والذى كان يود أبو يوسف الفقيه لو أخذ عنه أصول التشريع .

قسوة الجد هى التى نقلت أبا نواس من حال إلى حال . وأنتم تعلمون أن المجد فى عصر ابى نواس كان ينحصر بالنسبة إليه فى غاية واحدة هى الظفر بمنصب القضاء ، وكان أبو نواس أعد نفسه لهذه الغاية التى يتسامى إليها العلماء ، ولكن قيل انه شاعر يحسن وصف الصهباء وتلك حال تنافى وقار القضاء . وكذلك طرد الرجل من حظيرة المجد المرموق فتحول إلى ما تعرفون. ابحثوا فى جميع بقاع الارض فلن تجدوا العبث القوى إلا عند المنهزمين من أصحاب العقول . ان الهزيمة هى التى تسن قواعد العبث والمجون ، أما النصر فهو يغرى بالتقى والصلاح ؛ والتقى والصلاح لفظان لا معنى لهما ولا مدلول فى أذهان اليائسين والمنهزمين من كبار الرجال .

هل كان رجلا كبيرا

قد تقولون : وهل كان أبو نواس رجلا كبيرًا ؟

ونجيب بأنه كان رجلا كبيرًا جدًا ولولا عظمة روحه ما استطاع أن يفرض ضلاله على الناس مئات السنين . وليس من القليل أن يكون الرجل امامًا فى الغواية والضلال يترسم الناس خطواته من جيل إلى جيل . ولكن أين الشاهد على صحة ما نقول فى شعر أبى نواس ؟ اسمعوا ما يقول :

غدوت على اللذات منهتك الستر وأفضت بنات السر منى إلى الجهر
وهان على الناس فيما أريده بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليالى مرصدات لمدتى فبادرت لذاتى مبادرة الدهر
رضيت من الدنيا بكأس وشادن تحير فى تفضيله فطن الفكر
مدام ربت فى حجر نوح يديرها على ثقيل الردف مضطمر الخصر
صحيح مريض الجفن مدن مباعد يميت ويحيى بالوصال وبالهجر

كأن ضياء الشمس نيط بوجهه وبدر الدجى بين الترائب والنحر
إذا ما بدت ازرار جيب قميصه تطلع منها صورة القمر البدر
فاحسن من ركض إلى حومة الوغى وأحسن عندى من خروج إلى النحر
فلا خير فى قوم تدور عليهمو كؤوس المنايا بالمثقفة السمر
تحياتهم فى كل يوم وليلة ظبا المشرفيات المزيرة للقبر

فماذا ترون فى هذه القطعة ؟ ان الشاعر يحدثكم أنه يغدو إلى اللذات وهو منهتك الستر مفضوح الاسرار ويحدثكم بان الناس هانوا عليه فلم يعد يبالى لوم اللائمين وعذل الناصحين . ولكم أن تسألوا : متى يستهين الرجل بأقدار الناس ولوم الناس ؟ انه لا يفعل ذلك الا حين ييأس من انصاف الناس . وكان أبو نواس فيما يظهر قد يئس من عدل معاصريه أقبح اليأس فلم يعد يهمه رضا الراضين وسخط الساخطين . وهذه الحالة النفسية هى التى أوحت إليه أجمل بيت فى الشعر العربى ، هى التى قذفت إلى روحه هذا البيت المتفرد بالروعة والجلال :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

وما هو ذلك الشجر ؟ أهو الرفاق والاخدان ؟ أم هو الخليفة هرون الرشيد ؟ لم يحدثنا التاريخ الادبى عن « الشجر » الذى ذاق أبو نواس مرارة ثمره فزهد فى ذود الطير عنه ، لم يحدثنا التاريخ عن تلك الشجرة الملعونة التى نقلت أبا نواس من الهدى إلى الضلال ، ولكنا مع ذلك نعرف ما يريد أو بعض ما يريد ، فذلك رجل أضفى على معاصريه ثياب الرفق فألقوا عليه أشواك العقوق .

ارتياب أبى نواس

ثم ماذا ؟ كان أبو نواس فيما يظهر كثير الارتياب ، وأغلب الظن أنه كان لا يؤمن بالمعاد ، وإلا فكيف ساغ له أن يقول :

رأيت الليالى مرصدات لمدتى فبادرت لذاتى مبادرة الدهر

ولو كان الرجل يؤمن بأن الجنة تنتظره بما يشاء من الحور والولدان وأنهار الصهباء لأقلع عن الغواية فى سبيل ما يرجوه من نعيم الفراديس .

وهل تأملتم الابيات الاخيرة فى هذه القطعة الاثيمة ؟ ان الرجل يسخر من المجد العسكرى كل السخرية ، هو لا يهمه أن يتقدم إلى صفوف القتال ، ولا يشوقه أن يتلقى تحية المشرفيات ، وفى سبيل من يقاتل ويستميت ؟ لقد تساقطت آماله ورقة ورقة و لم يبق أمامه إلا أن يدوس على صحائف المجد مبددة فى سهول الخريف ـ أنا أرجح أن تكون

هذه القطعة قيلت فى عشية من عشيات الحرب ، وأوقن بان بان الرجل قالها فى السخرية من المجاهدين .

قلت لكم إن المجون له فى نفس أبى نـواس قواعـد وأصـول ، فـاعرفوا الآن أن الرجل كان يؤمن بآداب الندماء وكان يزهو بنفسه فيقول :

انـى وإن كنـت ماجنـا خرقـا ... لا يخطر النسـك لى علـى بـال
لـذو حيـاء وذو محافظـة ... مبتـاع حمـد الرجـال بالغـالى
ما دنس المال عرض ذى شرف ... فإن عرضـى يصـان بالمـال

وهذه الابيات الجدية وقعت فى مطلع قصيدة خمرية .

وكان أبو نواس يؤمن بأنه أشرف نديم وأظرف نديم ويقول :

فلو رد فى كسرى بن ساسان روحه ... اذن لاصطفانـى دون كـل نديـم

أترون هذا من كلام الهازلين ؟ .. وكان يوقن بأنه بصير بمقاتل الاشياء . ويقول :

وانى لآتى الامر من حيث يتقى ... وتعلم قوسى حين أنزع من أرمى

وكان أبو نواس فى صحواته يحقد على الناس ويرى من الضياع أن يحبر فيهم قصائد المديح ويرى الخير فى تزجية العمر بالغزل والدعابة والمجون . ويقول :

يـا مـادح القـوم اللئـام ... وطالبًـا رفـد الشـحاح
اشـغل قريضـك بالنسـيب ... وبالفكاهـة والمـزاح
حدثـت وجـوه ليـس تـأ ... لم غـير أطـراف الرمـاح
وأكـف قـوم ليـس ينبـط ... ماءهـا إلا المنـاحى
ما شئـت مـن مـال حمـى ... يـأوى إلى عـرض مبـاح

حظه المغبوق

وكان أبو نواس فى غفوات سكره وغفلات صباه يصحو أحيانا فيتذكر حظه المغبون فى دنياه ، ألم تقـرأوا قصيـدة « خيمـة النـاطور » ان كنتـم نسيتم فأنـا أذكركـم . هى القصيدة التى يقول فيها بعد أبيات :

وأصبحت ألحى السكر والسكر محسن ... ألا رب احسـان علـى ثقيـل
فاعطيت من أهوى الحديث كما بدا ... وذللـت صعبـا كـان غـير ذلـول
فغنـى وقـد وسـدت يسـراى خـده ... ألا ربمـا طـالبت غـير منيـل
حزنـا أن الجـواد مفـتر ... عليـه ولا معـروف عنـد بخيـل
سـابغى الغنـى إمـا جليس خليفـة ... يقـوم سـواء أو مخيـف سـبيل

بكل فتى لا يستطار جنانه   إذا نوه الزَحفان باسم قتيل
لنخمس مال اللّه من كل فاجر   أخى بطنة للطيبات اكول
ألم تر أن المال عون على التقى   وليس جواد معدم كبخيل

فماذا ترون فى هذه الابيات ؟ لقد قالها ذلك المفتون وهو سكران ، فافصحت عن ضميره كل الافصاح ، وماذا يريد أن يقول ؟ إنه يحزن لمصير أهل الجود بين اللئام من أهل البخل ، ويقسم لينالن الغنى والثراء . ولكن كيف يثرى ذلك الصعلوك ؟ انه بين اثنتين : اما أن يجالس الخليفة واما أن يقطع الطريق . وهو يحدثنا أن له عصابة من الفتيان الجرآء القلوب الذين لا يفزعون حين ينوه الزاحفون باخبار المصروعين فى القتال . ومن الذين يعاديهم ذلك الفاتك ؟ انه يعادى الفجرة اصحاب البطون . ثم يقول :

ألم تر أن المال عون على التقى   وليس جواد معدم كبخيل

والتقى فى ذهن أبى نواس له معنى لا يعرفه الزاهدون ، التقى عند أبى نواس هو الأريحية فى الافضال على الندماء . وكان الرجل يتمنى أن يكون موئلا يلوذ به أصحاب الأرواح والاذواق والقلوب .

ان هذه الوثبة من أبى نواس وثبة اشتراكية لا يقدم عليها الشاعر وهو مازح ، انما يقدم عليها وهو ينوى الجد الصراح .. وأعيذكم أن تظنوا انه كان يلقى الكلام على عواهنه ، هيهات . فهو فيما اعتقد كان يحارب ناسًا امتلأت بطونهم بالسحت حين عرفوا كيف ينفع النفاق .

ولا يبعد عندى أن يكون أبو نواس يعنى النساك من أهل زمانه ، فقد فاض شعره بالحديث عن النسك والسخرية من الناسكين . والتنسك كما تعلمون كان فى بعض أحواله من وسائل الربح والثروة والجاه . ومثل أبى نواس فى صراحته لا يصلح لاكتساب المال عن ذلك الوجه الرقيع .

جده فى زهدياته وخمدياته

لا تنتظروا أن أحدثكم عن زهديات أبى نواس ، فتلكم قصائد ومقطوعات قالها الرجل بعد أن عجز عن الجد وعن المجون ، والوقار من العاجزين يشبه أدب العبيد ، ولا يوضع فى الميزان ، وإنما يجب أن ندقق النظر فيما اصطنع أبو نواس من المذاهب الجدية وهو فى عنفوان الفتوة ، وأكاد أجزم بأن الحاحه فى وصف الصهباء كان صورة من صور الجد المرهق . فالرجل كان يتغنى بالخمر فى أمة تسميها أم الخبائث . وكان يتغنى بالجمال الممنوع فى ظل هرون الرشيد ، وهو خليفة كان يحب أن يقال فيه انه يغزو عامًا ويحج عاما . وحرص الخلفاء على الوقار حرص شديد وان كان يتفق أحيانًا أن يكون من الأدب المصنوع .

فكيف تعللون اسراف أبى نواس فى وصف الشمول ؟ أترون ذلك كله من المجون ؟ قولوا ما شئتم . أما أنا فأعتقد أن الرجل كان يصدر فى ذلك عن وجدان ويبعد عندى أن يكون شغفه بوصف الخمر من أعمال العابثين .

وأسارع فأقرر أن أبا نواس كان سيء السيرة ولكن لا إلى الحد الذى يصوره المأثور من أخباره الادبية ، فانى أوقن بأن انحيازه إلى الامين كان السبب فيما ساد من أخباره السيئات . وأنتم تعلمون أن الامين انهزم شر هزيمة ، وكانت هزيمته شفاء لصدور الحزب الغالب حزب المأمون ، وكان لابد لانصار المأمون أن يفهموا جمهور المسلمين أنه لم يغدر بأخيه وانما قتله فى سبيل الشرع والدين ، وما كان ذلك يتم لهم إلا بتسويد صفحات من صاحبوا الامين ، فكان أبو نواس ضحية الافك السياسى القذر الذى اصطنعه أنصار المأمون .

أما بعد فهذا مقال أردت به وجه الحق ، أردت به إنصاف شاعر ختم لغة العرب بأنفاسه الشعرية ، فإن أكن أصبت فذلك ما أرجوه ، وأن أكن أخطأت فحسبى من الشرف أننى تورعت عن الطعن فى شاعر باسم الفضيلة والدين .

* * *

الدسائس الأدبية[*]

بين المتنبى والصاحب بن عباد

بقلم الدكتور زكى مبارك

هذا فصل موجز أصور به لونًا من ألوان الدسائس الأدبية التى شـهدها القـرن الرابـع . وما أريد فى هذه الفصل أن اتحدث عن حياة المتنبى . فلذلك تفاصيل فى هـذا العـدد مـن الهلال . وما أريد أيضًا أن أتحدث عن حياة الصاحب فقد أطلت فيه القول فى كتاب النثر الفنى . وانما أقف عند مسألة واحدة كان لها أثر فى تلوين النقد الادبى عند كتاب القــرن الرابع . وتلك هى الخصومة بين المتنبى والصاحب بـن عبـاد . والمطلعـون علـى التـاريخ الادبى لذلك العهد يعرفون أن الصاحب كان يتشهى أن يستعبد كبار الكتاب والشعراء ، ويعرفون أن نفسه تسامت إلى استعباد المتنبى أنه خاب فى ذلك وكانت هذه الخيبة جرحا بليغًا تنزى له قلب ابن عباد فحقد على المتنبى وحرض عليه كبار الناقدين .

ولنقيد هنا أن المتنبى كان ترفع عـن مـدح رجـال آخريـن مـن أشباه الصـاحب منهـم الوزير المهلبى ، نعرف ذلك من خطاب المتنبـى الـذى أرسـله إلى الصـابى وكـان الصـابى راسل أبا الطيب فى أن يمدحه بقصيدتين ووسط بينه وبينه رجلا من وجـوه التجـار فقـال ابو الطيب للوسيط : « قل لابى اسحاق : والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ولا أوجب على أحد فى هذه البلاد من الحـق مـا أوجبتـه . وأنـا ان مدحتـك تنكـر لـك الوزير - يعنى المهلبى - وتغير عليك لاننى لم أمدحه فـإن كنـت لا تبـالى هـذه الحـال فإنـا أجيبك إلى ما التمست وما أريد منك مالا ولا عن شعرى عوضا » .

والمهم أن يعرف القارئ أن ابن عباد حقد على المتنبى لانه لم يمدحه فلنحدثه عن خطر ذلك الحقد فى الآثار النقدية التى حفظت عن ذلك العهد ولنكتف بشاهدين اثنين :

الشاهد الأول :

ألف أبو هلال العسكرى كتابًا سماه « الصناعتين » وهو كتاب ممتـع تحـدث فيـه عـن الخصائص الشعرية والنثريـة ، ولكـن عنـد التـأمل نجـد فـى ذلـك الكتـاب النفيس ظـلالا للدسائس الادبية التى وقعت بين المتنبى وبين ابن عبـاد ، فـالمؤلف يتلمـس الفـرص ليشيد

---

[*] مجلة الهلال بتاريخ ١٩٣٥/٨ .

بأدب الصاحب وليغض من قدر المتنبى . أما اشادته بادب الصاحب فتظهر فى استشهاده بكلامه كقوله فى باب السجع والازدواج :

« ومثله قول الصاحب : هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدتك ، وتظلمه كلفا بأهل جلدتك وقوله : وقد كتبت إلى فلان ما يوجز الطريق إلى تخلية نفسه وينجز وعد الثقة فى فك حبسه » .

ونراه فى مكان آخر يقول : « روى لنا أن عمر بن أبى ربيعة أنشد ابن عباس رضى اللّه عنه : تشط غدًا دار جيراننا . فقال ابن عباس : وللدار بعد غد أبعد . فقال عمر : واللّه ما قلت إلا كذلك ... وإذا كان القوم فى قبيلة واحدة وفى أرض واحدة فإن خواطرهم تقع متقاربة كما أن اخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة ... وأنشدت الصاحب اسماعيل بن عباد : « كانت سراة الناس تحت أظلة . فسبقنى وقال : فغدت سراة الناس فوق سراته . وكذلك كنت . قلت . فعلى هذا جائز ما يدعى لهم » .

وفى هذه العبارة تظهر مجاملة أبى هلال للصاحب فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلا على أن حضور الذهن من النعم التى يخص بها اللّه بعض الناس !

ونراه فى باب الفصل والوصل يقول :

« وهكذا يفعل الكتاب الحذاق والمترسلون المبرزون . ألا ترى ما كتب الصاحب فى آخر رسالة له : (فإن حنثت فيما حلفت فلا خطوت لتحصيل مجد ولا نهضت لاقتناء حمد ولا سعيت إلى مقام فخر ولا حرصت على علو ذكر ...) فأتى بإيمان ظريفة ومعان غريبة » .

وما أحب أن استقصى ما تكلف العسكرى من الثناء على الصاحب فذلك مبثوث فى كتاب الصناعتين . واما تحامله على المتنبى فيظهر فى مواطن كثيرة من كتابه . فهو لا يذكره باسمه ولا يتحدث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح ، ففى باب تمييز المعانى ينشد قول السيد الحميرى :

ايا رب انى لم أرد بالذى بـــه   مدحت عليا غير وجهك فارحم

ثم يقول : « فهذا كلام عاقل يضع الشىء موضعه ويستعمله فى ابانه . ليس كمن قال وهو فى زماننا :

جفخت وهم لا يجفخون بهابهم   شيم على الحب الاغر دلائـــل

فاشمت عدوه بنفسه »

وفى باب الكناية والتعريض يقول : « ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين :

أنى على شغفى بما فى خمرهـا لأعـف عما فى سراويلاتهـا

« وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ »

وفى باب التوشيح يقول : ومما عيب من هذا الضرب قول بعض المتأخرين :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيـش كلهـن قلاقـل

ألا ترون كيف استطاعت تلك الدسائس أن تفسد الحكم فى نفس رجل شـريف مثـل أبى هلال ؟

لقد كان فى مقدور العسكرى أن ينصف أبا الطيب وأن يتجاوز عن سيئاته ، ولكنـه شغل نفسه بتعقب مساوئه ليدخل السرور على قلـب ابـن عبـاد . ولنتذكـر أن مـا أخـذه العسكرى على المتنبى ظل يلاحق هذا الشاعر فى جميع العصور الادبية بحيث لا يكاد يخلو كتاب من كتب النقد من الإشـارة إلى تعسـف المتنبى وإسـفافه فـى الحـدود التـى رسمهـا صاحب كتاب الصناعتين .

الشاهد الثانى :

لم يكتف الصاحب بتحريض النقاد على المتنبـى ، وإنمـا اندفـع يغمـزه ويناوئـه برسـالة كتبها بنفسه على قلة ما كان يكتب فى النقد الادبى ، وهى رسالة صغيرة ولكنها قيمـة ، بغضْ النظر عما فيها من تحامل ومكابرة ، وفـى مطلـع تلـك الرسـالة يتحـدث الصـاحب فيقول :

« كنت ذاكرت بعض من يتوسم بالادب الاشعار وقائليهـا والمجوديـن فيهـا ، فسـألنى عن المتنبى فقلت : انه بعيد المرمى فى شعره ، كثير الاصابـة فـى نظمـه إلا انـه ربمـا يـأتى بالفقرة الغراء ، مشفوعة بالكلمة العوراء فرأيته قد هاج وانزعج ، وحمى وتأجج ، وادعى ان شعره مستمر النظام ، متناسب الاقسام ، ولم يرض حتى تحدانى فقال : ان كان الامـر كما زعمت فاثبت فى ورقة ما تنكـره ، وقيـد بالخطبـة مـا تذكـره ، لتتصفحـه العيـون . وتسبكه العقول ، ففعلت ، وان لم يكن تطلب العثرات من شيمتى ولا تتبـع الـزلات مـن طريقتى . وقد قيل : أى عالم لا يهفو ، وأى صارم لا ينبو ، وأى جواد لا يكبو ؟ . وانما فعلت ما فعلت لئلا يقدر هذا المتعرض أنى ممن يروى قبل أن يروى ، ويخبر قبل أن يخبر ، فاستمع وأنصت ، وأعدل وأنصف ، فما أوردت فيـه إلا قليـلا ، ولا ذكـرت مـن عظيـم عيوبهْ إلا يسيرًا ، وقد بلينا بزمن يكـاد المنسـم فيـه يعلـو الغـارب . ومنينـا بأعيـان أغمـار اغتروا بممادح الجهال ، لا يضرعون لمن حلب الادب أفاويقه ، والعلم أشـطره ، لا سـيما

الشعر ، فهو فوق الثريا وهم دون الثرى ، وقد يوهمون أنهم يعرفون ، فإذا حكموا رأيت بهائم مر سنة ، وأنعامًا بمحفلة » .

وفى هذه الكلمة بيان لنفسية الصاحب وما انطوت عليه من أضغان وأحقاد ، فهو يرى المتنبى رجلا أنصفه الزمان الجهول ، ويرى أشياعه من السوائم والانعام .

ولنقدم للقارئ نماذج من نقد الصاحب للمتنبى . قال :

« ولقد مررت على مرثية له فى أم سيف الدولة ندل مع فساد الحس على سوء أدب النفس . وما ظنك بمن يخاطب ملكا فى أمه بقوله : رواق العز فوقك مسبطر . ولعل لفظة (الاسبطرار) فى مراثى النساء من الخذلان الصفيق الدقيق ، نعم هذه القصيدة يظن المتعصبون له أنها من شعره بمثابة « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » من القرآن ، وفيها يقول:

وهذا أول الناعين طرًا لأول ميتة فى ذا الجلال

« ومن سمع باسم الشعر ، عرف تردده فى انهتاك الستر . ولما أبدع فى هذه القصيدة واخترع قال :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

« وقد قال بعض من يغلو فيه : هذه استعارة ، فقلت : صدقت ، ولكنها استعارة حداد فى عرس . ولما أحب تقريظ المتوفاة والافصاح عن أنها من الكريمات أعمل دقائق فكره واستخرج زبد شعره ، فقال :

ولا من فى جنازتها تجار يكون وداعهم خفق النعال

وكان الناس يستبشعون قول مسلم : سلت وسلت ثم سل سليلها . حتى جاء هذا المبدع بقوله :

وأفجع من فقدنا من وجدنا قبيل الفقد مفقود المثال

« فالمصيبة فى الراثى أعظم منها فى المرثى . ومن أوابده التى لا يسمع طول الدهر مثالها قوله :

إذا كان بعض الناس سيفًا لدولة ففى الناس بوقات لها وطبول

« وهذا التحاذق كغزل العجائز قبحًا ، ودلال الشيوخ سماجة ، ولكن بقى أن يوجد من يسمع »

« ومن افتتاحه الذى يفتح طرق الكرب ، ويغلق أبواب القلب . قوله :

أراع كذا كل الأنام همام وسح له رسل الملوك غمام

« ولو لم يتكلم فى الشعر إلا من هو أهله لما سمع مثل هذا » .

وما أحب ان أطيل ما أخذ الصاحب على المتنبى . فقد طبعت رسالته بالقاهرة ، ويستطيع القارئ ان يرجع إليها حين يشاء . والمهم أن نسجل أن رسالة الصاحب جرأت النقاد على المتنبى وفتحت لهم باب القول ، حتى ليمكن الحكم بأن ما ورد فيها من المآخذ كان المصدر الأول لاكثر المطاعن التى صوبها النقاد إلى المتنبى .

وللقارئ أن يسأل : أكان من الممكن ان تستر هفوات المتنبى لو سكت عليها العسكرى والصاحب ابن عباد ؟ ونجيب بأن تلك الهفوات كانت ظاهرة ، وما كان يمكن أن يسدل عليها الحجاب . ولكن تلك الدسائس الادبية كشفتها بطريقة جارحة . وأحاطتها بألوان من السخرية والتهكم والاستهزاء .

وقد مر ذكر المهلبى فى مطلع هذا الفصل . فلنشر هنا إلى أن ترفع المتنبى عن مدح المهلبى كان له من العواقب ما يشبه ما حدث حين ترفع عن مدح ابن عباد ، فقد أولع الحاتمى بالوقوع فى المتنبى و لم يكن ذلك خدمة خالصة للأدب ، وانما أريد به التقرب إلى المهلبى .

فإن سألتم : وما الذى صنع الحاتمى ؟ فإنا نجيب بأنه طعن المتنبى طعنة دامية حين ألف (الرسالة الحاتمية) وهى سهم مسموم ، لأنه رد حكم المتنبى إلى أصولها فى كلام ارسطاليس . فاستطاع بذلك أن يفضحه فضيحة بلقاء .. قد تقولون : ولكن المتنبى بقى مع ذلك من الخالدين .

وهذا حق . ولكن أولئك النقاد سيخلدون أيضًا . وستظل أرواحهم تضايق روح المتنبى ما دامت الأرض والسماء .

* * *

فى الطريق إلى الوحدة العربية(*)

للدكتور زكي مبارك

نص الخطاب الذى أرسله الدكتور زكي مبارك ليلقى فى مؤتمر الخريجين بأم درمان)

أخى الأستاذ رئيس مؤتمر الخريجين .

إليك وإلى إخوانى عندك أقدم أصدق التحيات ، ثم أذكر مع الأسف أن المنهاج الذى رُسِم لحضورى وحضور الأستاذ « الزيات » لزيارة السودان لم يظفر بالتحقيق ، فقد قضى الأستاذ « الزيات » أسابيع بالمنصورة وهو مريض ، ثم منَّ اللّه عليه بالعافية بعد فوات الوقت الذى يسمح بتأهبه لحضور مؤتمركم المرموق . أما أنا فقد صدَّتنى شواغل لو عرفتموها لأكرمتمونى بالصفح الجميل . فلم يبق إلا أن أرسل إليكم هذا البحث ليلقيه الأستاذ « محمد حسنين مخلوف » بالنيابة عنى ، أو يلقيه أديب من الخرطوم أو من أم درمان ، وسينشر هذا البحث فى « الرسالة » مع أيام المؤتمر ، ليكون تحية جهرية تؤيد بها مصر جهادكم النبيل .

فماذا أريد أن يذاع باسمى فى ناديكم بأم درمان ؟

أريد أن أتحدث عن العقبات التى تعترض السائر فى الطريق إلى الوحدة العربية بلا مواربة ولا تلميح ، لأنى أومن بأن عندكم من الفتوّة ما يوجب الخروج على الرموز فى مثل هذا الشأن الدقيق ، ولأنى أفهم جيدًا أنكم من طلائع الجيل الجديد ، ومن الإساءة إليكم أن يرسل إلى ناديكم كلامٌ ملفوف تُعوزه صراحة الصدق وشجاعة الإيمان .

ثم أواجه الموضوع فأقول :

كثُر التحدث فى هذه الأيام وقبل هذه الأيام عن « الوحدة العربية » وذلك يشهد بأنها كادت تصبح من الغايات القومية فى الشرق العربى ... وهل يمكن أن تدور «فكرةٌ» على ألسنة الملايين من العرب، بدون أن يكون لها فى قلوب تلك الملايين مكان؟

إن هذه الفكرة لم تدُر على الألسنة إلا بعد أن تأصلتْ فى القلوب ، فماذا نصنع لوقايتها من العواصف التى تثور من حين إلى حين ؟

نترك السياسة جانبًا ، السياسة الدولية ، وننظر إلى هذه الفكرة من الوجهة القومية ، فمصايرُنا بأيدينا ، واللّه لا يفكر ما بقومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ، وإذا سلمت ضمائرنا

(*) مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤١/١٠/٢ .

من الزيغ والانحراف فلن تستطيع أية قـوة فـى الأرض أن تصدنـا عمـا نريـد لأنفسنا مـن السداد والتوفيق .

والعقبة الأولى فى طريق الوحدة العربية هى عقبة الجنس فكثيرٌ من النـاس يتوهمـون أن الرجل لا يكون عربيًا إلا إذا كان من أصلٍ عربىٍّ صميم ؛ وهذا خطأ فـى خطـأ وضـلال فى ضلال ، فالعربىُّ الحق هو من انطبع على لغة العرب ولو كانت أصوله من المكسيك ، ولا يجوز عندى أن ينتسب إنسان إلى العرب وهو لا يعرف من أسـرار لغتهـم غـير أوهـام وظنون ، ولو قدّم الوثائق التى تثبت أنه من سلالة الرسول .

العروبة لغة لا جنس . العروبة لغة لا جنس . العروبة لغة لا جنس .

ولو شئت لكررت هذه العبارة ألف مرة ، بـدون أن أشعر بأنهـا حديـث معـاد ؛ لأن روحى يحس كل حرف من حروفها إحساسًا قويًا ، ولو كررتها ألوف المرات .

وإذن فمن واجبى أن أثور على من يقسم بلادنا إلى أجناس وبلادنـا هـى جميـع البـلاد التى تتكلم العربية فى الأقطار الأفريقيه والأسيوية .

فجميع أهل مصر والسودان عرب ، وسكان أفريقيا الشـمالية عـرب ، والفلسـطينيون والسوريون واللبنانيون كلهم عرب والعراقيون جميعًا عرب ، والهنود الذين يتكلمون لغتنـا عرب وأهل فارس فـى أصولهـم عـرب ، لأنهـم نهضـوا بلغتنـا المحبوبـة مـن أجيـال طـوال والأستاذ سلامة موسى عربى ، وإن كان يخاصمنى من وقت إلى وقت حول مكانة العرب فى التاريخ ، بل هو سليم العروبة إلى أبعد الحدود لأنه يتجنى على العرب بلغـة العـرب ، وعروبته أصح عندى من عروبة من صح نسبه إلى يعرب وليس له فى اللغة العربية وجود .

العروبة لغة لا جنس ، فليفهم هذا دعاة الوحدة العربية إن كانوا صادقين .

وسيأتى يوم ندعو فيه مواطنينا إلى الاندماج فى الكتلة العربية ، وأريد بهم المستشـرقين من أبناء الألمان والروس والفرنسيس والإنجليز والطليان والأسـبان ، فـأولئك إخواننـا حقًـا وصدقًا ، وإليهم يرجـع الفضـل فـى تشـجيع الدراسـات العربيـة ، وإحساسـهم بالعروبـة أصدق من إحساس العـرب الذيـن غفلـوا عـن إدراك مـاضى أسـلافهم فـى خدمـة الأدب الرفيع.

العروبة لغة لا جنس ، فليتق اللّه بعض الناس ، وليعتبروا بحوادث التاريخ . فمـاذا دوَّن التاريخ ؟

دون التاريخ أن « أمبراطورية اللغة العربية » تمزقت بسـبب الاعـتزاز بـالجنس ، وهـذا الاعتزاز الطائش هو الذى خلق الشعوبية ؛ أقسم الفردوسـى لينظمـن الشـهنامة بـدون أن

يحتاج إلى لفظة عربية ، وبسببه جلا سلطان اللغة العربية عن بلاد كان لها فى دماء أبنائها مكان . وبسبب مقالة حمقاء كتبها كاتب أحمق فى فضل العرب على الأتراك أقسم أتاتورك ليهجرن الحروف العربية . وبسبب هذا الاعتزاز الطائش عاشت لغات فى المغرب والشام والعراق ، لتصد الطائشين من العرب عن القول بأن لغتهم أحسن اللغات ، وبأنها ستكون لغة الناس جميعًا فى « دار الخلود » كأن العرب وحدهم أبناء آدم ، وكأن من عداهم وحوش لبسوا أثواب الرجال !!

العروبة لغة لا جنس . وهل كان جان جاك روسُّو فرنسى الأصل ، وبفضل بيانه الساحر نهضت لغة الفرنسيس ؟

العروبة لغة لا جنس . وهل كان أحمد شوقى عربى الأصل وهو من طلائع النهضة الشعرية فى الأدب العربى الحديث ؟

العروبة لغة لا جنس . وهل كان وهيب دوس عربىّ الأصل وهو أصدق من عرفت فى التغنى بأشعار العرب من قدماء ومحدَثين ؟

وهل كان مكرم عبيد عربىّ الأصل وله خطب طوال تذكّر بخطب سحبان ؟

ليتّق اللّه بعض الناس فى ميراث العروبة ، وليحذروا من أن يخربوا بيوتهم بأيديهم ، عن علم لا عن جهل ، وزلة العالم أبشع الزّلات .

وما الموجب لأن يكون فى الدنيا عربٌ خلَّص ؟

لو اقتصر العرب على التزاوج فيما بينهم لبادوا وانقرضوا ، فما انطوتْ أمةٌ على نفسها إلا استهدفت للفناء .

وهل استطاع العرب أن يسيطروا على العالم حينًا من الزمان إلا بسبب التخلص من العنجهية الجنسية ؟

إن التحرر من ربقة الجنس هو البَنْد الأول من وصية الزعيم العربى الأول ، وهو محمد بن عبد اللّه الذى مكّن العرب من سيطرة عالمية لم تخطر لأسلافهم الأقدمين فى بال ، وهى سيطرة روحية لن يظفروا بمثلها إلا إن تخلقوا بأخلاق ذلك الزعيم الحصيف .

العربىّ الصحيح النسب إلى يعرب قليل الوجود ، وهو حين يوجد لا يكون إلا جسدًا هامدًا لا نفع فيه ولا غَناء ، لأن التزاوج بين الأجناس شريعة طبيعية ، ولا يخرج على تلك الشريعة إلا من كُتب عليهم الأفول .

إن نبيكم صاهر أممًا لا تمت إلى العروبة بجنس ولا دين ، فهل تتوهمون أنكم أهدى منه إلى سواء السبيل ؟

اتقوا اللّه فى أنفسكم وفى ماضيكم ، وتمسَّكوا بشمائل ذلك الرسول لتفوزوا كما فاز أسلافكم الماجدون ، واتقوا حاضركم فتنًا لا يتعرض لشرها إلا الجهلاء والأغبياء .

العروبة لغة لا جنس ، فافهموا هذه الحقيقة يا بنى آدم من أهل هذا الجيل .

أما العقبة الثانية فى طريق الوحدة العربية ، فهى عقبة الدين ؛ فقد توهم قومٌ أن العروبة والإسلام شىء واحد ، وبذلك كَثُر ارتيابهم فى صحة الأخوّة العربية ، حين يتصل بها ناس من غير المسلمين .

والحق كل الحق أن العروبة والإسلام شىءٌ واحد ، على شرط أن نفهم المراد الصحيح لهذا التعبير المريب .

الإسلام هو أصدق أثر صدَر عن العرب ، ولولا الإسلام لبادت لغة العرب منذ أزمان طوال .

وإذن ، فمن واجب العرب من غير المسلمين أن ينظروا إلى الإسلام بعين الرفق والعطف لأنه صوتهم وصوت آبائهم وأجدادهم فيما غبر من الأجيال ، وإن لم تأنس آذانهم بذلك الصوت الجميل بفضل تناحر المذاهب والديانات ، وهو تناحر لن يقدر على طمر ذلك الينبوع الفياض .

ذلك واجب العرب من غير المسلمين ، فما واجب العرب من المسلمين ؟

واجبهم أن يفهموا أن النصرانية واليهودية ديانتان عربيتان . وهل نكون أعقل وأحكم من النبى محمد وقد نظر إليهما بعين الإعزاز والتبجيل ، ولم يحارب غير من شوهوا النصرانية واليهودية بالتزوير ، والتحريف ؟

للإسلام والنصرانية واليهودية مسرح واحد هو بلاد العرب ؛ وهذه الديانات هى سلطاننا الأدبى فى الشرق والغرب ؛ وهى حجتنا يوم تُطلب الحجج على تفوق بعض الشعوب على بعض . ولعل هذا هو السبب فى أن أكابر المسلمين فى العصور الخوالى لم يفتهم أن يدونوا ما فى التوراة والإنجيل من حكم وأمثال .

إن من المعجزات أن تكون أعظم الديانات المسيطرة على العالم ديانات عربية الأصل ، فمن طاب له أن يغمز إحدى هذه الديانات فهو عربى مدخول ، لأنه لا يعرف أثرها فى التنويه بمجد العرب فى العالمين .

الرأى عندى أن الروحانية العربية تطورت من حال إلى أحوال فانتقلت من الموسوية إلى العيسوية ثم إلى المحمدية . فهى قد تغيرت فى الفروع ، مع الاحتفاظ بالأصول . والأصل الأصيل عندنا وعندهم هو التوحيد ، والتثليث الذى أنكره القرآن على النصارى

لم يكن إلا صورة حرفية من صور الإغراق الذى أولع به بعض أنصار المسيح ، وهو إغراق ينكره النصارى المستنيرون فى هذا الزمان .

إن القرآن يلاطف مخاصميه فيقول : « إنا أو إياكم لعلى هدًى أو فى ضلال مُبين » .

وعقيدة التثليث لم توجد بعد عدم ، فهى فى الأصل عقيدة مصرية ، وعلى ذلك تكون جزءًا من ماضينا ، ونحن لن نتنكر لأجدادنا أبدًا وإن قيل فى عقائدهم ما قيل .

ثم أثب إلى الغرض الذى أرمى إليه فأقول : إن الإسلام يحكم بالكفر الموبق على من يمس شخصية موسى أو عيسى بسوء ؛ فمتى ننتظر أن تكون شخصية محمد شخصية قدسية فى البيئات المسيحية والاسرائيلية ؟ متى ؟ متى ؟ ومحمد أوصى أصحابه بأن ينظروا إلى موسى وعيسى بعيون لا ترى غير الجميل .

وخلاصة القول أن اختلاف الديانات لن يعوق الأخوة العربية إذا صحت النيات ، لأنه اختلاف أراده صاحب العزة والجبروت ، وله فى إيقاظ الحيوية العربية تاريخ أو تواريخ .

قد يصير العرب جميعًا إلى دين واحد بعد جيل أو جيلين أو أجيال ، فليكن لهم منذ اليوم أدب واحد هو التآخى الصحيح ؛ فمن المؤكد أن المسلمين لن يسمحوا بهدم كنيسة أو كنيس إن تمّ لهم الفوز المطلق ، لأن معابد النصارى واليهود عنصر أصيل من عناصر الروحانية العربية ، ومن قال بغير ذلك فهو آثم فى حق « الوحدة العربية » وهى فكرة دعا إليها نصارى الشام والعراق قبل أن يدعو إليها المسلمون ، ولذلك أسباب فصلتها قبل اليوم بإسهاب .

قيل ألف مرة : « إن الدين للّه والوطن للجميع » ولو تدبرتم لعرفتم أن الدين لنا أيضًا، واللّه لا ينظر إلى الصور ولا إلى الأعمال ، وإنما ينظر إلى القلوب .

وخلاصة الخلاصة فى تحرير هذه القضية أنه يمكن للرجل أن يكون عربى اللسان والذوق والعصبية ، ولو كان من أعداء الدين لأن العروبة لغة وليست بجنس ولا دين ، وإن كان من المفهوم أن القرآن هو سفير اللغة العربية إلى مختلف الشعوب . ومن واجب العربى غير المسلم أن يفرح لسيرورة القرآن فى المشرقين لأن سيرورته من أقوى الحجج فى نصرة القضية العربية .

والقائلون بأن اللغة العربية لغة المسلمين لا يخدمون الإسلام بهذا القول ، وإنما يعدون عنه أنصارًا أمدته بهم جاذبية اللغة العربية . والشواهد تنطق بأن النصارى من العرب والمستعمرين أدوا للإسلام خدمات يعرف أقدارها عقلاء الرجال .

فى الدنيا معنّى يسمى الديلوماسية السياسية ، فلم لا يكون عندنا ديلوماسية إسلامية كالذى كان عند أسلافنا الأمجاد ، يوم كانت عقولهم تدعوهم إلى تألّف من يخالفونهم فى الدين؟

* * *

أما العقبة الثالثة فى الطريق إلى الوحدة العربية فهى اجترار حوادث التاريخ ، ولتوضيح هذه النقطة أقول :

كان أبناء العرب قد اختلفوا فى أشياء مذهبية وسياسية وجنسية ، وهو اختلاف مشؤوم عاد عليهم بالوبال ، وكانت عواقب الأقطار المصرية والمغربية والسورية والعراقية، ونال من قوة العروبة أضعاف ما نالت فوادح الخطوب ؛ فمن واجبنا أن نبالغ فى تناسى ذلك الاختلاف إلى أن ننساه ، فإن لم نستطع فلننظر إليه بعين العقل ، ولنفهم أنه اختلاف قضت به ظروف لا يصح أن نحمل جرائرها بحال من الأحوال .

كان بين الأقباط والمسلمين فى مصر نزاع وقد محتها الأُخوَّة الوطنية ، فما الموجب لإحياء ذلك النزاع ؟ وكان بين السنة والشيعة فى العراق شقاق ، وقد محته الأخوّة القومية فكيف يستبيح عاقل إحياء ذلك الشقاق ؟ وكان فى البلاد السورية خلاف أثارته النزعات المذهبية ، وقد خمد ذلك الخلاف بفضل الأُخوة العربية ، فكيف يصح لإخواننا هناك أن يوقظوا ذلك الخلاف ؟ وكان فى الأقطار المغربية قتال أرثتْ ناره العصبيات الجنسية ، ثم أخمدته الأُخوة الإسلامية ، فكيف يجوز بعث أسباب ذلك القتال ؟

إن من الجرائم المنكرة أن نرى نعيق المفسدين يتصايح من وقت إلى وقت بدون أن نقضى عليه بحزم الرجال !

يجب أن نُفهم المفسدين أنهم حبائل الشيطان ، وأننا لا نجهل السر فى حرصهم على إذاعة ما يدّعون من مبادئ وآراء ؛ فهم جماعات من العاجزين عن طلب الرزق من وجهه الصحيح ، ومن كانوا كذلك فمن واجبهم نحو بطونهم أن يلبسوا ملابس الدعاة إلى الحق، والحق منهم بَرَاء !

كل دعوة إلى الفُرقة لها سبب تعرفه أمعاء المفسدين ، والرجل الصادق فى الدين والوطنية لا يرضيه أبدًا أن يثور بين قومه خلاف يصل إلى تمزيق الأواصر والصلات .

ولن نستطيع رفع القواعد من بناء الوحدة العربية إلا إن ضمّنا السلامة من مكايد الذين يؤذيهم أن تزول أسباب الخلاف ، ومن الخلاف تمتلئ بطونهم الخاوية ، قاتَلَهم اللّه أنى يؤفكون !

* * *

وهنالك عقبة رابعة هى غفلة الصحافة عن رعاية الوحدة العربية ، وفى شرح هذه النقطة أضرب بعض الأمثال :

كاتب مصرى يقول : إن مصر أفضل الأمم العربية .

وكاتب سورى يقول : إن المصريين ليسوا بعرب وإنما فراعين .

وكاتب عراقى يقول : ليس للعروبة وطن غير العراق . فأمثال هؤلاء الكتّاب يجب صلم آذانهم بدون ترفق ، لأنهم دعاة الفُرقة والشتات .

وأنا أقبل أن يجرِّح المصريُّ مصرى ، ولو بسوء نية ، ولكنى أرفض أن يجرّحها أحد إخوانى فى الشام أو العراق ، ولو بحسن نية ، وكذلك الحال هنالك ، فالسوريون والعراقيون يقول كلٌّ منهم فى بلده ما يشاء ، ولكنه يغضب ويثور حين يغمز بلده فى جريدة مصرية ، ولو كان الكاتب أصدق أنصار الوحدة العربية .

وفى هذا المقام أذكر أنى عاديت رجالاً من أهل لبنان لأنهم قالوا فى مصر كلامًا لا يقاس إلى بعض ما أقوله فيها من حين إلى حين .

وقد اطلعت وأنا طالب فى السوربون على جريدة لبنانية تشكِّك العرب فى مركز مصر الأدبى ، فحفظت تلك الجريدة ، ونقلتها مع أمتعتى من باريس إلى القاهرة ، ومن القاهرة إلى بغداد ، وقد مزقت ما مزقت من الجرائد والمجلات لأخفف العبء عن مكتبتى بعض التخفيف ، ثم ظلت تلك الجريدة فى أمان من التمزيق ، لأرد عليها بعنف حين تسمح الظروف .

يقع منى هذا الحمق ، مع أنى أدَّعى لنفسى حرية العقل ، فكيف يكون الحال عند إخوانى فى سائر الأقطار العربية إذا تعرضت بلادهم لكلمة سوء تصل من خارج الحدود الجغرافية ؟

من المؤكد أننى لم أتفرد بهذه النزوة العقلية ، فالعراقى يقبل أن تُشتم بلاده فى جريدة عراقية ، ولكنه يرفض أن تُغمز فى جريدة سورية أو مصرية . واللبنانى يجرّح وطنه من وقت إلى وقت ، ولكنه يثور على ذلك التجريح إذا صدر عن جريدة مصرية أو فلسطينية أو عراقية .

هذه نقطة حساسة جدًا فلنراعها أتم المراعاة فى جميع الظروف ، ولنفهم أن إخواننا فى غير مصر لهم قلوب يؤذيها التحامل ولو بالرمز والإيماء .

* * *

أما العقبة الخامسة فهى انصراف أبناء العرب بعضهم عن بعض ، فى الظروف التى توجب التعاضد والتساند والمواساة ، ولو بالكلام ، وهو لا يكلفنا كثيرًا ولا قليلاً من العناء .

إن كلمة وجيزة تُكتب فى جريدة مصرية طبًّا لجرحٍ تعانيه إحدى البلاد العربية يقع موقع البلسم الشافى لذلك الجرح ، فما بخلُنا بمثل تلك الكلمة ، وهى أهون ما فى الدنيا من تكاليف ؟

وقد تلطفت المجلات السورية واللبنانية والعراقية فأخرجت أعدادًا خاصة فى التنويه بالثقافة المصرية ، فماذا صنعت مجلات مصر فى رد ذلك الجميل ؟ بل ماذا صنعت هذه المجلات فى التنويه بمؤتمر الخريجين فى السودان ، والسودان أخو مصر الشقيق ؟ يجب أن ترفع غشاوة الغفلة عن بعض العيون ، ليصح لمصر أن تقول إنها الدعامة الأساسية للوحدة العربية ، وهى كذلك لو أرادت ، فما هذا الصمت ؟.

مصر تعمل ولا تتكلم ، فهى بالفعل سناد الوحدة العربية ، وهى بالفعل حصن العرب الحصين ، فكيف تبخل بكلمة تعلن بها أن أرض مصر ملكٌ ورثه العرب عن الفراعين ؟

يستطيع أى بلد أن يكفر بالعروبة حين يشاء إلا مصر ؛ فما يجوز لها أن تتخلى عن مجد بنته بأيديها فى عصور الظلمات ، حين كانت العروبة من خيالات الأوهام والظنون بعد سقوط بغداد بأيدى المغول .

أما بعد فهذه كلمتى إلى مؤتمر الخريجين فى السودان ، وهى كلمة تلخص آرائى فى العقبات التى تعترض طريق الوحدة العربية ، وقد أوردتها صريحة منزهة عن الرمز والتلميح، لأنها ستلقى على فتيان صراح هم شبان السودان ، أعزنى اللّه بودهم الوثيق .

وهل تستطيع هذه الكلمة أن تغفر ذنوبى فى التقصير نحو ذلك القطر الشقيق ؟

ذلك جهد المقل ، وجهد المقل غير قليل ، وسأزور ناديكم بعد أسابيع ، فما يرضى اللّه أن أعيش بعيدًا عن مصادر الوحى فى أعالى النيل .

* * *

آباؤنا وأمهاتنا وأبناؤنا(*)

للدكتور زكى مبارك

بعد منتصف الليل من هذا المساء (٢٩ / ٨ / ٤٣) وسوس الهتّاف من جريدة الأهرام:

- ألو ، ألو !

- خير ، من المتكلم ؟

- صالح البهنساوى ، هل أزعجتُك بالحديث فى مثل هذا الوقت ؟

- لم تزعجنى ، ويسرنى أن أسمع صوتك ، فما عندك من الأخبار ؟

- عندنا خبر يقول : إن والدة الأستاذ الزيات ماتت ، وأردنا أن نعرف منك مبلغ هذا الخبر من الصحة قبل أن ننشره فى الوفيات .

- لم أسمع هذا الخبر إلا منك ، فلا موجب لنشره قبل التثبت ثم رجعت إلى نفسى أسأل عن مواساة الأصدقاء بعضهم لبعض ، فقد كان يجب أن أكون أول من يعرف هذا الخبر إن كان صحيحًا ، لأحضر دفن السيدة التى أنجبت هذا الصديق ، ولأشترك فى مواساته مع الأقربين .

وحانت منى التفاتة إلى الماضى يوم ماتت أمى ، فقد طلبتْ بإلحاح أن ترانى قبل أن تموت ، وكان أبى يسوِّف لأنه يعرف أنى أؤدى أول امتحان فى الجامعة المصرية ، وكانت النتيجة أن تدفن وأنا غائب ، وأن تبقى الحسرة على أن لم أحمل نعشها على كتفى .

هل كان أبى يعرف أن توديع أمى فى لحظاتها الأخيرة أحبّ إلىّ من جميع المغانم العلمية ؟

لو أنه عرف لأعفانى من لوعة سأعانى نيرانها إلى آخر أيامى وقد لطف اللّه بأمى فماتت قبل أن يموت أخى سيد بنحو سنتين ، فلم تشهد فجيعة الدار فى موت فتًى لم ينتصر عليه قاهر غير الموت .

دخلت على أخى سيد وهو فى الحشرجة فنهض من فراشه ليقبّل يدى ، ثم أسلم روحه إلى بارىء الأرواح .

(*) مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٣/٩/١٣ .

وكانت الفجيعة الأخيرة هى موت أبى ، ولكنها فجيعة نفعتنى أجزل النفع ، فقد هوّنت الدنيا فى نظرى حين صورتها بالصورة الحقيقية ، صورة الصحراء التى لا تضمن لسكانها من الضراغم غير الفناء .

وهل تعزيت عن أبى وقد طال الفراق ؟

أريد أن أخفف لوعتى فأذكر أنه عاش ما عاش وهو يعتقد أننى أوفى الأبناء : فما راجعته فى كلمة ، ولا رفضت له نصيحة ، ولا استجزت المخالفة عن أمره فى شأن من الشؤون .

كنت ابنًا بارًّا بأبيه ، وكان يرى بأبى يتمثل فى صورة لم تَخْف عليه ، فقد سمعت أنه تحدث بها إلى بعض الأصدقاء ، وهى أنى أخفى عنه همومى وأحزانى ، فما بات ليلة وهو مغموم بسببى ، ولا وصل إليه حزن من طريقى ، ولا عرف أن الأبناء قد يكدرون حياة الآباء .

والحق أنى كنت أراعى معنًى هو غاية فى الخفاء ، ومراعاة هذا المعنى كان أعظم عمل أديته فى حياتى ، فما ذلك المعنى الدقيق ؟

كانت الأقدار قضت بأن تمزّق أملاك جدّى كل ممزّق ، فلا يبقى منها غير أوشال ، وكان أبى آخر العنقود ، فلم تكن له مندوحة من أن يجاهد ليستبقى ومضات من الذهب المضاع .

كان أعمامى جبابرة وكانوا قساةً وطغاة ، وكانوا أيضًا منجبين ، فلا يمشى الرجل منهم إلا وهو موصول الجناح بأبناء أشداء ، فماذا يملك أبى فى مقاومة أعمامى ؟

لقد ناضلهم وحاربهم ، واستطاع أن يستخلص بضعة فدادين يعيش من ريعها عيش الكفاف ، إلى أن يجود اللّه بالغِنى حين يشاء .

وكانت دار أبى هى الدار التى مات فيها جدى ، لأن جدتى كانت آخر زوجاته الغاليات ، وفى تلك الدار نشأت ، فماذا رأيت ؟

كنا نستيقظ على زلزال يتمثل فى سقوط إحدى القاعات ، فيخفّ إلينا الجار الأقرب وهو عمى الشيخ سيد أحمد وبيده فانوس ومعه أبناؤه ليعاونوا على رفع الأنقاض .

كانت أخطر فاجعة تهون على أبى ما دامت بعيدة عنى .

هل أستطيع تأدية واجب الوفاء لأبى ، ولو نظمت فى رثائه ألف قصيد ؟

وفى إحدى العصريات دخلت الدار فوجدت أمى تخرج وهى مذعورة ، فماذا وقع ؟

كانت أمى رأت ثعبانًا فى أبراج الحمام فغزته بالنار ليختنق ، فامتدت النار إلى سقوف الدار فحوّلتها إلى نيران .

وفى لحظة أو لحظتين بدت شهامة أهل سنتريس .

لقد تجمعوا من كل جانب رجالاً ونساءً ليخمدوا تلك النيران بالماء والتراب .

وماذا يملك أولئك الأوفياء ؟

لم يكن فى بلدنا غير آبار معدودات ، فكان من الصعب إخماد نيران لا يخمدها غير البحر المحيط ، وكانت العاقبة أن يحترق البيت من جميع الجوانب وأن يمسى بلا سقوف ، مع قسوة الشتاء .

ونظر أبى فرآنى بعافية ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم جلس على مصطبة المضيفة وهو فى غاية من الاطمئنان .

وفى أعقاب السهرة الجيّاشة بكلمات المواساة سمعنا ضجيجًا لم يخطر فى البال فى مثل تلك الحال ، فما ذلك الضجيج ؟

رأينا جماعة العيسوية تغزو دارنا بركائب محملة بأقوات تكفينا عشر سنين ، فوقف أبى وقال : إن باب الدار لم يحترق ، وسأغلقه إن لم ترجعوا مشكورين .

كان مقام أبى فى تلك الليلة مقامًا رهيبًا ، فقد أتت النيران على جميع الأشياء ، وتركتنا بلا قوت ، وإن لم أذكر أنى نمت فى تلك الليلة بلا عشاء .

ما الذى كان يمنع من أن يَقبل أبى مواساة أعمامى ؟

منعه الخوف من أن يمنّ عليه أخٌ أو صديق فى الأيام المقبلات .

كان أعمامى كرامًا برغم ما أرادت الأقدار فى تحيّف ما ورثوا من الثراء العريض ، ولكن أبى رفض معروف إخوة سيحاربهم أو سيحاربونه بعد يوم أو يومين .

تَمثَّلتْ لى متاعب أبى فى حياته حين شببت عن الطوق ، فقررت إعفاءه من التعب إلى آخر الأيام من حياته الغالية .

أردت أن أكون لأبى ابنًا وأخًا وصديقًا فكنت ، وقد محوت عن صدر أبى تلك السطور السُّود ، سطور الشقاء بالأهل والأقرباء .

هل عرف أبى أن له ابنًا تمتحنه الحياة ؟

لقد أخفيت همومى عن أبى فكانت تصل إليه وهى أساطير ، وكان لا يتوهم أن كيد الدنيا يصل إلى من يكون فى مثل عنفوانى .

وأنا الرجل الذى عرفه أبى ، فلتحاربنى الدنيا الغادرة إن كانت تطيق .

لم أنس يومًا أن أبى تعب فى شبابه حتى شبع من التعب ، ولم أنس لحظة أن تكدير كهولته بسببى قد يكون إثمًا موبقًا يكدر ما أرجو لحياتى من صفاء ، ولهذا المعنى حرصت

على أن يرانى باسمًا فى كل وقت ، وأن يرانى غنيًا عن الناس فى جميع الأحايين ، وهل يفتقر المؤمن إلى الناس ؟

لم تكن الدنيا سمحت بأن تخلو حياتى من متاعب ، ومع هذا أخفيت عنه جميع آلامى، فلم يتصورنى إلا رجلاً خَلَتْ حياته من المصاعب والأهوال .

كان سلوكى مع أبى سلوكًا هو الصورة المنشودة لأدب النفس ، ولعل اللّه يتفضل فيتقبل دعواته الطيبات وهو يعانى مرض الموت ، فما مات أب راضيًا عن ابنه كما مات أبى وهو راضٍ عنى .

وهنا أتذكرُ أشياء تعدّ من الغرائب ، أشياء متصلة بحياة أمى ، فما تلك الأشياء ؟

كانت أمى تفرح بالمرض أشد الفرح ، لأنها كانت تؤمن بأن دعاء المرضى دعاءٌ مستجاب ، فكانت تقضى لياليها الأليمة فى دعاء اللّه بأن يجعلنى من الموفقين . كانت تدعو اللّه وهى توقن أنه يسمع ويجيب ، ولم يخطر فى بالها أبدًا شىء مما يخطر فى بال أهل الارتياب .

كانت أمى سيدة مؤمنة ، وكان إيمانها موروثًا عن أمها وأبيها ، وكانا زوجين قانتين لا يعرفان غير فاطر الأرض والسماء .

ومع أن المألوف فى كل أرض أن الأم لا تستريح كثيرًا إلى زوجة ابنها ، فقد كانت أمى تحببنى فى زوجتى ، وتصفها بأجمل الأوصاف ، وتخصها بكثير من الدعوات ، بحيث عُدّ سلوكها من أندر ما يقع فى حياة النساء .

وكذلك كان حال جدى لأمى ، فقد كان حين يزور دارنا بعد صلاة العيد يبدأ بالسؤال عن زوجات أبى ، سؤال الوفاء لا سؤال الرياء ، ثم يدعو اللّه أن يديم عليهن نعمة العافية والقبول .

أما أمر أبى فى تربيتى ، فكان عجبًا من العجب ، كان لا يتناول طعامًا بدون أن أشاركه فيه ، ولو كان طعامًا أعدته له إحدى الزوجات المحظيات .

كنت أدخل الدار مع الليل ، والشِّواء يفوح والنوم فى جفونى ، فآوى إلى مضجعى وأنا أرجو أن يعفينى أبى من مشاركته فى عشائه المرموق ، ولكنه لم يكن يتناول طعامًا بدون حضورى ولو كان تحفة عروس .

من الذى أوحى إلى أبى ما غاب عن كبار المربين ؟

كان أهلى يقولون إن الطفل يحتاج إلى تأسيس ، وكانوا يرون أن الطفل المؤسَّس يعيش فى قوة إلى آماد طوال .

ثم دارت الأيام واستقللت عن أبى كل الاستقلال ، فقد أكرمه اللّه بالعيش إلى أن يرانى رجلاً له أهل وأبناء وأملاك ، ومع هذا كان يرانى ضيفة حين أزور سنتريس ، ويبالغ فى الكرم فلا يتركنى لحسن الفهم فى رعاية ضيوفى ، وإنما يتقدم فيكرمهم بأسلوبه الجميل ، أسلوب الرجل المفطور على السخاء الفضفاض .

ولن أنسى أنه كان يناجى المسيو دى كومنين مناجاة الرفيق للرفيق ، مع أن لغة التفاهم غير موجودة بأى شكل ، فكان من ذلك دليل على أن الألسنة أقل إفصاحًا من القلوب .

كان لى أب وكانت لى أم ، وأنا اليوم يتيمٌ كهل ، واليتيم الكهل أعرف باليُتم ، كما قال أخونا الأستاذ محمد الهراوى ، طيّب اللّه ثراه !

أما بعد فأنا لا أوصى باجترار الأحزان ، ولا أدعو إلى أن نطيل البكاء على آبائنا وأمهاتنا ، فذلك يؤذيهم فى عالم الأرواح وإنما هى لوعة نزجيها كارهين لا طائعين ، وهى على قسوتها دون ما يجب فى تسجيل الوفاء .

ثم ماذا ؟ ثم يكون الحديث عما نفقد من أبنائنا ، وأنا ذقت مرارة الثكل مرات ، إلى أن لطف اللّه فأعفانى من ذلك العناء وسيتفضل جل شأنه فيرحم جفونى من دموع الثاكلين ، لأنه أرحم الراحمين .

ومن واجبى نحو قرائى أن أدلهم على المذهب الذى سلكته فى ذلك الجحيم :

حين ذقت الثكل أول مرة رأيت له طعما متفردًا بين طعوم الأحزان ، رأيته يقلقل أضراسى ويكاد ينقلها من مكان إلى مكان ، ورأيت تعزية المعزين تزيد أحزانى ، فقررت أن لا يقام للطفل الميت مأتم ولا عزاء ، وقررت أن لا أسمع بكاء أمه عليه ، وأن لا يُذكر اسمه فى البيت ، وأن يمضى إلى من وهبه ثم استرده بلا عويل ولا صياح .

كنت أقول : هو لنا عند اللّه ، فلنتركه ذخيرة تنفعنا يوم الحساب ، إن كنا مؤمنين .

والواقع أن هذه أعظم شجاعة بدت منى فى حياتى ، فالطفل لا يموت إلا بعد أن يتجلى تجليًا هو غاية فى الفتون ، فتكون حركاته وسكناته من الغرائب والعجائب ، ويكون تحفة طريفة تحول البيت إلى فردوس من أجمل الفراديس ، بحيث يقال فى وصفه إنه كان ابن موت ، وهذه عبارة مألوفة عند أهل الريف ، وهى غاية فى الصدق .

وبقليل من التأمل نرى أن الطفل الذى يموت بعد سنة يكون استوفى من الحياة سنوات وسنوات ، لأنه فى عمره القصير يستوفى من حظوظ دنياه فى المرح واللعب والابتهاج مالا يستوفيه كبار المعمرين . وهنا تكون الفتنة الدامية ، فذلك الطفل يَعد أهله وعودًا لا

تخطر فى البال ، فهو فى إشاراته وعباراته يؤكد بأنْ سيكون أعظم العظماء فى القديم والحديث .

وفى أقصر من لمح البصر يختضره الموت ، فتبقى له بوارق تذيب لفائف القلوب .

ماذا أصنع والأطفال الذين ثكلتهم كانوا كذلك ؟

قدرت أنهم عاشوا حتى شبعوا من العيش ، والعيش تعبُ فليستريحوا آمنين .

دفنت بيدى أطفالاً كانوا أعز علىّ من نفسى ، ولكنى لم أبك عليهم كما بكيت على أمى وأخى وأبى ، لأنهم لا يطالبوننى بالوفاء ، فقد اختارهم اللّه إلى جواره قبل أن يعرفوا الفرق بين البر والعقوق وما حاجة الأطفال إلى البكاء ؟

ألا يكفى أن اللّه أنجاهم من مكاره العيش ، فى دنيا أتعبت الأنبياء ؟ الدمع على الطفل الذاهب أغزر من الدمع على الكهل الذاهب ، فما الذى فاتهم من حظوظ البكاء ؟

بهذه السياسة فرضتُ على زوجتى أن تنسى الأطفال الذين فقدناهم فى مصر الجديدة وفى سنتريس ، فاكتفت واكتفيت بالشياطين الذين عاشوا ، وهم أبناء لم تمنعهم الشيطنة من أن يكونوا غاية فى أدب النفس وصفاء الروح .

إذا راعى الإبن واجبه نحو أبيه ، فما يضره إن نسى الواجب فى معاملة جميع الناس ؟

أنا لم أفعل خيرًا فى حياتى أفضل من الأدب فى معاملة أبى وأمى ، وقد جازانى اللّه فجعلنى فى عصمة من دسائس السفهاء .

الحجر الأول فى بناء الوطن هو الأسرة ، وأبنائى لا يحبوننى متفضلين ، وإنما يرون رجلاً يدبر لهم منافع لن يحتاج إليها قبل أن يموت ، ولو عاش عمر نوح ... وهل أعيش إلى أن أنتفع بما أدّبر لأبنائى ؟

ليت أبنائى يتأدبون بأدبى !

أنا أرى أن حيوية الرجل فوق الحدود ، والسر كله فى طاعة اللّه ، الطاعة التى يعرفها أصحاب العقول ، الطاعة التى تتمثل فى العمل الموصول بصدق وإخلاص .

كونوا يا أبنائى مثل البحر ، فهو قد يغضب فى كل وقت ، ولكن كل قطرة من قطراته تشتمل على حيوات عظيمات .

واذكروا دائمًا أنى لم أنل رضا اللّه بالمجان ، فقد نلت رضاه بكفاح يؤيد كرمه فى صحة بنيانى ، وأنا بحمد اللّه غاية فى صحة البنيان .

* * *

محمد أحمد جاد المولى[*]

للدكتور زكى مبارك

فى الساعة الثامنة من صباح اليوم حدثنى الأستاذ عبد اللّه الصفتى تليفونيًا بنبرات حزينة لم يتحدث بمثلها من قبل وهو يقول : عظَّم اللّه أجرك فى جاد المولى بك !

فقلت : « لا حول ولا قوة إلا باللّه » وكررتها نحو عشر مرات وأنا مأخوذ بصدمة لم تكن تخطر فى البال ، فقد كان جاد المولى بك فى صحة وعافية ، وكانت ملامح وجهه تنبئ بأنه لن يموت قبل التسعين أو الثمانين .

وأحدق الحزن بقلبى من كل جانب ، فقد تصورت ماضيه وماضىّ فى رعاية صداقة غالية كانت مضرب الأمثال ، بحيث اعتقد كثير من الناس أنه لم يصادق غيرى وأنى لم أصادق سواه ، فما وقع بيننا ما يوجب الملام فى محضر أو مغيب ، ولا سمع عنى أو سمعت عنه ما يستوجب العتاب .

كذلك تصورت ، وكذلك توهمت أننى فجعت فيه وحدى ، ثم كانت النتيجة أن يتبدد ما تصورت وما توهمت ، فقد رأيت جميع من فى وزارة المعارف يترحمون عليه ، ورأيت فيهم من بكاه بالدمع وهو الدكتور رياض .

زُلزلت وزارة المعارف لموت هذا الرجل ، وعدت فجيعتها فيه من الفواجع الفوادح ، وتمثّل الجميع ما كان عليه من شجاعة النفس ودماثة الأخلاق .

وأدّى رجال المعارف واجبهم نحو فقيدهم الغالى فبلّغوا نعيه إلى مدارس القاهرة ليشترك جميع المدرسين فى تشييع جثمانه إلى المقرّ الأخير .

وأردت أن أشترك فى توديعه ، ولكننى لم أستطع فقد عزّ علىّ أن أرى جاد المولى بك محمولاً على نعش ، وكان بالأمس ملء العيون والقلوب .

لم يبق إلا أن أودع هذا الرجل بكلمة تقرّب صورته إلى من جهلوه ، وما أكثر من جهلوه، والحكيم يعيش فى زمانه عيشة الغرباء .

بداية جميلة :

كان جاد المولى بك فى طليعة إخوانه بدار العلوم ، فأوفدته وزارة المعارف إلى انجلترا فى بعثة علمية ، وحين عاد أعجب به المغفور له حسن باشا عبد الرازق فاقترح على

---

[*] مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٢/٢/٢١ .

عظمة السلطان حسين كامل منحه رتبة البكوية ، وكانت تلك الرتبة لا تمنح للشبان ، فكان أول من نالها بفضل تفوقه وهو فى عنفوان الشباب .

ثم رأى أن يتعرف إلى الجمهور فألقى محاضرتين علنيتين عن الغزالى وابن خلدون ، فكان غاية فى الفهم لابتكارات هذين الفيلسوفين العظيمين .

وفى سنة ١٩٢٤ أرسلت إدارة الجامعة المصرية خطابًا إلى وزارة المعارف تدعوها فيه إلى تكليف أحد رجالها الاشتراك فى لجنة امتحان الدكتوراه فى الفلسفة بجانب الأستاذ عبده بك خير الدين ، وكان وكيل المعارف حينذاك عاطف باشا بركات ، فاختار جاد المولى بك ، ولهذا الاختيار قيمة نفيسة ، فقد كان عاطف باشا من أعرف الناس بأقدار الرجال .

كنت أنا الطالب الذى يؤدى امتحان الدكتوراه فى الفلسفة وكنت أنا الذى جهل أن وزارة المعارف رمتنى منه بداعية ، فقد وجّه أسئلة أثارت الجمهور وحملت الشيخ عبد الحميد اللبان والشيخ محمد الأبيارى على أن يغضبا غضبة إسلامية ، ولولا تلطف الدكتور منصور بك فهمى لانقلب ميدان الامتحان إلى ميدان قتال .

كان من رأى جاد المولى بك حين خلت اللجنة للمداولة أنها غير مسئولة عن آرائى فى كتاب الأخلاق عند الغزالى ، ولكن الدكتور منصور بك فهمى أقنعه بأن لجنة امتحان الدكتوراه لا تعرف غير شىء واحد هو قدرة الطالب على تأييد آرائه ولو انتهت إلى الضلال !

الزكى المتغابى :

كان جاد المولى بك غاية فى الذكاء ، وكان غاية فى التغابى ما أذكر أن مشكلة غاب عنه فهمها على الوجه الصحيح ، ولا أذكر أنه أخطأ الفهم لشأن من الشؤون .

كان يثق بى فيحدثنى عن آرائه فى المجتمع ، فأرى له مذاهب من الفكر تغيب عن أكثر الرجال .

شهيد الواجب :

بلغ جاد المولى بك سن التقاعد قبل شهور ، ولكن معالى الهلالى باشا رأى أن يقترح على مجلس الوزراء مدّ خدمته سنتين ، للانتفاع بخبرته التعليمية ، فبالغ جاد المولى بك فى نشاطه ليؤيد حقه فى ثقة ذلك الوزير الجليل وفى أحد أيام الأسبوع الأخير من شهر أغسطس الماضى كنت بحضرة الهلالى باشا فى مكتبه بالأسكندرية ، لأحدثه فى شؤون تستوجب لقاءه هناك .

وفى أثناء الحديث صلصل تليفون المعارف بالقاهرة ليقول الوزير للوكيل ما نصه بالحرف :

« يجب أن تنتهى حركة التنقلات قبل اليوم العاشر من سبتمبر ، ليعرف المدرسون إلى أين يتوجهون ... شغّل جاد المولى بك » .

وعند رجوعى إلى القاهرة رأيت من الأمانة أن أبلغ جاد المولى بك ما سمعت ، فطلب جميع معاونيه من إجازاتهم بالبرقيات لينجز حركة التنقلات بأسرع ما يستطاع .

والذى يعرف أن متاعب مدرسى اللغة العربية ليس لها حدود يعرف كيف يعانى من يحاول راحتهم من شديد العناء .

ضغطُ الدم قتل جاد المولى بك ، وهو مرض لا يصاول غير شهداء الواجب ... فعلى روح هذا الشهيد ألف تحية وألف سلام .

كان لهذا الرجل مغاضبات فى أعوامه الأخيرة ، ولكنه لم يغاضبنى فى أى يوم . كانت عبارته حين يلقانى : أهلاً بدكتورنا .

فسلام عليك يا أكرم أستاذ وأشرف صديق .

لو أنشأنا مليون مدرسة لما استطعنا أن ننشئ فتًى فى مثل أدبك وذوقك . ولو أنشأنا مليون قصيدة فى الرثاء لعجزنا عن كلمة الصدق فيك ، يا أصدق الأوفياء .

أكرمك اللّه وأعزك ، وجعلك من أهل الفردوس .

رفق ولطف :

كان جاد المولى بك رفيقًا جدًا بمعاونيه من المفتشين فلا يصدر رأيًا إلا بعد الاستئناس بما عندهم من آراء ، وكانت صلاته بالمراقبين صلات أخوّة صافية ، وقد بلغ به التواضع أبعد مبلغ فاتهم بالضعف ظلمًا وعدوانًا ، وجرَت القالة بأنه يعجز عن درء الشر إن وُجه إليه ، وهذه القالة وتلك التهمة مهدومتان من الأساس ، فجاد المولى بك لم يكن يحب الخصام ولا القتال ، حتى نطالبه بالمقدرة على اللدد والعنف ، وإنما كانت فطرته تهدية دائمًا إلى إيثار الرفق والمسالمة مع جميع الناس .

وما الموجب أن تكون حياتنا كلها قتالاً فى قتال ، بحيث لا نتصور الشجاعة إلا بصورة واحدة هى المصاولة والفتك والإيذاء ؟

وما الذى يمنع من أن نرى فى ضبط النفس شجاعة تفوق كل شجاعة ؟

إن المظاهرة بالعِداء أخف وأسهل من المجاهرة بالصفاء ، لأن العداء العنيف هو البقية مما ورثناه عن عهود الوحشية ، ولا كذلك التلطف والترفق ، فهما من مظاهر الرقىّ فى الشمائل الإنسانية .

والحق أن أخلاق جاد المولى بك كانت فوق ما نطيق ولهذا كان يحب ناس أن يزيفوها، ليستروا عجزهم عنها ، فقد كانت من المعجزات .

أين من يصدّق أن كبير مفتشى اللغة العربية لم يكن يقدر على توجيه كلمة فيها صورة الأمر للساعى الذى يحفظ ودائع مكتب التفتيش ؟

لو كان تلطفه مع الرؤساء ناشئًا عن ضعف لوجب أن يكون أسدًا فى معاملة الضعفاء.

وهذا بحثٌ إن أطلناه طال ، والمقام يضيق عن الإطناب .

مؤلفات جاد المولى بك :

أشهر مؤلفاته كتاب « محمد المَثَل الكامل » وقد طُبع غير مرة ، وانتفع به كثير من المسلمين ، ثم ترجمه أحد الأفاضل إلى اللغة الفارسية باسم « عَظَمت محمد » ، وبهذا وصل نفعه إلى أبعد آفاق الشرق الإسلامى .

ومن خير مؤلفاته « كتاب الأخلاق » وهو كتابٌ فصّل به المذاهب الأخلاقية أجمل تفصيل

ثم ماذا ؟

ثم يكون الرد المفحم على ما اتهم به جاد المولى بك ، فقد قيل وقيل إنه وضع اسمه على مؤلفات كثيرة بوصف أنه اشترك فى التأليف مع أنه لم ينشئ بقلمه فصلاً من فصول تلك المؤلفات .

ولهذه التهمة أصل من الصحة ، ولكن المتهمين تناسوا جوهر القضية ؛ فقد كان الرجل أستاذًا كبيرًا ، والأستاذ يوجه أكثر مما يؤلف ، وبالتوجيه السديد أنشأ جيلاً من المؤلفين النوابغ ، وهم تلاميذه الأوفياء ، وبإرشاده وبجهودهم زُوِّدت المدارس بأطايب المؤلفات الأدبية والدينية . وهذا فضلٌ لا يجحده إلا أهل العقوق .

تحية وسلام :

أما بعد ، فإنى أسارع إلى رثاء هذا الرجل الكريم ، لأنى أخشى أن لا يجد من يرثيه ، فما كانت له عصبية دنيوية ، ولا كان يحب أن يكون له اسمٌ طنّان ، ولا كان يعلن معروفه ليقال إنه طوّق جيد فلان أو فلان .

كانت أعماله لوجه اللّه ولوجه الوطن فى صمت وسكون .

لم أستطع المشى فى جنازتك يا أستاذى وصديقى وزميلى ؛ فقد هدّنى الحزن الذى رأيته على وجوه رجال المعارف يوم موتك ، وهو حزن صادق من رجال صادقين .

أفى الحق أنى لن أراك بعد اليوم ؟

أفى الحق أن إخوانك بوزارة المعارف لن يجدوك إن افتقدوك ؟

عندى خبر أبلغه إليك ، وهو أننا تلقينا اليوم خطابًا باسمك أرسلته الرابطة العربية تدعوك فيه إلى موافاتنا بعيادة الدكتور محجوب ثابت لتنظيم الاحتفال بتأبين الأستاذ محمود بك بسيونى ، رحمه اللّه ورحمك .

فما رأيك فى أسبوع أفقد فيه صديقين كريمين ؟

أتكون الدنيا غادرة إلى هذا الحد المزعج ؟

ما أسعد الذين شيعوه وشيعوك إلى مثواه ومثواك .

عند اللّه أحتسب فجيعتى فى صديقين قد لا يجود بمثلهما الزمان ، ومن اللّه أستمد العزاء ، فليس من العدل أن أشقى لفراق صديقين يُشغلان عنى بما أعدّ اللّه من النعيم لأهل الصدق والوفاء .

* * *

الأدَب النسائى الحديث(*)

المرأة المصرية تقتحم ميادين الحياة الفكرية

بقلم الدكتور زكى مبارك

اهمال الادب النسائى القديم ـ أظهر الشخصيات النسائية فى الادب الحديث ــ باحثة البادية ـ الآنسة مى ـ السيدة هدى شعراوى ـ فتيات الجامعة المصرية .

كان أستاذنا الشيخ محمد المهدى ـ طيب اللّه ثراه ـ يعجب من قلة العناية بتدوين أدب النساء ، ويرى أن حملة الادب ورواة الشعر جاروا سائر الناس فى استصغار شأن المرأة ، ثم يقول :

« فإن لم يكن ذلك كذلك فما بالنا نسمع من أسماء الشواعر فى الجاهلية العدد العديد. ولا نرى لواحدة منهن ديوانًا حافلا مجموعا مرتبًا مشروحا ، كما نرى ذلك لأكثر الشعراء ؟ فقد عنى العلماء بدواوينهم رواية وشرحا وترتيبًا ومفاضلة . وبذلوا وسعهم فى اظهار معانيها المخترعة ، ومقابلة بعضها ببعض ، ومآخذ المشترك منها ، والموازنة بين المأخوذ والمأخوذ منه ، ومقارنة الديباجة والوضوح والمتانة والسلاسة ، والسلامة من عيوب اللفظ وما شاكل ذلك ، بنظائرها من كلام الشاعر الآخر . ولم يكن لعلماء اللغة ورواتها مثل هذه العناية لشاعرة من شواعر الجاهلية حتى الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعوه فى ديوان ليحفظ . كأنهم لم يريدوا أن يختاروا قصيدة امرأة تكون بجانب قصائد الرجال » .

وحجة أستاذنا المهدى أن أبا زيد القرشى اختار تسعًا وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم يجىء فيها بواحدة لامرأة ، لا من الجاهلية ولا من الإسلام . وأن المفضليات ، وعدتها مائة وعشرون قصيدة وقطعة . ليس فيها إلا خمسة أبيات لإمرأة مجهولة من بنى حنيفة .

ولم يفت أستاذنا رحمه اللّه أن ينص على أن من المتقدمين من عنى بأدب المرأة كأبى عبيد اللّه المرزبانى الذى ألف كتابًا فى أشعار النساء .

(*) مجلة الهلال ديسمبر ١٩٣٥ .

والواقع أن علماء الادب لم يغفلوا الادب النسائى إغفالا تامًا ، ولكنهم مع اهتمامهم به لم يذكروه إلا فى مجال التندر ومطارح الاسمار . وقد حدثوا أن الخوارزمى قصد الصاحب بن عباد وهو بأرجان فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجابه : « قل للصاحب : على الباب أحد الادباء وهو يستأذن فى الدخول » . فدخل الحاجب فأعلمه فقال الصاحب : « قل له قد ألزمت نفسى ألا يدخل على أحد من الادباء إلا من يحفظ عشرين الف بيت من شعر العرب». فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك فقال له أبو بكر: « ارجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ » فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال . فقال الصاحب : «هذا يكون أبا بكر الخوارزمى » .

ما بالنا نحاسب التاريخ ؟ إن التاريخ لم يكتبه غير الرجال وهم أهل قسوة ، والمرأة لا تستطيع أن تفرض سلطانها على الرجل إلا فى دولة القلوب وهى دولة لا تملك السيطرة فى جميع الأحوال .

دين المرأة على الادب :

ان من الحق أن الأدب مدين للمرأة لانها فى بعض نواحيها مخلوق طريف يوحى إلى الرجل أشرف العواطف وأجزل الاراء ، ولا يكاد رجل يتكلم إلا فى خياله طيف امرأة ساجية الطرف مصقولة الذوق معسولة الحديث . والرجل الذى لا تسوقه المرأة إلى ميادين المجد يمشى إلى غايته فاتر الجهد خامد الاحساس ، ولكنه مع عرفانه بفضل المرأة يتجنى عليها وهو عامد لأن فطرته تفرض عليه القسوة ويكاد يؤمن بأنه لا يجمل فى عينى المرأة إلا إذا تسلح بالعنف .

تلك فطرة الرجل وفطرة المرأة . فليقم التاريخ على أساس هذه الفطرة وليكن فيه ظالم ومظلوم . ليصح له الانسجام الذى ينشده أهل الآداب والفنون .

وبالرغم من هذا كله نشعر بأننا مضطرون إلى الاعتراف بقوة الادب النسائى فى العصر الحديث ولن نملك من التجاهل ما كان يملك رواة الادب فى الاعصر الخالية ، لان النساء فى الادب القديم لم يكن لهن من وسائل الدعاية ما يملك نساء العصر الحديث . فالتجنى على الادب النسائى لم يعد فى طاقة الباحث الامين لان المرأة تطل عليه من جميع النوافذ فلها فى كل مدرسة مقعد ولها فى كل جريدة مكتب ولها فى كل ناد مكان وهى أخت الشيطان حقًا وصدقًا .

فلا تحسبونى انصف المرأة طائعًا ، وانما أترفق بعد اذ عجزت عن الثورة والطغيان . ولأواجه الموضوع بطريقة حازمة فأقول :

باحثة البادية :

أظهر الشخصيات التى أقامت قواعد الادب النسائى بعد عائشة التيمورية هى المرحومة ملك ناصف « باحثة البادية » وكانت امرأة حصيفة معروفة بجزالة الرأى ومتانة الأسلوب ولها كتاب جيد اسمه « النسائيات » وهو الحجة الباقية على ما تركت تلك المرأة القوية من الاثر البالغ فى الادب والاجتماع - كان أدب ملك ناصف أدبا نسائيًا من حيث الموضوع فإنها قصرت اهتمامها على المرأة وصورت زمانها وعصرها تصويرًا ناطق الملامح وجرأت المرأة على الجهر بكلمة الحق وعودتها الصبر على مقارعة الخطوب .

ومن المؤكد أن لنشأتها أثرًا شديدًا فيما امتاز به أسلوبها من قوة الديباجة ، فهى بنت المرحوم حفنى بك ناصف ، وكان أزهريا قديمًا يدين باللفظ الضخم والأسلوب الرصين وكان لعصرها نفسه اثر فى تلوين ذوقها الاجتماعى ، فقد شهدت المعركة الدموية التى آثار عجاجها قاسم امين . والذى يرجع إلى جرائد ذلك العهد يراها مشحونة بأخبار المعارك بين السفور والحجاب ، ويرى ان تعليم المرأة كان فى المسائل التى يشتجر حولها النضال ، وهذا يفسر اهتمامها بالمشاكل النسائية ويشرح السبب فى انصرافها عن كثير من مشاكل المجتمع .

ونجاح ملك ناصف فى الكتابة كان من المغريات التى دفعت الجنس اللطيف إلى اقتحام ميادين الإنشاء . ويمكن الحكم بأنها صاحبة الفضل الأكبر فى توجيه النساء إلى احتراف الأدب والتسامى إلى منابر الخطباء .

وكانت ملك تنظم الشعر ، ولكنها كانت من المقلين فلم يؤثر عنها من جيد الشعر إلا النزر القليل . أما نثرها فكان اقوى ما خطته أنامل امرأة فى ذلك الزمان . وسيظل أعجوبة الأعاجيب لمن يتصور حال النساء فى ذلك العهد يوم كان تعليم البنات يحتاج إلى فتوى من مشايخ الازهر .

الآنسة مى :

ثم تجىء عروس الأدب النسائى فى هذا الجيل ، وهى فتاة أعرفها جيدًا ، فقد كانت رفيقتى فى الدرس وزميلتى فى طلب الادب والفلسفة بالجامعة المصرية وهى المدموازيل صهباء .

أعرفتم من هى ؟ إن لم تعرفوا فاسمعوا .

كان لى بالجامعة المصرية زميلة تنافسنى منافسة عنيفة ، وكنت أضمر لها ظلا من البغضاء . ولحظ ذلك المرحوم إسماعيل بك رأفت فدعانى إلى مكتبه ثم قال : « أتعرف ما

معنى « مية » التى تغنى بهـا الشعراء ؟ » فقلـت : « لا ! » فقـال : « مية هـى الخمـر بالفارسية ، واهل فارس يسمون الخمارة « مى خانه » فعرفت منذ يومئذ ان الانسـة مـى معناها المدموازيل صهباء .

والآنسة مى هذه شخصية صحيحة النسب إلى حواء . هى شـخصية نسـائية فـى كـل شىء قلبها قلب امرأة ، وعواطفها عواطف امرأة واسلوبها فى الكتابة والخطابة والحديـث أسلوب فتاة خلوب تعرف كيف تغزو الصدور والقلوب .

هى فتاة مخضرمة جمعت بين الشمائل المصرية والسورية . واطلعـت علـى آداب كثيرة لأمم مختلفة وعرفت كيف كان يفكر العرب وكيف يفكر المصريون والفرنسيون والانجليز والالمان . وفى ادبها ظلال مما قرأت وما سمعت وما عرفـت ، وهـى مـع ذلـك كلـه فتـاة شرقية تجرى فى عروقها احلام الشرق الاصيل .

رافقتنى الآنسة مى بالجامعة المصرية ثلاث سنين . وكان الطلبة يختلفـون معـى اختلافـا شديدًا حين كنا نعرض لتقدير مواهبهـا الادبيـة ، فسـألنا الاسـتاذ المهـدى أن يحكـم فيمـا شجر بيننا من خلاف وكان فينا من يفضل باحثة البادية ومن يقدم مى ، فقـال الاسـتاذ : « تلك أجزل ، وهذه أرشق » ومن المؤكد عندى أن هذه الفتاة متينة الثقافة إلى حد بعيد وهى نموذج للفتاة المثقفة التى ينشدها أهل هذا الجيل ومعرفتهـا بـالادب معرفـة صحيحـة وهى من أجل ذلك تعد من نوادر المثقفات .

أما أدبها فهو أدب يتسـامى إلى منـازل الفحـول . وتـود لـو نظـرت إلى الحيـاة بعيـون الرجال . ولكن فطرتها النسائية لا تمكنها من ذلك . وهو عيـب جميـل فهـى دائمًـا تحـوم حول الازهار النسائية وتكاد عنـاوين مقالاتهـا تنطـق بانهـا لم تكـن ولـن تكـون إلا فتـاة صحيحة النسب إلى السيدة حواء .

ومن مزايا هذه الفتاة أنها أدخلت فى النظام الاجتماعى سنة الأندية الادبية . وكان لها فى بيتها ناد يختلف إليه الناس فى مسـاء الثلاثـاء ، ومـن سـوء الحـظ أننـى لم أشـهد هـذا النادى أبدًا فقد كانت بينى وبينها أحقاد ، وكان بعض المفسدين أو همها أنـى لا أغشـى الاندية إلا لأتخذها مادة لما أكتب فى وصـف الأسمـار والاحـاديث . ومـن أجـل ذلـك لم أفكر فى زيارتها ولم أشهد كيف تنسجم الطبائع فى ذلـك النـادى الجميـل . وكـان مـن رواد ذلك النادى اسماعيل صبرى باشا . ويؤكدون أنه قال فى صاحبته هذين البيتين :

روحى على بعض دور الحى حائمـة   كظـامئ الطـير تواقـا إلى المـاء
إن لم امتـع بمى ناظـرى غـدًا   لا كان صبحـك يا يـوم الثلاثاء

وللآنسة مى طائفة من المؤلفات الجيدة والمترجمات المتخيرة . وهى فيما تكتب وما تترجم نموذج لدقة الذوق ورقة الاحساس وأنا أوصى باقتناء ما ألفت وما ترجمت لانها فى الواقع من صواحب الفكرة والاسلوب ولها طابع يميزها عن الرجال ويكاد يعزلها عن جمهرة النساء . وكتابها عن باحثة البادية يشهد بصدق ما أقول .

السيدة هدى شعراوى :

ثم ماذا ؟ ثم تجىء السيدة هدى شعراوى ، وهذه السيدة لا يمكن إضافتها إلى الشواعر أو الكواتب ، لأن آثارها الأدبية قليلة جدًا ، ولكن لا مفر من الاعتراف بأنها ترعى النهضة النسائية رعاية قوية ، ولها سلطان أدبى لا يمكن اغفاله فى هذا المجال ، وقد استفادت من الأسفار والرحلات ، وتركت فى كل بقعة حلت بها آثارًا عطرة لا ينكرها إلا المتحاملون . وقد اتفق لى مرة أن أدرس النهضات النسائية فى باريس فوجدت للسيدة هدى شعراوى اسمًا عاليًا هناك ، وعرفت أنها تمثل المرأة المصرية أشرف تمثيل .

السيدة هدى زعيمة وليست أديبة ، فسلطانها الأدبى لا يصدر عما تكتب وما تؤلف، ولكنه يصدر عن الفكرة التى تدعو إليها فى صدق وعنف ، وهى نموذج للمرأة المتطرفة التى تسبق زمانها بأجيال ، وإلا فكيف يسوغ أن يكون لسانها فى الدعوة لسانا أجنبيًا يرطن فى مجلة فرنسية إسمها « L'Egyptienne » .

هى سيدة لا تعرف من أهل عصرها إلا طبقة واحدة تخاطبها بلسان فرنسى مبين ، لا بلسان عربى مبين ، وعذرها فى ذلك انها نشأت نشأة اريستوقراطية تعرف تاريخ السين، قبل أن تعرف تاريخ النيل . وتقرأ هوجو وميسيه قبل أن تسمع باسم البحترى والمتنبى ، هى سيدة من الفضليات ولكن قرابتها العقلية إلى الشرق يلحقها بعض الضعف .

وانما اهتممت بشرح هذه النقطة لأبين ما سيكون لدعوتها من الأثر فى صبغة الأدب النسائى . فإن لهذه السيدة أشياعا من المثقفات ، ولها دار فى شارع قصر النيل ، ودار فى شارع القصر العينى ، وفى هاتين الدارين تستقبل الفتيات اللائى ينشأن فى الكليات المصرية والأجنبية ، وتزودهن بمحصول من الفكر المجدد سيكون له خطره بعد قليل .

فتيات الجامعة المصرية :

وبعد كل ما سلف نرى من الحتم أن نشير إلى النهضة النسائية فى المدارس والجرائد والمجلات . فمنذ عشرين عاما كنا جميعا فى الجامعة المصرية من الطلبة الخناشير ، ولم يكن معنا من الجنس اللطيف إلا فتاة واحدة نرعاها بأبصارنا فى الغدو والرواح ، أما اليوم ففى

كليات الجامعة المصرية أسراب من الفتيات ، وذلك بشير أو نذير بأدب نسائى سيقوى ويعنف بعد حين .

ومنذ عشرين عاما لم تكن الفتاة ترسل كلمة إلى جريدة إلا وفوق اسمها برقع ، أما اليوم فالفتيات والسيدات يكتبن الصفحات النسائية بلا تهيب ولا استحياء . وذلك سلطان أدبى لم يكن احد يفكر فيما سيصل إليه من قوة الضجيج .

كان الأدب النسائى فى بداية أمره مقصورًا على الشئون النسائية ، أما اليوم فهو يقتحم سائر الموضوعات ، وإلا فمن الذى كان يظن أن المتنبى تدرسه فتاة كالذى وقع من الآنسة سهير القلماوى ؟ ومن الذى كان يظن ان الفتاة تنشئ القصائد والأقاصيص لشرح النوازع الوجدانية كالذى يقع من الآنسة جميلة العلايلى ؟

يضاف إلى ذلك الأندية النسائية فى مصر وفلسطين وسورية ولبنان وحلب والعراق وتونس وما إلى هؤلاء من البيئات العربية التى قوى سلطانها واستفحل . وصار له أعداء وأشياع .

إن المرأة العربية فى هذه الأيام تتوثب ، ولها نفوذ خطر سيلون الأدب كله بلون جديد. ومن العقل أن نفكر فى مصير هؤلاء الاديبات اللائى احترفن التمثيل والغناء ، فلهن سلطان على العقول والقلوب لا يتجاهله إلا الاغبياء . ولو كنت أملك الصراحة كلها فى هذا المجال لبينت ما لهن فى عالم الدسائس الادبية ، وشرحت كيف يغزون الأندية والمسارح والملاعب بفنون من الفكر المصقول لا يحسنه الرجال .

* * *

الأدباء المجانين(*)

بقلم الدكتور زكى مبارك

ألقيت قيادى إلى مجلة الهلال تسير بى كيف تشاء ، فهى تقترح وأنا أجيب ، ولعل محرر الهلال يظن انى أصبحت لا أهوى غير هواه ، ولكن هيهات ، فقد رأيته لا يقترح على موضوعا جديدًا ، وانما يقترح موضوعات كتبت فيها من قبل ، فإن كان يعرف هذا فهو لبق : وإن كان لا يعرف فهو موهوب .

وقد اتفق لى قبل اليوم ان أكتب مقالا فى البلاغ عنوانه « يوم بين المجانين » فكان فيما رأى بعض الناس أجمل ما كتبت ، وانما كان كذلك لأنى أحرص منذ زمان على درس العقول وهذا الحرص كفيل بأن يقف بى على أبواب الصواب حين أدرس آثار العقل وآثار الجنون .

ومن الانصاف ان اعترف بأنى فى هذا مدين إلى الدكتور مرجرات رحمه اللّه . فقد صحبته ، نحو عشر سنين ، ورأيت فى شمائله وفهمه للحياة ما يغرينى بدرس أطوار الجنون، فإلى جسده فى الثرى أهدى هذا المقال الوجيز .

ولكن ما هو العقل ؟

العقل مأخوذ من العقال الذى تعقل به الدواب ، ومنه الحديث المأثور : « اعقلها وتوكل » وانما سمى العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن الشطط ، ويصده عن الزيغ ، ويحميه من الخروج على المألوف .

وفى الدنيا كثير من العقلاء يقضى الرجل منهم دهره كله فلا يخرج قيد أنملة عما اصطلح عليه الناس ، فلا يلومه لائم ولا يؤاخذه قانون .

والعقلاء ليس فيهم أديب ، لأن الادب نفسه نوع من الانحراف ، فهو قهر الملكات الإنسانية على الخضوع لمؤثر خاص هو تذوق الجمال فى المحسوسات والمعقولات ، والهيام فى الدنيا للبحث عن المثل الاعلى فى الحقائق والاشخاص والاشياء .

ومن العناء ان تظفر بأديب عاقل ، لأن العقل فى أغلب الاحيان من دلائل البلادة والغباوة والركود ، وقد يكون العقل نوعا من المرض لأنه فى جوهره ضرب من الاستسلام والخمول .

(*) مجلة الهلال بتاريخ ١٩٣٦/٢/١ .

الادباء مجانين لأنهم لا يثبتون على حال ، وإنما كانوا كذلك لانهم أحياء ، والحياة توجب التحول من رأى إلى رأى ، ومن إحساس إلى احساس ، وأبقاهم أثرًا فى الدنيا هم أصحاب الجنون الغليظ الذين يحتقرون الشرائع التقليدية التى يفرضها العرف المزيف والاصطلاح السخيف .

ومن أشهر هؤلاء الادباء المجانين سيدنا سقراط الذى لقى حتفه بفضل خروجه على المألوف من قوانين اليونان ، ومنهم ابن رشد الذى شرب العلقم بسبب ثورته على آراء الاغبياء من معاصريه ، ومنهم قاسم امين الذى غضب عليه الرأى العام بسبب احتقاره لحجاب النساء ، ومنهم محمد عبده الذى حورب فى حياته لأنه أباح لبس « البرنيطة » ودعا الأزهريين إلى ركوب الخيل .

وفى كل أمة أدباء حكم عليهم بالجنون لأنهم افرطوا فى الدعوة إلى الحرية فى عالم السياسة أو الوطنية أو الدين أو الاجتماع .

ويمكن الحكم بأن ثلاثة ارباع الادباء قضوا حياتهم مشردين لأنهم عجزوا عن الخضوع لأحكام العرف والاصطلاح ، وأكثرهم لا يستطيع العيش إلا بما فيه من قوة الحيوية والسيطرة على الناس ، والاديب العبقرى لا يحيا لأن قومه يريدون له الحياة ، وانما يحيا لان أعصابه تمكنه من العيش وتفرض سلطانه على الخاملين من العقلاء .

وأهل البلادة يعجبون كيف يعيش الاديب الموهوب ، وفاتهم ان الجنون هو فى ذاته فيض من الحياة ، والجنون ثورة ، وكل ثورة دليل على فيض الحيوية . أما العقل المطلق فهو تماسك لا يحسنه غير أرباب الجمود .

ومن طريف القول أن نذكر أن المجانين يرون أنفسهم عقلاء ، ويتهمون غيرهم بالجنون، فقد حدثوا ان مخارق بن صخر دخل يوما على حارثة بن بدر وهو مضطجع فعاتبه وقال: « قد أسقطت الخمر قدرك ومروءتك » فقال حارثة : « دع عنك هذا الجنون ، وهلم نتساعد واسمع ما قلت » قال : « هاته » فأنشده :

غدا ناصحًا لم يأل جهدًا مخارق ... يلوم على شرب السلاف المعتق

فقلت أبا صخر دع الناس يجهلوا ... ودونكها صهباء ذات تألق

تراها إذا ما الماء خالط جسمها ... تخايل فى كف الوصيف المنطق

لها أرج كالمسك يذهب ريحها ... عماية حاسيها بحسن ترفق

وكم لائم فيها بصير بفضلها ... رمته بسهم صائب متزلق

فظل لرياها يعض ندامة ... يديه وأرغى بعض طول تمطق

يعيب على الشرب والشرب همه ... ليحسب ذا رأى أصيل موفق

فقال له مخارق : « انما عاتبتك لان الناس قد كثروا فيك ، ورأيت النصيحة لله واجبة على ، وكرهت ان تضع لذتك قدرك ، فإن أطعتنى فى تركها وإلا فلا تجاهر بها فانك قادر أن تبلغ حاجتك فى ستر » فقال حارثة : « ما عندى غير ما سمعت » .

والشاهد هنا قول حارثة لمن ينهاه عن المجاهرة بالشراب : « دع عنك هذا الجنون » وقوله وقد أجزل له النصح : « ما عندى غير ما سمعت » .

وحارثة بن بدر هذا اديب مجنون ، وجنونه كان مقصورًا على الاستهتار فى الشراب ، وأكاد أجزم بأنه ابرع من ابى نواس فى وصف الصهباء ، فهو الذى يقول :

يعيب على الراح من لو يذوقها ... لجن بها حتى يغيب فى القبر
فدعها أو امدحها فإنا نحبها ... صراحا كما اغراك ربك بالهجر
علام تذم الراح والراح كاسمها ... تريح الفتى من همه آخر الدهر
فلمنى فإن اللوم فيها يزيدنى ... غراما بها ان الملامة قد تغرى
وباللّه أولى صادقا لو شربتها ... لأقصرت عن عذلى وملت إلى عذرى
وإن شئت جربها وذقها عتيقة ... لها أرج كالمسك محمودة الخبر
فإن انت لم تخلع عذارك فالحنى ... وقل لى لحاك اللّه من عاجز غمر
وقبلك ما قد لامنى فى اصطباحها ... وفى شربها بدر فأعرضت عن بدر
وحاسيتها قوما كأن وجوههم ... دنانير فى اللأواء والزمن النكر
فدعنى من التعذال فيها فاننى ... خلقت أبيًا لا ألين على القسر
ولولا النهى لم أصح ما عشت ساعة ... ولكننى نهيت نفسى عن الهجر
فقصرت عنها بعد طول لجاجة ... وحب لها فى سر أمرى وفى جهرى

وكان علماء الادب واللغة يحبون استنشاد المجانين ، حدث المبرد قال :

« اجتزت بدير هرقل فقلت لأصحابى أحب النظر إليه فاصعدوا بنا ، فدخلنا فرأينا منظرًا حسنًا وإذا فى بعض بيوته كهل مشدود حسن الوجه عليه أثر النعمة ، فدنونا منه وسلمنا فرد علينا السلام وقال : « من اين انتم ؟ » فقلنا : « من البصرة » . قال : « فما اقدمكم هذا البلد الغليظ هواؤه ، الثقيل ماؤه ، الجفاة أهله ؟ » قلنا : « طلب الحديث والادب » قال : « حبذا ! تنشدونى أو انشدكم ؟ » فقلنا : « انشدنا » . فقال:

اللّه يعلم اننى كمد ... لا أستطيع أبث ما أجد
روحان لى ، روح تضمها ... بلد ، وأخرى حازها بلد
وأرى المقيمة ليس ينفعها ... صبر وليس يضرها جلد

وأظـن غائبتـى كشاهدتـى بمكانهـا تجـد الذى أجـد

« ثم أغمى عليه فتركناه وانصرفنا : فأفاق وصاح بنا فعدنا إليه فقال : تنشدونى او انشدكم ؟ قلنا انشدنا ، فقال :

لما اناخوا قبيل الصبح عيسهمو وثوروها فثارت بالهوى الابل

وابرزت من خلال السجف ناظرها ترنو إلى ودمع العين ينهمل

وودعت ببنان خلته غما فقلت لا حملت رجلاك يا جمل

ويلى من البين ماذا حل بى وبها من نازح الوجد حل البين فارتحلوا

انى على العهد لم انقض مودتكم ياليت شعرى بطول العهد ما فعلوا

وكان الدير مأوى هذا الاديب المجنون لان المتقدمين كانوا يتخذون الأديرة لحبس المجانين . حدث شريح الخزاعى قال :

اجتزت بدير حزقيال فرأيت وانا ادور به سطرين مكتوبين على اسطوانة منه فقرأت :

رب ليلى امد من نفس العا شق طولا قطعته بانتحاب

ونعيم كوصل من كنت أهوى قد تبدلته ببؤس العتاب

نسبونى إلى الجنون ليخفوا ما بقلبى من صبوة واكتئاب

ليت بى ما ادعوه من فقد عقلى فهو خير من طول هذا العذاب

وتحته مكتوب :

هويت فمنعت ، وشردت وطردت ، وفرق بينى وبين الوطن ، وحجبت عن الالف والسكن ، وحبست فى هذا الدير ظلما وعدوانا ، وصفدت فى الحديد زمانا .

وانى على ما نابنى واصابنى لذو مرة باق على الحدثان

فإن تعقب الايام اظفر بحاجتى وإن ابق مرميا بى الرجوان

فكم ميت مثلى بغيظ وحسرة صبور لما يأتى به الملوان

هو الحب أفنى كل خلق بجوره قديمًا ويفنى بعدى الثقلان

ويمتاز ادب المجانين بالصدق لانهم يعيشون بقلوب الاطفال ، والصراحة هى الخصيصة الاساسية فى حياة المجانين ، والقارئ يستطيع أن يستعرض حياة الادباء من أهل زمانه ، فإن فعل فسيرى من بينهم من يجنى على حاضره ومستقبله بفضل الحرص الآثم على رأى يراه أو مذهب يميل إليه ، وهؤلاء لا يسمون اصطلاحا بالمجانين ، ولا يجرؤ أحد على دعوتهم لزيارة قصر العباسية ، ولكن لا يمكن التورع عن رميهم بقارص القول : فهذا مغفل ، وذاك ابله ، وذلك عبيط ! والناس مقامات !

وكما يمتاز المجانين بالصدق يمتازون بالظرف ، ومن اشهرهم فى ذلك مان الموسوس ، فقد حدثوا ان محمد بن عبد اللّه بن طاهر عزم على الصبوح وعنده الحسن بن محمد بن طالوت فقال : لقد خطر ببالى رجل ليس علينا فى منادمته ثقل ، قد خلا من ابرام المجالسين ، وبرىء من ثقل المؤانسين ، خفيف الوطأة إذا ادنيته ، سريع الوثبة إذا أمرته . قال : « من هو ؟ » قال : « مان الموسوس » قال : « ما اسأت الاختيار » ثم تقدم إلى صاحب الشرطة بطلبه واحضاره ، فلما مثل بين يديه قال رد السلام : « أما حان لك ان تزورنا مع شوقنا إليك ؟ » فقال له مان : « أعز اللّه الامير ! الشوق شديد ، والود عتيد ، والحجاب صعب ، والبواب فظ ، ولو تسهل لنا الاذن لسهلت علينا الزيارة » فقال له محمد : « لقد لطفت فى الاستئذان » ثم حضرت جارية فغنت :

ولست بناس إذ غدوا فتحملوا　　دموعى على الخدين من شدة الوجد
وقولى وقد زالت بعينى حمولهم　　بواكر تحدى لا يكن آخر العهد

فقال مان : «أيأذن لى الامير؟» قال : «فبماذا ؟» قال : «فى استحسان ما أسمع؟» قال: « نعم » فقال مان : « أحسنت واللّه ، فإن رأيت أن تزيد مع هذين البيتين :

وقمت أناجى الدمع والقلب حائر　　بمقلة موقوف على الضر والجهد
ولم يعدنى هذا الأمير بعدله　　على ظالم قد لج فى الهجر والصد

فقال له محمد : « ومن اى شىء استعديت يا مان ؟ » فاستحيا . وقال : « لا من ظلم ايها الامير ، ولكن الطرب حرك شوقا كان كامنا فظهر ... » ثم غنت :

حجبوها عن الرياح لأنى　　قلت يا ريح بلغيها السلاما
لو رضوا بالحجاب هان ولكن　　منعوها يوم الرياح الكلاما

فقال مان : « ما كان على قائل هذين البيتين لو اضاف إليهما هذين البيتين :

فتنفست ثم قلت لطيفى　　ويك إن زرت طيفها إلماما
حيها بالسلام سرًا وإلا　　منعوها لشقوقى ان تناما »

فقال محمد : « احسنت يا مان ! » ثم غنت :

يا خليلى ساعة لا تريما　　وعلى ذى صبابة فأقيما
ما مررنا بقصر زينب إلا　　فضح الدمع سرك المكتوما

فقال مان : « لولا رهبة الامير لأضفت إلى هذين البيتين بيتين لا يردان على سمع سامع ذى لب ، فيصدوا إلا عن استحسان لهما » فقال محمد : « الرغبة فى حسن ما تأتى به حائلة عن كل رهبة ، فهات ما عندك » فقال :

ظبية كالهلال لو تلحظ الصخر　　بطرف لغادرته هشيما

وإذا ما تبسمت خلت ما يبدو   من الثغر لـؤلؤًا منظومـا

وفى نهاية المجلس قال ابن طالوت : « قد وجب شكرك يا مان ، فساعدك دهرك ، وعطف عليك إلفك ، ونلت سرورك ، وفارقت محذورك ، والله يديم لنا ولك بقاء من ببقائه اجتمع شملنا ، وطاب يومنا » فقال مان :

مدمن التخفيف موصول   ومطيل اللبث مملول

فأنا استودعكم الله . ثم قام فانصرف .

ويمتاز مجانين الادباء فوق الصدق والظرف برقة الحس ، لأن جنونهم فى الاغلب يصدر عن الوجدان ، ومن المشاهير فى هذا الباب خالد بن يزيد الكاتب ، وكان يهوى جارية لبعض الوجوه ببغداد فلم يقدر عليها ، وولاه محمد بن عبد الملك عملا فى الثغور فخرج فسمع فى طريقه منشدًا ينشد ومغنية تغنى :

من كان ذا شجن بالشام يطلبه   ففى سوى الشام أمسى الاهل والشجن

فبكى حتى سقط على وجهه مغشيًا عليه ثم أفاق وهو مختلط ودام به الوسواس .

وكان خالد هذا تحفة عصره فى بغداد ، لقيه احد أصحابه فقال : « كيف أنت يا ابا الهيثم؟» قال : «كما ترى» . قال له : « فمن تعاشر اليوم ؟ » قال : « من احذره » .

قال صاحب الحديث : « فعجبت من جوابه مع اختلاله » .

واتفق له مرة ان هجا بعض الناس ، فقيل له : « منذكم دخلت فى الهجاء » فأجاب: « مذ سالمت فحوربت ، وصافيت فنوفقت » .

وهذا كلام نفيس .

وكان خالد على جنونه من أشعر الناس ، وهو صاحب هذه الابيات :

محب شفه ألمه   وخامر جسمه سقمه

وباح بما يجمجمه   من الاسرار مكتتمه

أما ترثى لمكتئب   يحبك لحمه ودمه

يغار على قميصك حيـ   ـن تلبسه ويتهمه

ثم ماذا ؟ لم يبق إلا أن نعرض لاهل عصرنا من أدباء المجانين ، أو مجانين الادباء ، ولكنهم يتعاقلون .

ومع هذا لا أنكر ان فى القاهرة طوائف من المجانين الظرفاء تلقاهم فتداعبهم فيفيضون عليك بالسمر الممتع والقصص الطريف ، ولهم مطارح يغشاها عشاق الاسمار والاحاديث ولكن من هم ؟ انتظروا ، فسأقص عليكم اخبارهم بعد حين ؟

* * *

شباب الأدب وشيخوخته (*)

هل يهرم الأدب بهرم الأدبَاء

بقلم الدكتور زكى مبارك

للأدب شبابه وشيخوخته ، كسائر الاحياء ، وهو خليق بأن يكون أمة وحده ، فيتمتع بالقوة والفتوة ، ويقاسى آلام الضعف والهزال ، كما يتفق ذلك للافراد والشعوب .

ولنذكر دائما أن الكتاب صديق يضر وينفع . فهو يعدى بالقوة ويعدى بالضعف . كما يعدى الصديق ، ألست فى الاغلب صورة من صديقك الذى تألفه وتسكن إليه ؟ ألا تشعر باتساع آفاق الامل أمام عينيك حين تتحدث إلى صديق قوى العزيمة ؟ ألا تشعر بالدنيا تضيق فى وجهك حين تتحدث إلى صديق متبرم بالوجود ؟

كذلك يكون الكتاب . فالمؤلف الفتى يدفعك إلى ميادين المغامرة ، ويثير فيك التطلع إلى استكشاف المجهول ، والمؤلف الشيخ يقنعك بأن الدنيا لم يبق فيها خير ، وأن الحياة ليست إلا مسبعة يفترس فيها كرام النفوس ، وأن التقوى توجب التحرز من جميع الناس .

كان القدماء يقولون :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى

وإنما وقف الشاعر عند القرين لأنه صاحب ملموس ، أما اليوم فأنا أوصى باختيار مذاهب الرجال فى الأدب قبل التعرف إليهم ، وقبل اصطفائهم فى عالم الصحبة والوداد، لأنى جربت بنفسى آثار المذاهب الادبية فى تربية النفس وتربية العزيمة وتربية الضمير . ولى أصدقاء أعزهم وأحنو عليهم . ولكنى أتجنب لقاءهم ما استطعت ، لأنهم يخوننى فى الدنيا ، ولأنى أرى فى شمائلهم ملامح ضعف تنفر من التأهب إلى ميادين النضال .

الأدب صورة النفس ، فلا تبحث فى شبابه وشيخوخته من حيث ذاته ، ولكن ابحث عن مصدره الأول ، وهو قلب الاديب . ومثل الادب فى ذلك مثل الماء . هو تارة عذب، وتارة ملح . مع أنه ينبع عن عينين متقاربتين . فالماء واحد فى الطعم واللون . وانما يتغير بتغير الأرض التى تنبع منها العيون . أليس النيل واحدًا فى جوهر مائة ، أو كأنه واحد . فما بالنا نرى السواقى مختلفة المذاق فى وادى النيل ، ان سر ذلك بسيط . هو جوهر الأرض التى تنبع فيها الآبار ، وهى تختلف فى العذوبة والملوحة فتقدم لكم ما تذوقون من مختلف الألوان ، وكذلك الأدب يختلف قوة وضعفًا باختلاف النفوس

(*) مجلة الهلال بتاريخ ١٩٣٦/١/١ .

والقلوب ، فالقلب الفتى ينتج أدبًا فتيًا ، والقلب الكهل ينتج أدبًا كهلا ، وإليكم بعض البيان :

أكثر الشعراء يبدأون حياتهم بالتشبب ، لأن النفس تتفتح أول ما تتفتح على أزهار الحسن والصباحة والجمال ، ومتعة الاحساس هى أول ما تقع عليه العيون ، ومن أجل هذا قيل :

« اثنان أبرد من يخ : شيخ يتصابى وصبى يتمشيخ » .

وهذا المثل سمعته منذ عشرين عامًا من أستاذنا الشيخ أحمد الحملاوى ، رحمه اللّه ، واليخ كما فسره هو دود يتولد فى الثلج . وتصابى الشيخ بارد لأنه متكلف ، أما تمشيخ الصبى فهو سخيف كل السخف ، لأنه على فرض صدقه دليل على أن صاحبه ممسوخ ، وأنه سقيم الشعور والاحساس .

ولكن من هو الفتى ومن هو الكهل ؟

أعيذكم أن تلجأوا إلى السنين والحساب ، هيهات هيهات ، ففى الدنيا فتيان لم يتجاوزوا العشرين ، ولكنهم يعيشون بقلوب هرمة أمضها الضعف وأضناها الهزال ، وفى الدنيا شيوخ جاوزوا الستين . ولكنهم يعيشون بقلوب معمورة بالبأس والفتوة والشيطنة والاعتزام . وليس من المزاح أن تروا أحيانا رجلا يتزوج بنت العشرين وهو فى سن الستين . ومن أجل هذا رأينا من يقول :

ماذا تقولين فى شيخ فتى أبدًا　　وقد يكون شباب غير فتيان

ومن أجل هذا أيضًا رأينا احدى قريبات جورج ساند تدافع خصومها وتقول : « لقد كانت جورج ساند مثال العفاف وهى فى سن الاربعين . مع أن تلك السن هى مصطرع العواطف والاهواء » سبحان اللّه ! أتكون سن الاربعين مصطرع العواطف والاهواء مع أن كتب اللغة عندنا تنص على أن الشيخ هو من بلغ سن الاربعين ؟

وأذكر أنى حاورت الاستاذ ماسينيون فى باريس سنة ١٩٣١ وكان يشكو مر السنين فقلت : لك أسوة بالشاعر الذى يصيح :

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب　　فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب

فأجاب المسيو ماسينيون : إنه قال الثلاثين . ولم يقل الاربعين أو الخمسين !

فابتسمت وقلت : ذاك حكم القافية . أو حكم الوزن ان شئت . أما الشباب فلا يفرق بين الثلاثين والخمسين . لأنه لا يعرف غير متانة الاعصاب وقوة الاحساس . وتلك مواهب قد يظفر بها الكهول ويحرم منها الشباب .

ومن أمثال الفرنسيين : « لا تسأل عن سنى . ولكن اسأل عن عمر قلبى »

وفى كل ما سلف مقنع للقارئ الذى يخطر له أن يقيس الشباب والكهولة بقياس السنين . وانما اهتممت بشرح هذه المسألة لأبين أن شباب الادب يتبع شباب الادباء ، وأن شيخوخة الادب تتبع شيخوخة الادباء . ومنذ أجيال طوال قال أبو نواس :

قالوا كبرت فقلت ما كبرت يدى   عن أن تمد إلى فمى بالكاس

فالاديب الشاب هو الذى تحيا عواطفه وحواسه حياة الفتوة . والاديب الكهل هو الذى تعيش غرائزه ومشاعره عيش الكهولة . وبين هذين العهدين ألوف من النوازع يدرك ألوانها علماء النفوس .

وقد رأينا ناسًا يبدأون حياتهم بالتنسك ويختمونها بالفتك ، ورأينا رجالا يبدأون حياتهم بالعنف ويختمونها باللين ، وانما كان ذلك لأننا لا نملك من أمور حياتنا إلا قليلا ، وإلا فكيف اتفق لبعض النساك أن يقضى صدر حياته فى الزهد والتنسك ، ثم تقضى عليه الاقدار بأن يقع فى حبال إحدى القيان ، فينتقل من حال إلى حال . ويقول :

قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها   فاعجب لما تقضى به الأيام

فاليوم أعذرهم وأعلم انما   طرق الضلالة والهدى اقسام

ومن أجل هذا لا تعجبوا حين ترون صورة أدبية مكتهلة تصدر عن أديب شاب . أو صورة فتية تصدر عن أديب كهل ، فنحن جميعًا أسرى الحوادث ، وقد ينقضى عهد الشباب فى هدوء ، ثم تجد أخطار يبعثها الحب أو المجد فيتحول الكهل إلى أتون مستعر لا يجد شواظة تماسك ولا يصد أوامره عقل ولا يقف تياره استحياء .

ولابد من الاشارة إلى أن بعض الناس يظلون فتيانًا فى جميع الأحوال ، ولكن فتوتهم تتلون بتلون المذاهب الادبية ، فابن الفارض كان فى جميع أدوار حياته شابًا يتغزل ويتشبب ، ولكن الفرق بين عصريه بعيد ، فهو فى العصر الأول كان يمثل قوة الشهوة ، وفى العصر الثانى كان يمثل قوه الروح ، وهو فى كلا العصرين شاب يصلح شعره لغناء الشباب وأنين الكهول وهنا نقطة لا تخلو من اشكال . فلنرسل إليها شعاعا من البيان .

قد يتوهم بعض القراء أن الشباب لا يكون إلا فى عهد القوة ، فلنرفع هذا الوهم ، ولنذكر أن بعض الضعف فيه فتوة وفيه شباب ، فالشاعر ميسيه فى الادب الفرنسى وعباس بن الأحنف فى الأدب العربى لا يخلوان من ضعف ، ولكن ضعف هذين الشاعرين كان مملوءًا بالقوة ، وكان فى مقدورهما أن يسيطرا على القلوب بقوة الإحساس . وقد دهشت يوم زرت قبر الفريد دى ميسيه فى باريس ، فقد رأيت صورة الشاعر على لوحة القبر و لم أتمثل فيها من معانى الحزن إلا قليلا ، ذلك بأن أحزان ميسيه كانت أحزان شاب يتنزى فؤاده من قوة الشوق ، والشوق لا يصدر إلا عن قلب يفيض

بالعافية ، وهل يشتاق المرضى والاموات ؟ وكذلك ابن الاحنف الشاعر البكاء الذى وقف قلبه على غرام واحد ، وظل طول حياته يتغنى بالكتمان ويصوره فى أفانين مختلفات، هذا الشاعر كان قويًا على ضعفه ، وكانت قوته تنبعث عن الرقة كما تنبعث قوة ميسيه ، وهذا التأثير من فيض الفتوة ، فتوة القلوب والارواح .

ومن هذه البابة يجىء الأدب القوى الذى أثر عن المحتضرين ، وليس من العجيب أن يكون فى المحتضر قوة . فإن النفس الاخير قد يكون أحر الانفاس ، وصحوة الموت قد تكون أقوى الصحوات ، ولا يتسع المجال لا يراد الشواهد ، وهى فى متناول القراء يجدها من يبحث عمن رثوا أنفسهم من الشعراء . ومنذ ستة عشر عاما أرسل شهيد الوطنية محمد فريد كلمة إلى صديقه المغفور له عبد اللطيف الصوفانى ، وكنت يومئذ محررًا فى جريدة الافكار ، فلما اطلعت على تلك الرسالة عرفت أنها فيض من يقظة الموت ، وحدثتنى النفس بأن الرجل سيموت بعد أيام ومضيت إلى المطبعة أترقب فراغ العمال من صف تلك السطور لآخذ الرسالة واحفظها لنفسى ، وكانت دهشتى عظيمة حين رأيت الصوفانى يراقب العمال لنفس الغرض ، وصح ما توقعت ومات فريد بك بعد ذلك بأيام، وكانت رسالته تلك أقوى من كل ما كتب وهو فى ريعان الشباب .

فمثل هذا الادب يعد من أدب الشباب وأن كان أصحابه من المودعين ، لان العبرة بقوة الروح وهى توجد على عتبة الموت فى بعض الاحيان .

وأود أن يوافقنى القارئ على ما قررت من القوة التى تفيض أحيانا عن الضعف ، فالضعف لا يخلو من القوة إلا حين يكون أثرًا لفقد الحيوية ، كالذى وقع لاحد الشباب ، وكان طالبًا بكلية العلوم فى جامعة باريس ، وخطر له أن يقدم لخطيبته تحفة لم يسبقه إليها أحد . فرأى أن يصوغ خاتم الخطبة من دمه وكذلك ظل شهورا يفتصد عروقه ويجمع ما يتجمد من الحديد حتى استطاع ان يصوغ من دمه خاتمًا لطيفًا يساوى من حيث المعنى كل شيء ، ولكن ما فيه من الحديد لا يساوى اكثر من سنتيمين ، ومضى المسكين إلى خطيبته فلم تكد تعرفه من فرط الهزال ، ثم قدم إليها الخاتم ، ومعه مذكرة تفسيرية ، ولكنها غضبت وفارقته إلى غير لقاء . ولكم تتصوروا كيف توجع ذلك (العبيط) ولكن توجع الفانين لا يثير غير عطف الامهات . أما المعشوقة فلا تتألم لتوجع المحزون إلا وهى تلمح ما خلف حزنه من وقدة الحيوية وفورة الاحساس .

* * *

نترك هذا ونتحدث بايجاز عن بعض الشعراء الذين أثرت عنهم نماذج من الادب الصحيح فى الشباب والشيخوخة . واظهر هؤلاء المعرى الذى خلف (سقط الزند)

عنوانًا على شبابه ، وخلف « اللزوميات » عنوانًا على شيخوخته ، فأى الأثرين أقوى وامتع ؟

إن (سقط الزند) صورة من ادب الذكاء ، أما اللزوميات فهى صورة من أدب العقل.

وانما كانت قصائد سقط الزند من صور الذكاء لانك ترى الشاعر يتحداك بقوته وعنفوانه ويكاد يعلن أنه اعلم الناس باللغة واعرفهم بمذاهب القول واقدرهم على البيان . والذى يغفل قراءة (سقط الزند) يفوته من المعرى شىء كثير لان قصائد الرجل فى شبابه كانت ثورة عقلية لا يفطن لها إلا من يعرفون خطر الشباب ويفهمون قدرته على تلوين الخيال .

أما اللزوميات فهى لون آخر : هى صيحة يرسلها رجل ملول فقد الثقة فى الحقائق وفى الناس . وأكاد اجزم بأن المعرى كانت فى روحه بقايا شباب حين نظم اللزوميات ، والا فكيف يمكن لمثل هذا الرجل ان ينقد الانظمة الاجتماعية فى قوة وعنف إن لم يكن يشعر بدمه يفور ويعتلج حين تصل إلى سمعه أخبار من يجاورهم من السوقة والملوك ؟

ان اللزوميات فيها الطيب وفيها الخبيث ، أما الطيب فهو القصائد التى كوى بها جباه الظالمين من الحكام والولاة ، والمقطوعات التى أرسلها سخرية لاذعة فى اقفاء المنافقين من أدعياء الزهد والتقوى والصلاح ، والابيات التى ساط بها ظهور المتعالمين . وأما الخبيث فهو القصائد التى أذاع بها سخطه على الدنيا وتبرمه بالوجود . فإن السخط على الدنيا كذب فى كذب ورياء فى رياء ، ولا يسخط على الدنيا وهو صادق إلا العاجز الضعيف الذى تفوته مباهج الحياة بالرغم منه ، فيتلوى فى غيظه تلوى الأسد المقتول .

خلف المعرى فى اللزوميات طائفة كبيرة من الحكم والأمثال . ولكن حكم المتنبى وأمثاله أقوى فى نفسى من كل ما خلف المعرى ، لأن المعرى نظم الحكمة بعد أن لاذ بالفرار ، أما المتنبى فقد نظم الحكمة وهو جندى يصول فى الميدان . وكان حقده على الناس حقد فتيان ثائرين ، لا حقد شيوخ بائسين ، وما أبعد الفرق بين الرجلين عند من يعرف كيف توزن أقدار الرجال .

كان للمعرى أدب فى شبابه وأدب فى شيخوخته ، أما أبو نواس فلم يعرف إلا بأدب الشباب لأن دنياه مرح ولهو وفتون ، فانطلق فى أودية البيان كيف شاء ، وخلف الخمريات التى تعد من أنفس الذخائر فى الأدب العربى ، فلما اكتمل وشاب أحب أن ينظم فى الزهد فعجز أقبح العجز وخلف أبياتا ومقطوعات ليس لها طعم ولا لون ، لأن الرجل كان أفرغ صباه فى الكأس والسقاة ، ولم يجد فى مشيبه من القوة ما يقنص به أسراب الخيال .

وما أنكر ان أبا نواس برع كل البراعة فى شعر الندم والابتئاس ، ولكن هذا من بقية شبابه ، وكانت له فى شبابه صحوات يميز فيها بين البر والفجور ، ويسلك مسالك الابرار فى الحياة ، وهى صحوات قصيرة ، ولكنها كانت قوية ، وهى الشاهد على انه كان يندم ندم الفتيان لا ندم الفانين .

ولنقترب من عصرنا فنقول :

كان حافظ إبراهيم أقوى من تغنى بشعر الوطنية وهو شاب ، وكانت قصائده على ألسنة الناس . وكان اسمه ملء المسامع ، ثم اختطفته الحكومة فالهته بوظيفة فى دار الكتب المصرية فسكت زمانا طويلا ، ثم فتح عينيه فرأى نفسه أحيل على المعاش . فعاد ينظم قصائد الوطنية ، ولكن هيهات . والذين قرأوا قصائده الأخيرة يذكرون أن أنفاسه كانت فواتر ، وأن نجمه كان يشرف على الأفول .

أما شوقى فكان شاعرًا فى شبابه وشيخوخته ، وكان شعره فى الشيخوخة أقوى وأجزل. والسر فى هذا يعرفه من عرف شوقى ، فالرجل كانت له آمال طوال عراض ، وكانت أعصابه كتلة من القوة والفتوة . وكان يضمد جراح الشيخوخة بأحلام الشباب ومن أجل هذا ظل يهدر هدير الفحول إلى أن عقله الموت بأعنف عقال .

أما بعد فقد كان يمكن أن يعالج هذا الموضوع بطريقة غير هذه الطريقة ، وكان يمكن أن يوضع بأسلوب غير هذا الاسلوب ، كأن يتحدث الكاتب عن العصور والممالك ، فيقول مثلا كان الادب فى شبابه يجرى على الفطرة ، وكان فى شيخوخته مثقلا بالزخرف ، ولكن هذا النوع من التحليل ملته الاسماع ومجته الأذواق ، وقد سلكنا هذا المسلك فى بعض ما نشرنا من المؤلفات فلم نشأ أن نعود إليه لاننا نكره الحديث المعاد .

وما أحسبنى أسأت حين آثرت هذا الوجه من وجوه المفاضلة بين ألوان البيان .

* * *

بلاغة الفاروق(*)

بقلم الدكتور زكى مبارك

المفتش بوزارة المعارف

إن بين القلب واللسان أواصر روحية وعقلية لا ينكرها إلا من يجهل أن اللسان ترجمان القلب وأن القلم رسول العقل ، فبلاغة الفاروق هى الصورة الصادقة لما انطوت عليه جوانحه من أصول الصدق والشرف والنبل ، فإن قال واصفوه انه كان من أصدق الخلفاء وأشرف الحاكمين ، فاعلم أنه كان كذلك من أصدق الخطباء وأشرف الكاتبين .

وكان من حظ عمر فى بلاغته أنه نشأ فى عصر عرف أهله بالتشوف إلى شرف القول ، فقد نشأ فى عصر تفرد بين العصور باعزاز البيان ، ألم تكن فصاحة القرآن هى المعجزة ، بعد أن كانت المعجزات ألوانًا من الخوارق تبهر الأبصار والحواس ؟

ولئن كانت فصاحة القرآن هى المعجزة لقد كانت كذلك هى السبب الأصيل فى انقياد عمر إلى الإسلام ، وانتقال الرجل من دين إلى دين بسبب الفصاحة هو أصدق شاهد على أنه خلق مفطورًا على تذوق الفصاحة وأسرار البيان .

وبلاغة القرآن التى فتنت عمر لم تصادفه وهو بكر القلب ، فقد يظهر أنه كان فى جاهليته رجلا بصيرًا بما خلف قومه من كرائم المعانى ، وقد يظهر أنه كان مفتونًا بالشعر وخبيرا بأغراض الشعراء ، وإلا فكيف اتفق له أن يتعصب لزهير ، وكيف صح لابن رشيق أن يحكم بأنه كان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة ، وكيف كان من سياسته وهو خليفة أن يوصى المسلمين بأن يرووا أبناءهم الأشعار كما يعلمونهن السباحة والرماية ؟

وأريد أن أقول : إن بلاغة الفاروق كانت تعتمد على أصل ثابت هو فهم الأدب ، أو هو بالفعل أديب ، فلو فاتته ظروف الخلافة التى فرضت أن يجيد الخطابة والانشاء لكان من أقطاب النقد الأدبى ، فقد كان هذا الرجل يملك أهم عنصر من عناصر النقد وهو السخرية ، والسخرية فن لا يحسنه غير الفحول . هل سمعتم قصة بنى العجلان ؟

(*) مجلة الهلال بتاريخ ١٩٣٨/١١/١ . وكان العرابى باشا قد عين زكى مبارك مفتشا يعقد على المدارس الأجنبية سنة ١٩٣٧ . ولهذا ذكر التفتيش بعد اسم زكى مبارك .

انهم قوم كانوا يفتخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه فى تعجيل قرى الأضياف، وظلوا كذلك حتى هجاهم به النجاشى الشاعر ، فضجروا منه وسبوا به ، واستعدوا عمر ابن الخطاب على الشاعر فقالوا: هجانا يا أمير المؤمنين . فقال عمر: وما قال؟ فأنشدوه:

إذا اللّه عادى أهل لؤم ورقة فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر : إنه دعا عليكم ، ولعله لا يجاب ! فقالوا : إنه قال :

قُبيّلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك ! فقالوا : انه قال :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر : ذلك أقل للسكاك ـ يعنى الزحام ! قالوا فإنه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر : كفى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه ! قالوا فإنه قال :

وما سمى العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم خادمهم ! فقالوا : يا أمير المؤمنين هجانا ! فقال: ما أسمع ذلك ! فقالوا : فاسأل حسان بن ثابت ، فسأله فقال : ما هجاهم ولكنه سلح عليهم !

أرأيتم كيف جرى هذا الحديث ؟

أرأيتم كيف يتغابى عمر بن الخطاب وكيف يتعامى عن أغراض الشعراء ؟

ان السخرية فى هذا الحديث بلغت الغاية فى الدقة ، واستطاع عمر أن يستجهل بنى العجلان ، وبلغ من أمره أن أوهمهم أنه لا يفهم ، وتلك أعجوبة الأعاجيب أن يقتنع قوم من العرب بأن عمر لا يفهم دقائق الهجاء .

والظريف فى هذه القصة أن يقول أولئك القوم لعمر : فاسأل حسان بن ثابت ، والأظرف أن يتمادى عمر فى التغابى فيسأل حسان !

* * *

قلنا إن عمر كان معروفا بقوة العارضة ومتانة القول ، وقد سار اسمه بين الخطباء والحكماء . وآية ذلك أن آثاره الأدبية صارت مجالا للتزيد يضيف إليها من شاء ما شاء ، والناس لا يضيفون الأقوال إلى رجل إلا بعد أن يعرف بالفصاحة والبيان ، وقد شاع بين رجال الأدب أن على بن أبى طالب أضيفت إليه خطب وأقوال ، فلنسجل أن عمر أضيفت إليه خطب وأقوال ، ولم يتزيد الناس على علىّ إلا لشهرته بالفصاحة وإجادة

القول ، وكذلك تزيدوا على عمر لشهرته بالفصاحة وإجادة القول . هل تذكرون حديث السقيفة ؟ إن كنتم نسيتم فأنا أذكركم بالحادث الذى وضع من أجله ذلك الحديث .

وخلاصته أن أبا بكر لما استقامت له الخلافة بين المهاجرين والانصار بلغه عن على تلكؤ وشماس ، فكره أن تتمادى الحال فتبدو العورة وتتفرق ذات البين ، فدعا إليه أبا عبيدة فى خلوة ، وكان عنده عمر بن الخطاب ، وأوصاه بأن يتلطف فى دعوة على إلى مبايعة أبى بكر وإعلان الرضا عن خلافته ، فلما هم أبو عبيدة بالانصراف لمعالجة الأمر الذى ندب له تبعه عمر فزوده بآيات من التلطف يلقى بها ابن أبى طالب ، فلما وصل إليه بثه ما تلقاه من أبى بكر وعمر ، فرق قلب على واعتذر عن تخلفه بحزنه البليغ على فقد الرسول ، إلى آخر الحديث .

والمهم أن نسجل أن الذى صنع حديث السقيفة أنطق عمر بهذه الكلمات :

« قل لعلى : الرقاد محلمة ، والهوى مقحمة ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وحق مشاع أو مقسوم ، ونبأ ظاهر أو مكتوم ، وأن أكيس الكيس من منح الشارد تألفًا ، وقارب البعيد تلطفًا ، ووزن كل شىء بميزانه ، ولم يخلط خبره بعيانه ، ولم يجعل فتره مكان شبره ، دينا كان أو دنيا ، ضلالا كان أو هدى ، ولا خير فى علم مستعمل فى جهل ، ولا خير فى معرفة مشوبة بنكر ، ولسنا كجلدة رفغ البعير بين العجان والذنب ، وكل صال فبناره ، وكل سيل فإلى قراره ، وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لعى وشى ، ولا كلامها اليوم لفرق أو رفق ، وقد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنف كل ذى كبر ، وقصم ظهر كل جبار ، وقطع لسان كل كذوب ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ما هذه الخنزوانة التى فى فراش رأسك ؟ ما هذا الشجا المعترض فى مدارج أنفاسك ؟ ما هذه القذاة التى تغشت ناظرك ؟ وما هذه الوحرة التى أكلت شراسيفك ؟ وما هذا الذى لبست بسببه جلد النمر ، واشتملت عليه بالشحناء والنكر ، ولسنا فى كسروية كسرى ، ولا فى قيصرية قيصر ! تأمل لاخوان فارس وأبناء الأصفر ، قد جعلهم الله جزرًا لسيوفنا ، ودريئة لرماحنا ، ومرمى لطعاننا ، وتبعا لسلطاننا . بل نحن فى نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة وأثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة ، بل أمة مهدية بالحق والصدق ، مأمونة على الرتق والفتق ، لها من الله قلب أبىّ ، وساعد قوى ، ويد ناصرة ، وعين باصرة . أتظن ظنا يا على ان أبا بكر وثب على هذا الأمر مفتاتا على الأمة خادعا لها أو متسلطا عليها ؟ أتراه حل عقودها وأحال عقولها ؟ أتراه جعل نهارها ليلا ، ووزنها كيلا ، ويقظتها رقادًا ، وصلاحها فسادًا ؟ لا والله ، سلا عنها فولهت به ،

وتطامن لها فلصقت به ، ومال عنها فمالت إليه ، واشمأز دونها فاشتملت عليه » . إلخ . إلخ

ثم مضى واضع القصة فحدثنا أن عمر نهر عليًا بهذه الكلمات :

« كفكف غربك ، واستوقف سربك ، ودع العصى بلحائها ، والدلاء على رشائها ، فإنا من خلفها وورائها ، إن قدحنا أورينا ، وان متحنا أروينا ، وان قرحنا أدمينا . ولقد سمعت أماثيلك التي لغزت بها عن صدر أكل بالجوى ، ولو شئت لقلت على مقالتك ما إن سمعته ندمت على ما قلت ... ومن أعجب شأنك قولك : ولولا سالف عهد وسابق عقد لشفيت غيظى . وهل ترك الدين لأهله أن يشفوا غيظهم بيد أو لسان ؟ تلك جاهلية وقد استأصل اللّه شأفتها ، واقتلع جرثومتها ، وهوَّر ليلها ، وغوَّر سيلها ، وأبدل منها الروح والريحان ، والهدى والبرهان » .

فكل ما جاء فى حديث السقيفة على لسان عمر انما صنعه التوحيدى أبو حيان ، وكذلك ما جاء على لسان أبى بكر ، وان خدع به رجال فى وزارة المعارف فأثبتوا منه قطعة فى كتاب المحفوظات للمدارس الثانوية .

ولم نبتكر نحن هذا التحقيق ، وانما سبقنا إليه ابن أبى الحديد الذى قرر أن حديث السقيفة شبيه بمذهب التوحيدى فى الخطابة والبلاغة ، وأن خطب عمر وأبى بكر ورسائلهما خالية من البديع ومن صناعة المحدثين الظاهرة فى ذلك الحديث ، وان الذى يتأمل كلام التوحيدى يعرف أن ذلك الحديث خرج من معدنه ، ويدل عليه أنه أسنده إلى القاضى أبى حامد ، وهذه حاله فى كتابه (البصائر) يسند إلى أبى حامد كل ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه ، إذا كان كارها لان ينسب إليه . ومما يؤيد أنه مصنوع أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والاشعرية وأصحاب الحديث وكل من صنف فى علم الكلام والامامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية . ولقد كان الرضى يلتقط من كلام على اللفظة الشاردة والكلمة المفردة الصادرة عنه فى معرض التألم والتظلم فيحتج بها ويعتمد عليها ، وكأنما يظفر بملك الدنيا ويودعها كتبه وتصانيفه ، فأين كان الرضى من هذا الحديث ؟ وكان الباقلانى شديدًا على الشيعة عظيم العصبية على علىّ ، فلو ظفر بكلمة من كلام أبى بكر وعمر فى هذا الحديث لملأ الكتب والتصانيف بها وجعلها هجيراه ودأبه ، ثم قال : « والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق فى علم البيان ومعرفة كلام الرجال ، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السير وأقل أنس بالتواريخ » .

وقد قرأت ما أثر عن عمر من الخطب والرسائل ، ثم نظرت فى حديث السقيفة فرأيت الاسلوب يختلف كل الاختلاف . وصدق ابن أبى الحديد حين جعل ذلك الحديث من صنع أبى حيان .

وقد بينت من قبل ان اختراع الأحاديث على لسان عمر لم يكن يصح إلا لشهرة عمر بالفصاحة وجزالة القول . ولعلى بلغت من ذلك بعض ما أريد .

* * *

ندع الكلام عن الشخصية الأدبية لعمر بن الخطاب ، وما وضع على لسان عمر بن الخطاب ، وننتقل إلى أدبه الصريح فنقول :

أهم ميزة فى بلاغة الفاروق هى أدب القضاء ، وقد شاء اللّه أن يلقب بالفاروق لمعنى من معانى العدل فى القضاء ، فهذا الرجل لم تستقم له الأمور مصادفة واتفاقا ، وانما قام ملكه على العدل ، واستطاع أن يملأ الدنيا بالحقائق والأساطير بفضل العدل ، وقد شاع فى المشرقين والمغربين أن أحد الوافدين عليه رآه نائما على قارعة الطريق فقال : « عدلت فأمنت فنمت » ومن المرجح أن هذه العبارة نقلت إلى أكثر من خمسين لغة ، ورددتها ملايين الالسنة فى مختلف الاجيال .

ولا ينتظر القارئ من الفاروق كتبًا فى القضاء تشبه مؤلفات رجال القانون ، فلم يكن العصر عصر درس واستقصاء ، على نحو ما عرف المسلمون فى أيام الدولة العباسية ، ولكن الرسائل القليلة الباقية من أدب ابن الخطاب تشهد بأنه كان من أعرف الرجال بأدب القضاء .

هل تعرفون كتابه إلى معاوية بن أبى سفيان ؟ انه يقول بعد التمهيد .

« إلزم خمس خصال يسلم لك دينك ، وتأخذ فيه بأفضل حظك : إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة ، أو اليمين القاطعة ، وأدن الضعيف حتى يشتد قلبه ، وينبسط لسانه . وتعهد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله ، وانما ضيع حقه من لم يرفق به . وآس بين الناس فى لحظك وطرفك ، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستبن لك فصل القضاء »

والحكمة البالغة فى هذا الخطاب ليست فى البينة ولا فى اليمين ، وانما هى فى الكلام عن الضعيف والغريب ، فقد كان عمر يعرف أن ناسا تضيع حقوقهم بسبب الغربة والضعف ، وكان يدرك أن القضاة ينخدعون بزخرف القول ، وأن الضعيف قد يتلجلج لسانه فيضيع حقه ، وأن الغريب قد يتهيب الموقف فلا يبين .

وهذه الكلمة العالية : « آس بين الناس في لحظك وطرفك » انها تشهد بما كان يعرف عمر من أسرار النفوس .

وقد أكد هذا المعنى فى رسالته إلى أبى موسى الأشعرى إذ قال :

« آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك » .

وكذلك كان الاقوياء فى جميع العصور مثارًا للخوف من ازدلاف القضاء ، وكان الضعفاء مثارًا للخوف من انحراف القضاء .

وقد دعا الفاروق إلى الصلح فى الظروف التى لا يبين فيها وجه الفصل ، ثم أوضح ذلك فى رسالته إلى أبى موسى فقال :

« والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما ، أو حرم حلالا »

وهو بذلك يجعل الصلح مشروطا بالانصاف .

وقد وضع الفاروق أساس « الاستئناف » ولكنه أسرع فجعل ذلك من واجب القاضى قبل أن يجعله من حق المتقاضين ، أليس هو الذى يقول :

« ولا يمنعنك قضاء . قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » .

وهو بهذا يذكر القضاة بأنهم ناس يخطئون ويصيبون ، وتعمى عليهم مسالك الحق فى بعض الأحيان .

وقد خشى ابن الخطاب أن يكون فى القضاة من يضجر ويتأذى فقال :

« واياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم به اللّه الأجر ، ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه اللّه ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم اللّه إنه ليس من نفسه شانه اللّه».

* * *

وهذه الفقرة الأخيرة تذكرنا بعنصر مهم من عناصر البلاغة الفاروقية ، وهو الدعوة إلى أدب النفس ، وأكثر ما يكون ذلك فى وصايا الحرب ، فقد كان هذا الرجل يقيم وزنا كبيرًا للقوة المعنوية وكان يفهم أن الجندى لا يشجع إلا حين يثق بأنه أفضل من خصمه من الوجهة الخلقية . وانظروا كيف يقول فى خطابه إلى سعد بن أبى وقاص :

« أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الاجناد بتقوى اللّه على كل حال ، فإن تقوى اللّه أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا

أشد احتراسًا من المعاصى من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وانتم فى سبيل الله، ولا تقولوا ان عدونا شر منا فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم شر منهم ، كما سلط على بنى اسرائيل - لما عملوا بمساخط الله - كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولا ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم».

فهذه الرسالة تبين كيف كان عمر يحرص على أدب النفس ، وترينا كيف كان يدرك أن القوة تكون أولا فى النفس ، النفس البريئة من الظلم والجور والعسف . وهل رأيتم أقوى من هذه الكلمة : « ان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم » ؟

وعمر لا يرى الإيمان كل شىء ، وعنده أن المؤمن المذنب أهل لأن يكون فريسة للكافرين ، وهو يحدثنا أن المجوس وهم كفار انتصروا على بنى اسرائيل وهم مؤمنون .

وبقليل من التأمل ندرك أن عمر يرى أن العمل أصل النجاة ، وأن العقيدة المجردة لا تنفع ، وانما النفع فى العمل الصالح ، فهو الذى يرفع ويخفض ، وبالعمل وحده يكون بعض الناس أفضل من بعض وأقدر على الظفر بالمنافع والخيرات .

والبلاغة فى أمثال هذه الرسائل ليست بلاغة سطحية تعتمد على الزخرف والبريق ، وإنما هى بلاغة تقوم على أصول من الشرف ومن العدل ، فإن سمعتم أنه بلغ بها من أنفس جنوده ما أراده فتذكروا أن جنوده كانوا يعلمون انها تصدر عن قلب عامر بأشرف ما تعمر به القلوب .

* * *

أما بعد فقد كان فى النية أن نبين كيف تصور بلاغة الفاروق أحوال عصره ، ولكن خشينا عواقب الاسهاب ، فهل يسمح القارئ بذكر شاهد واحد يبين خوفه من ارتفاع المبانى فى مصر ؟

لقد سمع عمر أن خارجه بن حذافة بنى غرفة بمصر - والغرفة لا تكون فى الدور الاول فكتب إلى عمرو بن العاص :

« سلام عليك ، أما بعد فإنه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة أراد بها أن يطلع على عورات جيرانه ، فإذا أتاك كتابى هذا فاهدمها ، ان شاء اللّه ، والسلام » .

والمدنية الحديثة تنكر ما اشار به ابن الخطاب ، ولكن مهلا ، فكم كانت نوافذ الغرفات بابا من الشر ومثارًا للفتون !

وليس يضير عمر أن لا تنسجم آراؤه مع المدنية الحديثة ، وانما يشرفه أن يحفظ التاريخ أنه كان يتطلع إلى كل شىء من أخبار رعاياه فيعرف وهو بأرض الحجاز أخبار المنازل فى وادى النيل .

وقد كان القارئ ينتظر أن نحدثه عن اسلوب الفاروق ، ولكنه لاحظ ولا ريب كيف قضى ابن أبى الحديد بأن اسلوبه كان خاليا من الزخارف التى أولع بها المحدثون .

فبلاغة الفاروق هى وحى الفطرة ، هى صورة من صراحته الناصعة فى الحكم على الناس وعلى الأشياء ، وما كان هذا الرجل معروفا باكثار ولا اقلال ، وانما كان كلامه يصاغ وفقًا للظروف ، فلم يؤخذ عليه تفريط ولا إفراط .

هذا ، وأعترف بأننى لم ابلغ من هذا البحث كل ما أريد ، ولكن جهد المقل غير قليل.

* * *

النواحى الإنسانية فى الرسول(*)

للدكتور زكى مبارك

أعتقد أن شخصية النبىّ محمد لم تُدرس حق الدرس إلى اليوم فى البيئات الإسلامية لأن المسلمين يجعلونه رسولاً فى جميع الأحوال : فهو لا يتقدم ولا يتأخر إلا بوحى من اللّه ، ولا يأخذ ولا يدع إلا بإشارة من جبريل .

ومعنى ذلك أن شخصية محمد فى جميع نواحيها شخصية نبوية لا إنسانية .

يضاف إلى هذا أن جمهور المسلمين يعتقدون أن النبوة لا تُكتَسب ، وهم يعنون بذلك أنها لا تنال بالجهاد فى سبيل المعانى السامية ، وإنما هى فضل يخص اللّه به من يشاء .

وإنما غلبت هذه العقيدة لأن الإسلام نشأ فى بيئات وثنية ، أو خاضعة للعقلية الوثنية ، والرسول لم يَشُقَ بين قومه إلا لأنه حدثهم بأنه بَشرٌ مثلهم ، ولو أنه كان استباح الكذب فحدثهم بأن فيه عنصرًا من الألوهية لوصل إلى قلوبهم بلا عناء .

* * *

الواقع أن محمدًا كان آية من آيات التاريخ ، ولكن كيف ؟ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . فبنو آدم يصلحون لكل شىء إلا سماع كلمة الحق .

أراد اللّه أن يكون الإسلام إعزازًا للفكرة الإنسانية ، ولكن بنو آدم يؤذيهم ذلك ؛ لأنهم خضعوا لألوف أو ملايين من الأوهام التى تشل القلوب والعقول .

كان محمد إنسانًا بشهادة القرآن ، والقرآن كتاب سماوىٌّ نص على أن محمدًا إنسان ، وبنو آدم يؤذيهم أن يتلقوا الحكمة على رجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق !

وفى غمرة هذه الضلالة نُسيت النواحى الإنسانية فى حياة الرسول وإلا فمن الذى يصدق أن رجلاً مثل محمد يضيع من عمره أربعون سنة بلا تاريخ .

ولأى سبب ينسى الناس أو يتناسون تلك المدة من حياة الرسول ؟

إنهم يصنعون بتاريخ الرسول ما صنعوه بتاريخ الأمة العربية لأنهم أرادوا أن يخضعوا خضوعًا تامًا للمعجزات ، فالنبى لم يكن رجلاً عبقريًا وإنما خصه اللّه بالرسالة فكتب له الخلود ، والعرب لم يكونوا أمة قوية وإنما ارتقوا بفضل الرسول .

(*) مجلة الرسالة مارس ١٩٣٩ .
نشرت هذه المقالة من قبل فى أحد كتب زكى مبارك ولكننا أبقينا عليها هنا لورود الحديث عنها فى المقالة التالية ...

وما يجوز عند جمهور المسلمين أن يقال : إن اللّه خصَّ محمدًا بالرسالة ، لأنه كان وصل إلى أسمى الغايات من الوجهة الإنسانية ، ولا أن يقال : إن اللّه اختار ذلك الرسول من العرب ، لأنهم كانوا وصلوا إلى غاية عالية من قوة الروح .

* * *

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أمشى على الشوك وأنا أقيد هذه الفكرة الفلسفية ، لأن بنى آدم يحتملون جميع الأفكار ، إلا الأفكار المتصلة بحيوات الأنبياء .

ثم ماذا ؟

كان محمد إنسانًا قبل أن يكون نبيًّا ، وذلك من أعظم الحظوظ التى غنمها فى التاريخ، فسيأتى يومٌ قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبية ، ولكنهم لا يستطيعون أن يثوروا على عبقرية محمد .

كان محمدٌ فى سريرة نفسه إنسانًا يخطئ ويصيب ، بدليل ما وُجِّه إليه من اللوم أو العتب فى القرآن ؛ وهو قد خضع للضعف الإنسانى فذرف الدمع السخين يوم مات ابنه إبراهيم ، وهو قد عانى الحب والبغض كسائر الناس ، وهو قد توجّع من ظلمات الخطوب ، وهو قد تألم من غدر الأصدقاء ، ثم لم ينج من الكرب عند سكرات الموت .

* * *

أحبك أيها الرسول !

أحبك لأنك كنت إنسانًا له ذوقٌ وإحساس ، ولم تكن كما يصوِّرك الجاهلون الذين رأوا عظمتك فى أن تكون حاكيًا لوحى السماء ، وما أُنكر وحى السماء ، ولكنى أومن بأن فى السريرة الإنسانية ذخائر من الصدق والروحانية ، وأنت أول نبى أعز السريرة الإنسانية .

أليس دينك هو الدين الذى تفرد بالنص على أن المرء يتصل بربه بلا وسيط ؟

أحبك أيها الرسول وأشتهى أن أتخلق بأخلاقك السامية . أحب أن أكظم غيظى كما كنت تكظم غيظك . أحب أن أسلم بجهادى من شهوات النفس كما سلمت بجهادك من شهوات النفس . أحب أن أفرَّ من الشيطان كما فررت من الشيطان ، على شرط أن أحب الحياة كما أحببت الحياة .

أتدرى لماذا أحبك أيها الرسول ؟

لأنك أول من شرع الديمقراطية بين الأنبياء . ألست أنت الرجل الذى كان يتبذل فى أكله ويقول :

« إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد » .

أتدرى لماذا أحبك أيها الرسول ؟

أحبك لأنك جعلت الحرب فى سبيل الحق شريعةً من الشرائع وهى مزية إنسانية ، وكان الأنبياء من قبلك يكتفون بالتفكير فى عجائب الملكوت !

أحبك لأنك أعلنت حبك لطيبات الحياة واحتقرت الرهبنة والانزواء فى المعابد والصوامع .

أحبك لأنك انتقلت من المعلوم إلى المجهول .

أحبك لأنك أعززت الشخصية الإنسانية يوم اعترفت بأنها صالحةٌ للخطأ والصواب .

ولكن ما رأيك فيمن يقاومون الحرية الفكرية باسم الغيرة على دينك ؟

ما رأيك فيمن لا يرضيهم أن تكون إنسانًا يتذوق أطايب الحياة ويلهو أحيانًا بالمزاح المقبول ؟

ما رأيك فيمن يحاربون الفنون والآداب باسم الدين ؟

ما رأيك فيمن يتوهمون أن الشخصية النبوية مجردة من البهجة والأريحية ؟

ما رأيك فيمن يُخرِجون من فردوس العقيدة الصحيحة كل من يتّسم بسمة الحب لأطايب الحياة ؟

أنت حاربت الزهد ، وحاربت العبوس ، وحاربت اليأس ، ولكن بعض الناس يرون الإيمان لا يكمل إلا عند من يغرقون فى لجج المسكنة والكآبة والقنوط .

كنت إنسانًا أيها الرسول قبل أن تكون نبيًّا ، وتلك الإنسانية هى التى فتحت صدرك للصفح عن هفوات الناس ، وهى التى جعلتك تنظر إلى ضعفهم بعين العطف ، وهى التى قضت بأن تذوق ملوحة الدمع فى بعض الأحيان .

أنت نزهت نفسك عن الشعر ، الشعر المحبوس فى قواف وأوزان ، ولكننى لا أنزهك عن الشاعرية العالية التى تواجه الوجود بنظر ثاقب ، وقلب حساس .

وكيف تخلو من الشاعرية وقد خلوتَ إلى مناجاة القلب فى غار حِراء ؟ كيف تخلو من الشاعرية وقد كنت رجلاً فحلاً يجيد افتراع المعانى ؟

أنا أعرف لماذا نزهت نفسك عن الشعر أيها الإنسان الحساس إنما نزهت نفسك عن الشعر لأن الشعراء فى عصرك لم يكونوا عظماء الأرواح .

وإلا فأى شعرٍ فاتَك وأنت تدعو إلى التفكير فيما خلق الله من غرائب وأعاجيب ؟

أى شعر فاتكَ وأنت تجعل السير فى الأرض من واجبات الرجال ؟

أى شعرٍ فاتَك وأنت الذى أشار بالأفضلية فى الإمامة لمن وهبهم الله حسن الوجه وجمال الصوت ؟

أى شعرٍ فاتَك وكان شخصك الكريم قيثارة تتغنّى بمحاسن الوجود ؟

* * *

الآن عرفتُ لماذا يضن عليك بعض أتباعك بصفة الإنسانية ، أنما فعلوا ذلك لأنهم فى ذات أنفسهم لا يؤمنون بعظمة الإنسانية ، أما أنت فقد رميت بالكفر كل من يريد أن يخلع عليك ثوب الألوهية لأن الله خصك بأجمل مزية من مزايا الإنسانية وهى الصدق .

لقد فكرتُ مرات كثيرة من الاقتراب من روحك فلم يعقنى عائق لأن بينى وبينك وشيجةً من الإنسانية .

ودعانى الشوق مرة إلى مسامرة خيالك فرأيتك إنسانًا كاملاً لا تقع عينه على غير الجميل من شمائل الأصدقاء .

وصحبتك مرةً فى بعض غزواتك فهالنى أن تكون رجلاً نبيلاً يصبر على الظمأ والجوع والأذى فى سبيل الحق .

وشهدتك وأنت تعانى الكرب من فضول الناس وتزيّد المنافقين وتقوّل السفهاء فعرفت أنك إنسانٌ ممتاز ، لأن الابتلاء بأذى الناس لا يكون إلا من حظوظ الممتازين بين الرجال.

وشهدتك يوم الموت وأنت تواسى ابنتك فتقول : « لا كرب على أبيك بعد اليوم » فعرفت أن الكرب فى الدنيا مقصور على عظماء الرجال .

شهدتُ من أخلاقك وشمائلك ما شهدتُ ، أيها الإنسان الكامل ، فزدتُ اقتناعًا بأنك على خلقٍ عظيم .

ولكن ما هى العظمة فى خلقك ، أيها الرسول ؟

أنت رويت القرآن عن جبريل فيما يقول المؤمنون ، وأنشأت القرآن فيما يقول الملحدون . وهذا القرآن فيه لوم كثير وجه إليك ، فإن كان وحيًا من السماء فأنت غاية الغايات فى أمانة التبليغ ، وإن كنت أنت منشئ ذلك الكتاب كما يقول الملحدون فأنت غاية الغايات فى أدب النفس ، لأنك سجلت ما آخذت به نفسك فى كتاب مجيد .

وأين الرجل الذى يدين نفسه بنفسه كما صنعت أنت حين رويت القرآن أو حين أنشأت القرآن ؟

لقد وضعت أعظم دستور للسريرة الإنسانية ، وهو دستور الصدق ، يا أصدق من عرف التاريخ من الرجال .

* * *

أما بعد فقد ارتاض القول بعد جموح ، وصار من السهل أن أحكم بأن النبوة عهد من عهود العظمة فى الطبيعة الإنسانية ، ولولا خوف الفتنة لزدت هذا المعنى تفصيلاً إلى تفصيل .

محمد إنسان ، ولكنه إنسان مظلوم ، لأن أتباعه جردوه من فضل الاجتهاد فى سبيل الخير والحق والجمال .

وهنا تظهر مزية جديدة لذلك الرسول هى نكران الذات ، فلو كان محمد رجلاً من أمثال فلان وفلان وفلان من الذين نقلوا أممهم من حال إلى أحوال لملأ الدنيا بالحديث عما وضع للحياة من أصول وقوانين .

ولكن محمدا كان يحب أن يعيش مسكينًا وأن يحشر بين المساكين ، وقد جزاه اللّه خير الجزاء ، فخصه بالعظمة فى الحياة وبعد الممات .

محمد بشرٌ مثلكم يا بنى آدم ، وقد دعاكم إلى التخلق بأخلاقه ، ولم يكتف بذلك ، بل دعاكم إلى التخلّق بأخلاق اللّه إلا الكبرياء .

فهل رأيتم إنسانية مثل هذه الإنسانية ؟

محمد تحدث عن هفواته - إن كان له هفوات - ليدلكم على أن العظمة الحقيقية لا تكون إلا باتهام النفس والحذر من طغيان الأهواء .

كان محمد يقول فى صدر خطبته « أيها الناس » أو « يا عباد اللّه » .

وأنتم تقولون فى صدور الخطب « أيها السادة » أو « سيداتى ، سادتى » .

فتأملوا الفرق بين العبارتين لتعرفوا أنه كان يبتعد عن تملق الأهواء .

استطاع محمد أن يتحدث عن هفوات الأنبياء ، وعجزتم أنتم عن الحديث عن هفوات الزعماء .

فاعرفوا - إن شئتم - أن عظمة محمد من الوجهة الإنسانية هى تمجيد الصدق والخوف من زيغ القلوب .

قد تقولون : إن اللّه أوحى إليه أن يكون كذلك .

وأجيب بأن أكمل خصيصة من خصائص الرجال هى الصلاحيةُ لتقبُّل وحى السماء .

وللسماء وحيٌ فى كل وقت ، ولكن أين القلوب التى تسمع ؟

إن محمدًا حدثكم بأن الرجل يستطيع أن يخاطب ربه بلا وسيط .
فأين المسلم الذى فهم أسرار الحروف واتجه بقلبه إلى مناجاة فاطر الأرض والسموات؟
أين المسلم الذى تأدب بأدب الرسول فعرف أنه مسئول أمام اللّه لا أمام الناس ؟

* * *

والآن أرجع إلى نفسى فأقول :

كان محمد إنسانًا ، ولكنه كان أعظم من جميع الناس لأنه لم ير الغنيمة فى غير المعنويات .

كان محمد يستطيع أن يبنى لنفسه دارًا تشبه إيوان كسرى ؛ وكان يستطيع أن يبنى لنفسه قبرًا يشبه هرم فرعون ، ولكنه آثر أن يحيا ويموت وهو فى مَتربة المساكين .

إن محمدًا ظلم نفسه لينتصر ويفوز ، وقد انتصر وفاز .

إن محمدًا حرم نفسه أبهة الملك ، وباسمه عاش الملوك .

إن محمدًا حرم نفسه الشهرة بإجادة البيان ، وبفضل الكتاب الذى بلّغه عاش البيان .

فيارسول اللّه ويا إمام العرب والمسلمين إليك أوجه أصدق الثناء .

* * *

الكلام هو اللفظ المركب المفيد :

شرح الأجرومية ![*]

للدكتور زكي مبارك

ابتسم الزيات وقال : ما هذا التعسف الذى يقع فيه أصحابك الصوفية ؟

فقلت : وما شواهد ذلك التعسف ؟

فقال : ألم تعلم أن أحدهم شرح الأجرومية بطريقة صوفية ؟

* * *

ثم رجعت إلى نفسى أحاورها فى صمت هو أعنف ما يكون من الضجيج ، فقد تذكرتُ أن حالى فى دنياى كان حال الرجل الذى شرح الأجرومية بطريقة صوفية ، وأخشى أن أصير إلى ما صار إليه ، فلا أظفر من الناس بغير السخرية والاستهزاء .

ولكن ، هل أملك التوبة من الشطط والجموح فلا أفجع الناس فى أوهامهم من وقت إلى وقت ، ولا أشرح لهم الأجرومية بطريقة صوفية ؟

وكيف أسكت عنهم وأنا أريد أن أطمئن إلى أن لهم وجودًا ذاتيًّا يسمح لهم بالرضا والغضب ، والقهقهة والأنين ؟

إن القلم فى يد الكاتب هو المِشرط فى يد الطبيب !

وكنت لعهد اشتغالى بالطب أعرف مصير المريض بعلامة صريحة ، هى إحساسه بوخز المِشرط ، فإن صرخ عرفت أنه مرجوّ العافية ، وإن سكت سكوت الجمود لا سكوت الصبر ، عرفت أنه صائر إلى الموت ...

وهل أنسى اليوم الذى سمعت فيه أقبح ألوان السباب من مريض أعملت فيه المِشرط بلا تهيب ولا ترفق لأنقذه من أظفار المنية ؟!

ثم اتخذت من القلم مِشرطًا أعالج به أمراض القلوب بعد أن فرغت من علاج الأبدان، فما الذى رأيت ؟

قضيت سنين بدون أن أسمع من مرضاى صرخة جزع أو شهقة بكاء ، فكنت أيأس من سلامة مرضاى ، وهممت بتوديع مهنة الأدب كما ودعت مهنة الطب ، لأرجع فلاحًا يصاحب الفأس والمحراث فى حقول سنتريس ...

---

[*] مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٠/٢/٢٦ .

ثم لطف الله بمرضاى فهداهم إلى الصراخ والأنين لأعرف أن الأمـل فـى نجـاتهم ليس من المستحيلات .

أما بعد فقد حان الوقت لشرح الأجرومية والألفية والسنوسية بطريقة صوفية .

حان الوقت لشرح عجائب النهار وغرائب الليل .

حان الوقت لعلاج العقول والقلوب والأذواق والأحاسيس لكنى أخاف ...

ما الذى أخاف ؟

أخاف من عواقب القلم ما كنت أخاف من عواقب المشرط .

والدولة تسأل الطبيب الذى يجنى على حياة مريض ، ولكنهـا لا تسـأل المريـض الـذى يجنى على حياة طبيب .

وهل يعرف زملائى كيف هجرت مهنة الطب ؟

هجرت تلك المهنة هجرًا غير جميل بسبب حادث رأيت به شبح الموت .

كنت أعمل المشرط بيمناى فى جسد عليل فمسَّ أصبعًا مـن يسـراى فـارتجفتُ ، لأن أساتذتى بكلية الطب فى باريس علمونى أن العلـم بخطـر المـرض قـد يفضـى بصاحبـه إلى الفناء ، ومن هنا جاز أن تصنع جرثومة واحدة بجسم الرجـل الصحيـح مـالا تصنـع ألـف جرثومة بجسم الرجل العليل .

وفى ذلك الوقت عللت نفسى فقلت : إنمـا هـى جرثومـة فانيـة مـن جسـم يـدبّ إلى الفناء، ولا خوف علىّ وأنا أطاول الدهر بجسم يضارع أجسـام العمـاليق ، وبعـد يـوم أو يومين أمنت عواقب ذلك الجرح ، ثم انصرفـت إلى غـير رجعـة عـن مهنـة الطـب واليـوم يصنع القلم ما صنع المشرط .

أسمع صراخ مرضاى فأبتسم ، لأن صراخهم يشهد بأنهم أهـلٌ للحيـاة ، ولكـن ذلـك الصراخ تقع فيه أحيانًا ألفاظ غلاظ ينزعج لها ذوقى بعـض الانزعـاج ، فهـل تكـون هـذه الألفاظ كتلك الجراثيم ؟

إن كان ذلك فسأستشهد فى ميدان الأدب بعد أن فاتنى الاستشهاد فى ميدان الطـب، وعند الله والحب جزائى !

وما خوفى من تلك الألفاظ الغلاظ وأنا بعافية وأسـتطيع التمـرد علـى جميـع الأدواء ، وفى صدرى من اليقين ما يزعزع رواسى الجبال ؟

وهل يصل الطبيب إلى شىء إذا عرف المبالاة بأوهام مرضاه ؟

لقد كتب مرضاى ما يزيد على ألف مقال ، وأسمعونى صراخهم فى كل بلد توجهت إليه ، ولم أر منهم غير الاستخفاف بصُنع الجميل ، وكنت مع ذلك آية فى الصبر على مكاره العقوق ، فكيف أجزع وقد أمدتنى الأيام بقوة القلم والمِشرط ، كما أمدتنى بقوة الظفر والناب ؟

* * *

قال الزيات : الرسالة تنتظر منك مقالاً لعدد الهجرة لا تكفر فيه كما كفرت فى مقال السنة الماضية !

سبحان اللّه !

وأنا كفرت فى السنة الماضية ، يا زيات ؟

ألم تعلم ، يا زيات ، أن مقالى كان فرصة ذهبية لعشرات أو مئات يأكلون الخبز باسم الغيرة على الحق ؟!

إن مقالى عن « النواحى الإنسانية فى الرسول » علّم أقوامًا سهر الليالى فى البحث والتنقيب ، فكيف تبخل فلا تعد ذلك المقال من حسناتى ؟ وكيف تنسى أننى هجت به صدورًا كنت أخشى عليها الموت بالصدأ والجمود ؟

وهل تصدَّق أن فى خصومى من يدرك عظمة الرسول كما أُدرك ؟

إن بينى وبين الرسول صلة وثيقة هى البلاء بالدنيا والناس ، فكيف يتوهم قومٌ أنهم يغارون عليه أكثر مما أغار عليه ، وهم لا يتقدمون لنصرته إلا مدفوعين بالثمن الذى أعرف وتعرف ؟

إن فى خلق اللّه من يأكلون الشهد بفضل الرياء ، فكيف يؤذيهم أن نشرب أكواب الصاب والعلقم بسبب القول الصريح ؟

ألم يكف ما نعانى من الإيذاء فى سبيل الصدق حتى نشرب السم من أيدى المرائين ؟

وإلى متى يستريح المرضى من أمراضهم بالصراخ ؟

ألا يتقدم الطب فيجد للمرضى علالة غير الصراخ ؟

إن الصراخ كان صوت الطفل وكان أسلوبه فى التعبير عن ألمه قبل أن يعرف النطق ، فما بال قوم يصرخون وقد علمناهم أساليب البيان بالكلام المفيد ؟

ما بال قوم يصرخون وقد هديناهم إلى النطق وشرحنا لهم الأجرومية بطريقة صوفية ؟

ما بالهم يصرخون وقد علمناهم أساليب الصبر الجميل ؟

ولكن لا بأس فالصراخ فن من التعبير عن الألم ، ولا يحس الألم غير الأحياء ، ومعنى ذلك أن مرضانا غير أموات ، ولله الحمد وعليه الثناء .

قلت لنفسى : هذا زيد الذى كان يرانى من أشرف الناس ، وذاك عمرو الذى كان يرانى من أعظم الرجال ، وذلك بكر الذى كان يرانى من الأبطال ، فما بالهم ينوشوننى بلا ترفق ولا استبقاء وكنت لهم ظهيرًا فى أحرج الظروف ؟

فأجابت النفس : أولئك مرضاك عاودتهم العافية على يديك فهم يشهدونك على أنهم أصبحوا من الأصحاء .

فقلت : أما يملكون من التعبير غير هذا الأسلوب البغيض ؟

فقالت النفس : ألست أنت الذى قال بأن الكفر لا يكثر فى غير الأمم القوية ؟

ومن هذا الحديث عرفت أننى نقلت مرضاى من المرض إلى الصحة ، ومن الصحة إلى التمرد ، ومن التمرد إلى الجحود .

أما بعد ، ولى فى كل لحظة « أما بعد » لأن ذهنى ينتقل فى عراك الأفكار من ميدان إلى ميدان بسرعة البرق .

أما بعد فقد عشت دهرى زاهدًا كل الزهد فى خلق المودّات والصداقات ، لأن أهل زمانى لا يرون هذه الأواصر الجميلة إلا ضربًا من ضروب المنافع ، وفيهم من يرى الشكر على المعروف أعظم من المعروف ، فلا يرضيهم إلا أن تعترف بأنك مَدين وإن طوقتَ أعناقهم بقلائد الجميل .

وأنا والله راض عما يصنعون ، لأن اللغو الذى يلقوننى به من وقت إلى وقت يشهد بأنهم يملكون من الصحة ما يقدرون به على شتم الطبيب المجاهد الذى استعذب من أجلهم شقاءه بالدنيا والزمان .

ولكن ما أصل البلاء الذى نعافيه من الناس ؟

يخاصمنى فريق باسم الأدب ، ويخاصمنى فريق باسم الدين .

فأين يقع الحق مما يريد أولئك أو هؤلاء ؟

هل يستطيعون القول بأنهم لا يبتغون من مخاصمتى غير وجه الحق ؟

إن كان ذلك فأين ما هتفوا به من أن الشهرة التى ظفرت بها هى التى تضللنى فتحملنى على مجانبة الحق فى بعض الأحيان ؟

وهذه الشهرة هى أصل تلك الضغائن والحقود ، ولكن ما الذى أصنع وقد هربت من الشهرة مليون مرة فكانت تلاحقنى بلا هوادة ولا رفق ؟

دلونى على جريدة أو مجلة عرضت عليها أدبى بثمن أو بغير ثمن دلونى على ناد ألقيت فيه محاضرة بدون دعوة .

دلونى على عمل توليته بدون أن أستعد له بأهلية الفكر والعقل . هل سمعتم حديث الإذاعة اللاسلكية ؟

يسألنى الناس كل يوم عن سبب انقطاعى عن الإذاعة ، فأين فيهم من يعرف أن لى بمحطة الإذاعة صديقًا كريمًا هو الأستاذ سعيد لطفى ؟ وأين فيهم من يعرف أن ذلك الصديق يعجب من انصرافى عن الإذاعة مع أن المستمعين يرحبون بصوتى كل الترحيب ؟ وأين فيهم من يعرف أن الحرص على الوقت هو الذى يضيع علىَّ شرف التحدث إلى أصدقائى فى مصر والأقطار العربية ، مع أن لتلك الأحاديث أجرًا غير قليل ، ولو شئت لجعلته أجرًا غير ممنون كما يصنع بعض الناس !

وأين يضيع وقتى ؟

وهل عندى وقت يصلح للحفظ أو الضياع ؟

وهل للموظف وقت غير السويعات التى يتكلف إحياءها بين الأهل والأبناء ؟

ومن تلك السويعات أخلق الفرصة لمسايرة الحياة الأدبية فأقرأ جميع الجرائد والمجلات ، وأراجع ما يهمنى النظر فيه من المؤلفات العربية والفرنسية ، وأكتب ما أراه من الملاحظات على ما أقرأ وما أسمع ، ثم أخلو بعد ذلك إلى قلمى فى صحبة العفريت الذى سمعتم أخباره فى خطابى إلى الدكتور طه حسين !

وبهذه المناسبة أذكر أنى ركبت المترو منذ أيام فرأيت بالقرب منى فتًى يُشبه كلود ، فقطعت المسافة وأنا مرتاب فى أنه كلود* ، ثم عرفت فى النهاية أنه كلود ، ولم أسلم عليه لئلا يتوهم أنى أغضيت عنه كل ذلك الوقت .

فكيف قضت الأيام بأن أجهل وجه ابن أخى ، وما عرف فى طفولته أن لأبيه صديقًا أعرف منى بالود ، وأحفظ له ؟

ثم أرجع فأقول إن ما تقرأونه بقلمى من وقت إلى وقت هو عصارة تلك السويعات أو تلك اللحيظات ، فما غيظ بعض الناس من الشهرة التى جناها الصبر على سهر الليل ؟

الليل ؟ الليل ؟

وأين من يعرفون سهر الليل فى هذه الأيام ، السهر فى صحبة الورق والمداد ؟

---

* كلود هو مؤنس طه حسين وهو فى باريس كلود .

كان من حقى أن أصوّب سنان القلم إلى صدور من يأكل السُّحت ، صدور الذين يأكلون الخبز باسم اللغة العربية وقد تمضى الأعوام ولا يزوّد أحدهم نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش ، فضلاً عن المساهمة فى البحث والتأليف .

وكان من واجب من عابوا نشاطى أن يوجهوا ملامهم إلى الكسالى الظرفاء من أمثال فلان وفلان وفلان ، وهم قوم أعطاهم الزمن حقوقًا لن أنالها ولو عُمِّرت عمر نوح ، لأن هيامى بصحبة الورق والمداد سيضيع علىَّ جميع المنافع الدنيوية ، وقد أموت بسبب الكدح الموصول قبل أن يموت فلان مع أنه وُلد قبل أن يولد أبى . رحم اللّه أبى وأسبغ على ذلك الفلان ثوب العافية !

ثم ماذا ؟

ثم أوجه القول إلى من يتوهمون أنهم أحرص منى على الدين وأمرى مع هؤلاء عجبٌ من العجب ، فقد شقيت ما شقيت فى خدمة الدراسات الدينية ، ثم كانت النتيجة أن أُتَهم برقة الدين وأن يظفروا بحسن السمعة مع أن فيهم ناسًا لا يعرفون أخبار المؤلفات الدينية إلا بالسماع .

إسمعوا كلمة الحق مرة واحدة ، أيها الناس .

الإسلام دين العدل والتوحيد ، ولكن أين من يخدمه بلا جزاء ؟

فى « مصر الجديدة » نحو خمس وعشرين مدرسة أسسها رجال لهم عقائد من أتباع موسى أو المسيح . فهل فى مصر الجديدة مدرسة أسسها رجال من أتباع محمد ؟

وفى « شبرا » نحو خمس عشرة مدرسة أسسها رجال من ذلك الطراز . فهل استطاع أشياخنا أن يحتلوا فى « شبرا » غير مسجد واحد أنشأته إحدى السيدات المسلمات ؟

وفى أسيوط مدارس أقامها أمثال أولئك الرجال ، فهل بين علمائنا من يقول إنه قدم حجرًا واحدًا لبناء معهد أسيوط الدينى ؟

وفى الأزهر أكثر من سبعمائة مدرس ، فهل فيهم من يرضى أن يعيش باللقمة كما يعيش المكافحون من الفرير والجزوبت ولهم مدارس فى أكثر بقاع الأرض ؟

وفى مصر مدارس كثيرة تديرها الراهبات ، فهل بين علمائنا من خلق الروح الدينى فى زوجته فأنشأت مدرسة لتثقيف الفقيرات واليتيمات ؟

إن الأزهر يرسل وعاظًا لبعض الأقطار البعيدة من حين إلى حين ...

ولكن هل تعرفون مصاير أولئك المبعوثين ؟ (*)

إذا قامت حرب فى الحبشة أو فى الصين صرخوا واستغاثوا وكلفوا الدولة ردهم إلى أوطانهم فى أقرب وقت !

فهل سمعتم أن مبشرًا مسيحيا ترك مقر عمله بسبب الحرب ؟

ومع ذلك يقرأ علماؤنا مقالات رجل مثلى حرفًا حرفًا ليبحثوا عن لفظة نابية يثيرون حولها الأراجيف .

ومن يكون المؤمنون إذا حُرم رجلٌ مثلى نعمة الإيمان الصحيح ؟

آه ، ثم آه !!

(*) **حول نعيم الفردوس** • : لبعض القراء غرام بتعقب ما أكتب فى الدين من حين إلى حين ، لأنهم يتوهمون أن الذين فى مثل حالى من المشغولين بالدراسات الفلسفية يغلب عليهم التطرف والخروج على المألوف من قواعد الدين .

وأنا أرحب بالنقد ، وأراه علامة من علائم الحيوية العقلية فلا يضايقنى أن يكون فى القراء من يراقب ما أكتب فى الشئون الدينية عساه يجد مجالاً للتعقيب أو التصحيح .

ولكن الذى أنكره على بعض القراء أن يحرِّف الكلم عن مواضعه ليصح له أن يصورنى بصورة المسيء ، كالذى وقع من الفاضل الذى زعم أنى قلت :

« إشغلنى عنك ، يا رباه ، بما فى الجنة من أطايب النعيم » ليجوز له أن يقول : « فهل رؤى سوء أدب وسوء فهم للدين كالسوءين المتجسمين فى دعاء زكى مبارك هذا » ؟

وأنا لم أقل ما نسبه إلىّ هذا الرجل الفاضل ، وإنما قلت :

« إشغلنى عنك ، يا رباه ، بما فى الجنة من أطايب النعيم ، فإن بصرى أضعف من أين يواجه نورك الوهاج » .

وهذه العبارة هى غاية الغايات فى الإيمان بعظمة الله ذى العزة والجبروت ، ولكن ذلك الفاضل حذف الشطر الأخير ليجد الفرصة لإدّعاء الغيرة على الدين ، فهنيئا له ما ظفر به من التقول على رجل أعزه الله بالإسلام الصحيح ، وعصمه من الاتجار بالدين ألا يكفى أن نسكت عن الأوهام التى يذيعها بعض الناس من وقت إلى وقت بحجة أنهم المرجع الأول لنشر التعاليم الدينية ؟ وفى أى شرع يجوز تحريف الكلام عمدًا ليتمكن من فى قلوبهم مرض من تجريح الأصحاء ؟

إن الكلمة التى قلتها لها معان لا يدركها غير صفوة المؤمنين .

ولو طُلب منى توضيحها لقلتُ : إن العبادة الصحيحة هى رؤية الله فى نعمه المشكورة ، وليست فى دعوى النظر إليه ، وهى دعوى أعرض من الصحراء .

وأنا دعوت الله بما دعوت ، وأرجوه أن يتقبل ذلك الدعاء ، فإن بصرى على جدته أضعف من أن يواجه نوره الوهاج .

أحب أن أراك فى نِعمك ، يا رباه ! فى الحدود التى تساميت إليها فى كتاب « التصوف الإسلامى » ، وكن وحدك الرقيب على عبدك الحافظ لفضلك ونعمتك ، فليس له فى الوجود نصير سواك .

• فى بريد الرسالة بتاريخ ١٩٣٩/٨/٧ .

الجهاد فى سبيل الأدب ضائع ، والجهاد فى سبيل الدين ضائع فماذا أصنع وقد شقيت بوطنى وزمانى ؟

من زَغَب الظلم أخذت الخيوط لصياغة الورق .

ومن دم الظلم أخذت الحديد لسنان القلم .

ومن غضبات الظلم أخذت الكهرباء التى يطالعكم بها بيانى .

وعن جنون الظلم نقلت إليكم أقباس الجنون ، وهو على سنان قلمى أشد تماسكًا من العقل .

وبفضل الظلم رأيتمونى دائمًا من أنصار العدل .

* * *

الحمد للّه على نعمة الإسلام * :

امتاز الإسلام من بين سائر الديانات بمزية جميلة جدًّا ، هى رفع الوساطة بين اللّه والناس ، فلكل مسلم الحق فى أن ينظر إلى اللّه والوجود كيف شاء فى حدود المنطق والعقل ، ومن حقه أن يخاطب اللّه بلا وسيط من الأشياخ أو الأحبار أو الرهبان .

أقول هذا وقد قرأت فى « الرسالة » كلمة يقول كاتبها إن من حقى أن أتكلم فى الأدب لأنى دكتور فى الآداب ، وليس من حقى أن أتكلم فى الدين لأنى لست دكتورًا فى الدين .

وهذا الكلام يدل على أن قائله بعيد عن فهم الغرض من الرسالة الإسلامية . فالرسول عليه الصلاة والسلام بُعث لرفع الكلفة بين الناس وبين خالقهم ، بعد أن كانوا يتوهمون أن بينهم وبينه حجابًا لا يرفعه غير الأحبار والرهبان .

ولو أنى انتظرت الإذن من رجال الدين لكان من المحتوم أن تضيع الجهود التى بذلتها فى الدراسات الإسلامية ، وهى جهود سألقى بها اللّه وأنا مرفوع الرأس ، لأنه عزّ شأنه لا يُضيع أجر المحسنين .

والذين استكثروا أن أتكلم فى الدين فاتهم أنى صححت أشنع خطأ فى تاريخ التشريع الإسلامى حين بينت بالأدلة والبراهين أن كتاب « الأم » لم يؤلفه الشافعى ، وإنما ألفه البويطى المصرى ، وتصرف فيه الربيع بن سليمان .

---

* فى بريد مجلة الرسالة بتاريخ ١٤ / ٨ / ١٩٣٩ .

وهم كذلك ينسون أنى صاحب كتاب « التصوف الإسلامى » وهو كتاب سأُدْخل به الجنة وسأُدخِل معى على حسابه ألوفًا من الأدباء المحرومين ، كما أوحى اللّه إلى الزيات أن يقول ، وهو رجل صادق الإيمان ، ورجاؤه فى اللّه مقبول .

والحق أنى أعجب من الذين يصرّون على التشكيك فى عقيدتى . فلو كانت قلوب هؤلاء عرفتْ معانى النور لعرفوا أن فى مؤلفاتى نفحات هى أنفاس حِرار من وهَج الإيمان الصحيح .

وما يهمنى أن أزكى نفسى ، فاللّه يعلم ما بينه وبينى ، وإنما يهمنى أن يُقلع بعض الناس عن اغتيابى فى السر أو مهاجمتى فى العلانية فى أمور متصلة بالدين ، فإنى أخشى أن يغضب اللّه عليهم فلا يبوءوا بغير الخسران .

وإنى لخليقٌ بأن أرجو لهم المغفرة متمثلاً بالقول المنسوب إلى الرسول :

« اللهم اهد قومى ، فإنهم لا يعلمون » .

وإلى اللّه أرفع الرجاء فى أن يصيِّرنى من المعفوِّ عنهم ، وأن يجعلنى بفضله من عباده الصالحين ، وأن يمنحنى من العافية ما أملك به الصبر على خدمة الأدب والدين .

* * *

الإسلام دين النضال(*)

للدكتور زكي مبارك

خلوتُ إلى قلمى لأكتب فصلاً للرسالة أتحدث فيه عن بعض الخصائص الإسلامية ، ثم أخذت أستعرض تاريخ الإسلام فى القديم والحديث عسانى أجد مسألة واضحة الحدود يصل فيها القلم إلى شىء بعد جهاد ساعة أو ساعتين .

وما هى إلا دقائق حتى اهتديت إلى موضوع تضيق عنه الأعمار ، ولكنه مع ذلك واضح المعالم لا يكلّف القلم إلا بعض العناء ، ليصل الكاتب إلى طوائف من الصور تمنحه التشرف بالمشاركة فى إحياء ذكرى الهجرة النبوية .

اهتديت إلى القول بأن « الإسلام دين النضال » . فما معنى ذلك ؟

ارجعوا إلى تاريخ الرسول وتواريخ الخلفاء ، ومن تلا الخلفاء من الملوك والسلاطين فى الممالك الإسلامية ، لتعرفوا أن الإسلام فى جميع عصوره لم يكن إلا دين نضال .

وشريعة الكفاح وضع قواعدها نبىّ الإسلام : فهو أوّل رسول تجشم مكاره الجندية فى سبيل العقيدة ، وأول رسول تعرض للقتل مرات كثيرة فى سبيل المبدأ ، وأول رسول عاش عيش التأهب للقتال فى جميع الأحوال .

دخلت عليه ابنته وهو يعانى سكرات الموت فتوجعت لما هو فيه من الكرب فنظر إليها وقال : لا كرب على أبيك بعد اليوم : والناس يفهمون أن الكرب الذى تحدث عنه الرسول هو كرب الموت . أما أنا فقد فهمت أنه يشير إلى ما عانى فى حياته من أرزاء وخطوب ، وقد عاش دهره كله وهو فى بلاء بالناس والزمان ، فما انتقل من حرب إلا إلى حرب ، ولا خلص عن عناء إلا إلى عناء ، فحياته هى الشاهد على أن المجد لن يكون إلا من حظوظ المكافحين .

والعبرة الأصيلة من حياة هذا الرسول هى الصفة الجدية بين شمائله العالية . والصفة الجدية تظهر فى سيرته منذ عهده الأول ، فقد نشأ يتيما ، واليُتم يحمل النفس على الشعور بالغربة فى محيط الوجود ، والغريب يقهر على اصطناع الجد فى جميع الشؤون .

ومن هنا يظهر السر فى عنايته بتدليل سبطيه الحسن والحسين ، فقد كان يشعر أنه يقدم إليهما سرورًا فاته الظفر بمثله وهو يتيم .

(*) مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٠/٣/٤ .

ثم اتفق له فى صباه أن يشتغل بالتجارة لحساب زوجته خديجة ، فكان مسئولاً أمام قوة السوق التى لا يربح فيها غير أهل الجد والصدق من الذين يكتوون بنيران المعاملة مع أقطاب الكسب من السريان واليهود ، وكانوا فى ذلك العهد دهاقين الأخذ والعطاء

لم يحدثنا التاريخ عن تفاصيل الحياة التجارية التى عاناها الرسول ، ولكنا نعرف أن التاريخ لم يكن يسمح بالسكوت عن ذلك الرسول لو أنه استطاع أن يأخذ عليه هفوة من الهفوات التى تجرح الأمانة والصدق ، وهما فضيلتان لا يتحلى بهما التاجر إلا بعد جهاد شديد للشهوات والأهواء .

وبفضل الكفاح الذى عاناه الرسول فى ذلك العهد استطاع أن يدرس أخلاق العرب والسُّريان واليهود ، وهى أمم كانت تقتتل فى سبيل المنافع أبشع الاقتتال ، واستطاع كذلك أن يتصل من قرب أو من بعد بالأخلاق الحبشية والمصرية والهندية والفارسية والرومانية واليونانية ومن هذه التجارب تهيأت نفسه للاحساس بقيمة الجد والنضال .

فإن قيل إن أكثر الأنبياء عانوا رعاية الغنم فى طفولتهم ليتعودوا الصبر ، فإنا نقول بأن محمدًا عانى ما هو أشق من رعاية الغنم ، عانى رعاية التجار وهم قومٌ يأكلون الجمر ، وينتهمون السم ، ويدوسون على أشلاء الضمائر والنفوس .

ومن المؤكد أن الرسول عرف الثورة على انحطاط الأخلاق بفضل ما شهد من مكاره الحياة التجارية لذلك العهد .

ومن المؤكد أيضًا أن اشتغاله بالتجارة هيّأ الفرصة للمعرفة العميقة بالأحوال السياسية والاقتصادية فى ذلك الزمان .

ويغلب على الظن أنه لم يكن يخلو بنفسه من وقت إلى وقت إلا ليجد الفرصة للسلامة من مكايد الناس ، وقد عرفهم فى ظروف لا يسلم من شرها غير من يعتصمون بالعزلة من حين إلى حين .

وفى لحظة من لحظات الصفاء عرف محمد أن العناية الربانية أعدته لغرض أعظم من تثمير الأموال لزوجته الغالية ، وكيف يصارح قومه بذلك الغرض وهو فى ظاهره من الكفر المُوبق فى بلدٍ قد استراح إلى الأوهام والأباطيل ؟

لابدّ من نضال جديد ، وفى ميدان لا تكون حِراره من الصخور والجلاميد ، وإنما تكون حِراره وعِقابه من القلوب الغُلف والضمائر السوء .

لابدّ لليتيم الكهل من نضال جديد ، ولابدّ من توديع الاتجار بالعُروض والأموال للدخول فى تجارة جديدة لا يكون فيها الربح غير الهلاك بالقتل والاستشهاد ، إن لم يعصمه اللّه من الناس .

وبرز محمد لقومه برأى كان فى نظرهم أخْرَأ الآراء .

برز لهم وهو أعزل لا يملك من السلاح غير اليقين ، وهو أضعف أدوات القتال فى عصور الظلمات .

وما كان قوم محمد إلا قرومًا فحولاً طاولوا الدهر وصابروا الزمان ، وكان فيهم من يملك التصرف بأحلام الأمة العربية ، ومن يقدر على إيذاء سمعته بكلمة أو كلمتين . وما هى إلا أيام حتى شاع فى جميع القبائل أن محمدًا أُصيب بالخبال والجنون ، وفى أى أرض؟

فى أرض بدوية تسير فيها قالة السوء بأسرع من ومض البرق .

فما الذى يصنع اليتيم الكهل وقد أشيع أنه مخبولٌ مجنون ؟

رجع إلى عزيمته يستفتيها ، فحدثته بأن النضال هو أشرف ما يعتصم به كبار الرجال .

وكانت أيامٌ عرف فيها محمد أن حراسة الغنم أسهل من حراسة الأصدقاء . كانت أيام عرف فيها أنه يعاود حياة اليُتم من جديد .

فما الذى يصنع ؟

لابدّ من نضال ، لابدّ من نضال .

لقد انتهى عهده بالنضال الهين الخفيف يوم كان يسهر على زاده وتجارته ليأمن غوائل الأعراب بالليل ، انتهى عهده بالجزع على ضياع صرة فيها دراهم أو دنانير يدّخرها لسرور زوجته الغالية حين يرجع من أسفاره فى تثمير ما تملك من أصول المنافع الدنيوية ، وأقبل عهد جديد ، هو عهد السهر على الضمائر والقلوب ليحميها من غوائل الشرك ، وليقيها شر الفساد والانحلال .

ولكن الذى يعنيه أمر هدايتهم يرونه من أهل الفضول ، ويسمعونه أقبح عبارات السخرية والازدراء ، فماذا يصنع ؟

لابد من النضال ، ولابد من الترحيب فى سبيل العقيدة بالظمأ والجوع والقتل . وهنا تظهر عظمة محمد المؤيد بقوة خفية تهوّن عليه المصاعب والأرزاء .

هنا تظهر عظمة الرجل المؤمن بقيمته الذاتية ، والذى يرى أن خصومه ليسوا إلا هباء فى هباء ، وإن تحصنوا بآطام السياسة والمال ، وهما أقوى الحصون .

وما الذى يخاف عليه بعد ما لقى ؟

لابدَّ من نضال ، لابد من نضال .

والتفت اليتيم الكهل فرأى أنه وحيد مُضطهَد لا يؤمن قومه برسالته ، وإن كان لم يفقد عطف زوجته الغالية فى ذلك الظرف العصيب .

اللّه وحده هو الذخيرة الباقية للمضطهدين من أصحاب العقائد والمبادئ . اللّـه وحـده هو سناد المكروبين ، وغياث الملهوفين . اللّه وحده هو الذى يحمى أهل الصـدق والأمانـة من عدوان الكاذبين والخائنين . اللّه وحده هو الذى يقدر على مواساة المكروب المحـزون، وهو وحده الذى يبعث الشجاعة فى صدر اليائس من انتصار الحق .

واللّه وحده هو الذى أوحى إلى اليتيم المضطهد أن يستبسـل فـى سـبيل الحـق ، ليرى انتصار الحق على القوة بعد حين .

وتلفت محمد فلم ير لرسالته من ظهير أو معين غير القوة الخفية التى تحدّثه بأنه قد يصل إلى الفوز إن صبر على المكاره صبر أولى العزم من الرسل .

هو إذن نبىّ ، والنبوّة توجب التضحيـة بجميـع المنـافع ، وتفـرض الاسـتهانة بأكـاذيب المعترين على العِرض والشرف ، فلا بأس من أن يشيع كذبًا أنه رجـلٌ غـير شـريف ، وإن كان قومه عدُّوه من أقطاب الأمناء ، يوم كان لا يجهر بالاعتراض على مـا يرتطمـون فيـه من الزيغ والضلال .

لابدّ من نضال ، وهو فى هذه اللحظة يقع فى ميدان واحـد هـو الصـبر علـى عـدوان المكذّبين ، فإن انتصر محمد على هذا الكرب فلا كرب عليه بعد اليوم .

وصرخ محمد بصوت ارتعدت له الجبال : يا معشر قريش ، أنا رسول اللّه إليكم ! وما كاديفوه بهذه الجملة حتى ظهرت لعينه وقلبه ألوف وملايين مـن الأفـاعى والصـلال هـى وساوس المرتابين فى دعوته السامية .

ونظر فإذا هو طعام سائغ للسفهاء والأغبياء من أعـداء الحـق وأنصـار البهتـان وحدثتـه النفس بأن طلب السلامة أمر يوحيه للعقل .

ولكن القوة الخفية سارعت فحدثته بأن الرجل الحق هو الذى يستهين بأراجيف السفهاء .

الرجل الحق ؟ ومن الرجل الحق بجانب النبى الحق ؟

الروح الأمين يحدثه بأنه خاتم الأنبياء ، فما الذى يمنع من أن يتحمل فى سـبيل رسـالته أضعاف ما تحمل سائر الأنبياء ؟

ومضى محمد يناضل ويقاتل ويجاهد حتى نقل العرب من الشرك إلى الإيمان بعد أن دفع ثمن النصر من دمه الغالى ، الدم المسفك بالأكاذيب والأراجيف والأباطيل .

ولكن ، لا بأس ، فقد سنّ لأتباعه الأوفياء شريعه النضال .

زكى مبارك

* * *

الإسلام دين ومدنية(*)

للدكتور زكى مبارك

أعترف بأنى مُقبل على متاعب فى تحرير هذا البحث ، لأنى أكره أن يكون ضربًا من الحديث المُعاد ، وما تريد « الرسالة » فى مثل هذا العدد أن تعيد كلامًا فرغ منه الناس منذ أجيال .

وأعترف أيضًا بأنى لا أجهل الفرق بين حياة الباحثين لهذا العهد وحياة من سبقوهم فى سالف العهود ، فالمسلمون فيما سلف كانوا يقسمون الجمهور إلى قسمين : قسم العوام وقسم الخواصّ ؛ ولم يكن العامىّ هو الذى لا يقرأ ولا يكتب ، كما نقول اليوم ، وإنما كان العامىّ هو الذى لا يدرك من مرامى القرآن والحديث ما يستطيع به تعقّب أقوال الباحثين بالتعديل والتجريح ، ولهذا كان يتفق أن يسير فى العصرّ الواحد آراء تختلف وتقتتل بدون أن يشعر أصحابها بأنهم مهدّدون بسوء القالة بين الناس ، إلا أن يكون فى آرائهم ما يؤذى الخلفاء أو الملوك أو الوزراء ، وهؤلاء أيضًا كان لجبروتهم حدود ، لأنهم كانوا فى الأغلب من أكابر الرجال ، وعلى علم بالزائف والصحيح من الآراء .

أما اليوم ، فمن حق من يقرأ ويكتب أن يعدّ نفسه من الخواصّ ، وأن يتعقب الباحثين فى الشئون الدينية كيف شاء ، ولو لم يتفق له الاطلاع على كتابٍ واحد من كتب الفقه والحديث .

وأقول بعد هذا التمهيد : إنى سأفترض قلمى باحثًا يقف من الإسلام موقف الحياد ؛ فقد مضى الزمن الذى كان يقال فيه : « اللهمّ إيمانًا كإيمان العجائز » ؛ فذلك الإيمان لا ينفع فى هذا الجيل ولم يبق له مكان . وأنا أعتقد أن الرجل الذى يكفر بعد اجتهاد الأقوياء ، أقرب إلى الله من الرجل الذى يؤمن بعد استسلام الضعفاء . وهل تهون العقول على واهب العقول ؟

وإنما يقف قلمى من الإسلام موقف الحياد ، لأنى أريد أن يقوم هذا البحث على قواعد علمية لا خطابية ، فهو موجّه إلى قراء اللغة العربية ، وفيهم ألوف من غير المسلمين، ومراعاتهم واجبٌ مفروض ، ومن الحتم أن يخاطبوا بالعقل قبل الوجدان .

(*) مجلة الرسالة العدد ٩ فبراير ١٩٤٢ .

يضاف إلى هذا أن الإسلام كان فى جميع أطواره ثورة عقلية ، فمن أراد من أبنائه أن يجرده من تلك المزية ، فهو عدوٌّ يلبس ثوب الصديق .

ثم أواجه الموضوع فأقول :

لكل دين من الأديان خصوصيات وعموميات : فالخصوصيات هى اللطائف التى يتعارف عليها أبناء الدين الواحد بعضهم مع بعض ، ولا يرضيهم أن تذاع لضعفها عن مقاومة النقد العنيف ؛ أما العموميات ، فهى الأصول التى يجوز نشرها بين جميع الناس ، لقدرتها على مواجهة التحامل بشجاعة وكبرياء .

والظاهر أن « الخصوصيات » هى الطور الأول من أطوار التدين ، فقد كان التدين فى نشأته لونًا من الانحسار عن المجتمع ، وهو يوجب الانفراد والانزواء ، ومن هنا كان كلمة « الدين » مرادفة لكلمة « السرّ » عند الأقدمين . ومن هنا أيضًا كانت «العزلة» من ضروب التعبد ، لأنها من فنون الاستخفاء ... ألم تسمعوا أن الصوم عن الكلام كان من العبادات فى كثيرٍ من الديانات ، مع أن الكلام هو أساس التفاهم بين المتعاملين من الأحياء[1] ؟

والنفرة من الزواج عند قدماء المتدينين لها صلة وثيقة بهذا الغرض ، وقد أصابت الفطرةُ الشعبية فى مصر حين سمّت الزواج « دخول الدنيا » ، وإنما كان ذلك لأن الزواج فى العُرف القديم لم يكن يأتلف مع التأهب للفناء فى الدين .

ومن هذه النقطة يتشعب حديث اليوم .

فالنبى محمد قد اقترن بتسع نساء ، وقيلت فى تعليل هذه الظاهرة أقوال ، وأصح تلك الأقوال أنه أراد توكيد الصلات بينه وبين بعض القبائل والشعوب .

ولكن يظهر أن من الممكن أن نلتمس تعليلاً غير ذلك التعليل ، كأن نفترض أنه أراد أن يقضى قضاءً مبرمًا على الوهم الذى يقول بأن التدين لا يأتلف مع الزواج ، وما كان ذلك «وهمًا» من الأوهام ، وإنما كان «حقيقةٌ» من الحقائق فى صدور الأحبار والرهبان، وإليهم كان الأمر فى مصاير الناس من جهة الدين والأخلاق .

ولكن محمدًا كان يؤمن بأن من واجبه أن ينقل المفهومية الدينية من وضع إلى وضع ، ولا يتم ذلك بغير ثورة على الترهب ، ثورة ماحقة تضيف الرهبان إلى طوائف الخصيان ، وتصدهم عن الاستهزاء بالمؤمنين المتزوجين ، فكان له ما أراد .

---

[1] رأيت فى «الدير المحرق» راهبًا حبشيًا صام عن الكلام ثلاثين عامًا ، وأظنه لا يفطر قبل أن يموت!

ومحمد بشهادة خصومه كان من نماذج الفتوّة العربية ، والفتى العربى يرى الرجال قوّامين على النساء ، وإذًا ، يجب أن يتصل بالدنيا اتصال معاش ، ليكون رب البيت بحق وصدق ، ولتخضع له نساؤه خضوع العبد الطائع للسيد المطاع ، والرزق يذلّ أعناق الرجال ، فكيف يصنع بقلوب النساء ؟!

وماذا كانت صناعة محمد قبل أن يكون نبيًا ؟

كان تاجرًا ، والتجارة هى المختَبر الصادق لأخلاق الرجال ، وقد جاز الاختبار بنجاحٍ مرموق .

وماذا كانت صناعة محمد بعد أن صار نبيًّا ؟

أظنه قال : « جُعِل رزقى تحت ظل رمحى » .

ومعنى هذا أنه صار فارسًا يعيش مما تُغلّ الرماح والسيوف ، وذلك أكرم أنواع العيش، وما يليق بنبىّ أن يكون عالةً على الأتباع ، ولو كانوا من شرفاء الأغنياء .

وبإقبال محمد على الزواج صار نبيا مدنيًّا ، وصار مسئولاً عن الاتصال بالمجتمع صلةً معاشية ، بعد أن اتصل به صلةً روحية . ومن المؤكد أن صنيعه هذا قوبل فى عصره باندهاش ، واشتغراب ، لأنه كان «بدعة» فى عُرف رجال الدين ، ولأنه كان اعترافًا صريحًا بأن «الدنيا» مطلبٌ لا يعيب من يتجه إليه من الأنبياء .

والذى يراجع الأصول الأولى من الدين الإسلامى - وهى الأصول التى سبقت التفريع والتشقيق - يروعه أن يرى الإسلام يقتصد فى شرح معاملة الإنسان مع اللّه ، ويهوله أن يراه يطنب فى شرح المعاملات مع الناس .

فما معنى ذلك ؟

معناه أن الإسلام يمزج بين هذين المطلبين ، ومعناه أن حسن المعاملة مع الناس هو المظهر الصادق للخوف من الآثام والشبهات ، وبدون الصدق فى هذه المعاملة لا ينتفع المؤمن بصلاة ولا صيام ، واللّه يتسامح فى حقوقه ولكنه لا يتسامح فى حقوق الناس .

ومن أعجب العجب أن نرى القرآن يُنطق السابقين من الأنبياء بأقوال ينكرها بعض أتباع أولئك الأنبياء .

فما تأويل هذا المنطق ؟

التأويل سهل ، فالقرآن ينزه جميع الأنبياء عن أوهام الأتباع والأشياع ، وما تحدّث القرآن عن نبىّ إلا عرفنا أن الدعوات الصوادق لا تسلم من التصحيف والتحريف .

وبقليل من التأمل ندرك أن ذلك ليس من الغرائب ، فوضوح النصوص الدولية لهذا العهد فى المخابرات والمعاهدات لا يمنع من أن تصير من الألغاز عند اشتجار الأغراض ، فما ظنّكم بنصوص دينية جرت فى الأصل مجرى التلميح تجنبًا للعدوان والاضطهاد ؟

والمقام لا يتسع لغير فرضين اثنين : فرض يوجبه الأدب وهو القول بأن القرآن وحىٌ من عند الله ، وفرض يجيزه الجدل وهو الظن بأن القرآن من صنع محمد ، وللفرض الثانى فرعٌ سنشير إليه بعد لمحات .

فعلى الفرض الأول يكون القرآن هو الفَيْصَل فى تقرير مذاهب الأنبياء ، وعلى الفرض الثانى يكون محمدٌ أخضعُ الأنبياء فى أقوالهم وأفعالهم لمذاهبه الذاتية فى الوصل بين الدين والمدنية .

وأنا فى حيرة بين هذين الفرضين ، ولو كنت من خصوم الإسلام لاخترت الفرض الأول واسترحت ، فليس من الكثير أن يضاف محمد إلى الأنبياء ، ولكن الكثير حقًا أن يصل رجلٌ غير ملهَم إلى الوصل بين العلم والمدنية ، وهو غرضٌ كان يجب أن يتنبه إليه كبار الأنبياء . و «البلية» كل البلية أن الناس عجزوا عن تخيُّل نظام يكون أفضل من نظام الإسلام ، وهو النظام الذى يوجب أن يوزع المرء قواه بين ثمرات الأرض وأنوار السماء .

الإنسانية أجمع تحتقرُ الرجل المنزوى فى الكهوف ، والإنسانية أجمع تبغض الرجل الذى لا يعرف غير اقتناص الأموال ، والإنسانية أجمع قد اتفقت على أن الإنسان الكامل هو الرجل الذى يأخذ نصيبه من الدنيا مع الاحتفاظ بنصيب فى الدين .

ومحمد هو صاحب هذا الرأى ، وبه « ادّعى » على زعم أصحاب هذا الفرض أنه خاتم الأنبياء . ومن هذا الملحَظ ندرك كيف صار خاتم الأنبياء ، فمن العسير أن نتصور نظامًا أفضل من النظام الذى شرعه محمد عن طريق الوحى أو طريق الاجتهاد .

هنالك فرضٌ ثالث ، هو أن تكون الضمائر الإنسانية تجمّعتْ وابتدعت هذه الشخصية المحمدية ، لتكون الرمز الذى يصور مثلها الأعلى فى الوجود .

ويمنع من هذا الفرض مانعان حصينان ، أحدهما تاريخىّ وثانيهما فلسفىّ .

فمحمد حديث العهد فى التواريخ النبوية ، ولم يمض من الزمن ما يسمح بجعله شخصية معنوية ، كالذى قيل فى بعض الأنبياء ، أو بعض الحكماء . ألم يَشُك قومٌ فى وجود المسيح وسقوط ؟

أما الجانب الفلسفى فهو يضايق خصوم الإسلام ، لأنه يجعله سريرة وجودية ، وعندئذ يكون من الحتم أن يكون أعظم دين عرفه الوجود .

للباحث المنصف أن يدير هذا البحث كيف شاء ، فلن ينتهى إلا إلى ما انتهينا إليه ، وهو القول بأن شريعة محمد خير شريعة عرفها المجتمع الإنسانى ، فهى إذًا منحة ربانية تستوجب الحمد والثناء . وهل يصدر مثل هذا الفيض إلا عن صاحب العزة والجبروت ، وهو الذى منح « إنسان العين » على صغره قوة تخترق أجواز السماء ، بغض النظر عن فضله العظيم فى إضاءة العقول والقلوب ؟

ثم ماذا ؟

نترك إلى الباحثين المنصفين درس هذه المعضلة بنور المنطق والعقل والعدل ، وننتقل إلى شرح الاصطلاح المعروف بالتطبيق ، فكيف كان الإسلام بعد موت الرسول ؟

شرَّق الإسلام وغرَّب ، وجرَتْ بين أهله أحداثٌ وخطوب ، حتى جاز القول بأن فريقًا من المسلمين أخطأوا فهم الغرض من الدين الحنيف .

وفى حومة ذلك الخطأ نشهد ظاهرتين بارزتين بعنف وطغيان :

الظاهرة الأولى هى الاهتمام باللغة العربية اهتمامًا يتمثل فى المؤلفات التى تُعدّ بالألوف، ويتمثل فى قول بعض الفقهاء بأن الصلاة بغير اللغة العربية عملٌ مردود .

أما الظاهرة الثانية فهى الإقبال المنقطع النظير على درس الجوانب المدنية من التشريع الإسلامى ، ويمكن بسهولة أن نقول إن « القانون المدنى » لم يشهد فى جميع أدوار التاريخ شرّاحًا أعمق من الشرّاح المسلمين ، جزاهم اللّه خير الجزاء ، فهم الحجة الباقية على أصالة العبقرية المدنية فى الأمم الإسلامية .

وأرجع إلى الظاهرة الأولى بشيىء من التوضيح فأقول :

كان المسلمون يرون أنْ لا سلامة للعالم إلاّ بوجود «لغة دولية» يتفاهم بها أهل المشرق وأهل المغرب ، وهل قام فى الدنيا نزاع إلا بسبب انعدام التفاهم بين الناس ؟

وما زال المسلمون يساورون هذا الغرض حتى تحوّل إلى عقيدة دينية ، فصح عندهم أن «اللغة العربية أحسن اللغات» ، وأن الصلاة بغيرها لا تجوز ، وأنها ستكون لغة أهل الفردوس . والمسلمون يعتقدون اعتقادًا جازمًا بأن رحمة اللّه مقصورةٌ عليهم ، وأن طمع سواهم فى الجنة لا يزيد عن طمع إبليس ، وتلك غاية الغايات فى الإيمان بأن «الدين عند اللّه الإسلام » ذلك التصور اليوم قد يعدّ من ضروب الخيال ، ولكنه كان حقيقة عند المسلمين الأولين ، وبفضل تلك الحقيقة وصلوا إلى ما وصلوا إليه من التفوق الملحوظ على أكثر الممالك والشعوب .

والغريب فى هذه القضية أن المسلمين الذين آثروا لغتهم بذلك التقديس قد تحرروا فى فهم أغراضها تحررًا لا يعرفه أبناء اليوم ، فقد كانوا يستبيحون إنشاء أشعار المجون فى

المساجد وفى أعقاب الصلوات ، وكانوا يرون خصومهم فى هذه الحرية الأدبية قد «تنسكوا تنسكًا أعجميًا» ، ولذلك شواهد يضيق عنها هذا المجال .

قد تقول : وما الموجب لهذا التناقض الغريب ؟

وأجيب بأنهم أرادوا أن يجعلوا اللغة العربية لغة مدنية لا لغةً دينية ، واللغات المدنية تحدث عن جميع الشؤون ، ولا تسكت عن شرح العواطف والأحاسيس والأوهام والأضاليل . ألم تروا كيف اتسعت مساجد المسلمين لشرح أشعار النصارى واليهود والصابئين ؟

ويتفرع عن هذا ما جاء فى التواريخ الإسلامية من أعمال الرجال ، فالإسلام كُتلةٌ واحدة ، فكما تقول فى جد عمر بن الخطاب : حدثنا فلان عن فلان ، تقول فى هزل عمر بن أبى ربيعة : حدثنا فلان عن فلان . وهل ثبت فى أىّ ملة أن رجال الدين تحرروا من التقاليد فقالوا فى الجمال الذى يطوف بالأماكن المقدسة معشار ما قال الشريف الرضى فى قصائده الحجازيات ، وكان أمير الحج بتفويض من خليفة المسلمين ؟

يجب الاعتراف بأن الإسلام أعطى أبناءه حريات لم تعرفها سائر الديانات ، لأنه لم يكن دينًا فحسْب ، وإنما كان دينًا ومدنية .

ويجب الاعتراف بأن التطاول على هذا الدين لا يقع إلا من الأوشاب والمأجورين ، فما كان إلا نعمة نورانية جاد بها الله على هذا الوجود .

وماذا أقول فى شرح الظاهرة الثانية ، وهى الاهتمام بما فى التشريع الإسلامى من الجوانب المدنية ؟

تنقسم كتب الفقه إلى قسمين : قسم العبادات وقسم المعاملات .

ويلاحظ من يقرأ كتب الفقه أن المؤلفين يترفقون فى شرح القسم الأول ، ثم ينطلقون كالسهام عند شرح القسم الثانى ، وتظهر براعتهم فى تشريح دقائق المعاملات .

وهنا نكتة تستحق التسجيل . فرجل الدين فى الفرنسية يوصف بأنه **Religieux** ، ومعنى هذا الوصف أنه لا يصلح لفهم أمور المعاش بسبب انقطاعه عن صحبة الناس .

فكيف أمكن لرجال الدين من المسلمين أن يكونوا أئمة فى شرح القوانين المدنية ؟

يرجع ذلك إلى روح الدين الإسلامى ، وهو دين يدعو جميع أبنائه إلى الاندماج فى المجتمع ، ويقهرهم قهرًا على الأخذ من منافع الدنيا بنصيب ، ليعرفوا الدقائق من شؤون الناس وهم قضاة الناس . وهل يصلُح القاضى للفصل فى نزاع لا يحس له شبيهًا فى حياته المعاشية ؟

كان يقال إن أحق الناس بالإمامة فى الصلاة وفى القضاء هو المتزوج ، ويرجح زوج المرأة الجميلة ، لأنه أقرب إلى التعفف ، بفضل ما يملك من الجمال الحلال .

وأقول إنما قُدِّم زوج المرأة الجميلة لأنه يعانى من المتاعب أضعاف ما يعانى سواه . فهو أعرف بشؤون المجتمع ، وأقدر على فهم شؤون المعاش .

وأقول أيضًا إن تنقل الفقيه من أرض إلى أرض كان يزيد فى قيمته التشريعية . فالشافعى له مذهب جديد ومذهب قديم بسبب تنقله بين مصر والعراق .

وأقول كذلك إن الرحلة كانت شرطًا فى التفوق العلمى عند الأسلاف لفضلها الظاهر فى الاطلاع على دقائق العادات والتقاليد .

والقول الفصل أن رجل الدين عند المسلمين لم يكن من رجال القوانين المدنية إلا لأنه كان يساير المجتمع ويراوحه ويغاديه بلا انحسار ولا انقباض .

وهل أستطيع القول بأن فى الدين الإسلامى أقطابًا كانوا من كبار الأغنياء ، ومن المتصرفين فى المتّجرات والمزروعات ؟

إن الصوفية أنفسهم وهم الغاية فى الزهد لم يملكوا الفرار من المجتمع ؛ فقد كانوا مسئولين أدبيًّا عن تدبير المعاش للمريدين . أليس من العجب أن نقرر أن أصدق ما كُتب فى آداب التجارة والزراعة والصناعة هو ما صدر عن أقلام الصوفية ؟

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم أمضى إلى آخر الشوط فأقول :

أحب المسلمون دنياهم فأقبلوا عليها بَنهم وشراهة ، فماذا جَنَوا من ذلك الحب ؟

كان امتحانًا قاسيًا عنيفًا إلى أبعد حدود القسوة والعنف . فقد عرفوا به أنْ لا بقاء للحياة بدون أخلاق ، فكيف كان نصيبهم من شرح دقائق الأخلاق ؟

لا أزعم أنى قرأت جميع ما كُتب عن الأخلاق فى جميع الديانات ، وإنما أقرر أنى اطلعت على مجلدات كثيرة فى الأخلاق المنسوبة إلى رجال الدين من غير المسلمين ، فما وجدت لها حرارة تشبه النار الموقدة فى الكتب الإسلامية ، فما سبب ذلك ؟

المصلح المسلم تكتوى يده بنار المجتمع فى كل يوم ، فهو يسكب دم قلبه على القرطاس ، وهو يتحدث عن واقع لا عن خيال ، فهو يقول رأيت وغيره يقول سمعت ، وما أبعد الفرق بين الرؤية والسماع !

الأخلاق فى الكتب الإسلامية منقولة عن تجارب شخصية لا روايات خيالية ، وما خطّ مسلمٌ حرفًا فى الأخلاق إلا وهو يتمثل مشاهد حية من بغى الناس بعضهم على بعض بلا رحمة ولا إشفاق .

معاملة المسلم مع الله تنحصر فى هذه الكلمة الوجيزة .

« أُعبدِ الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

أما معاملة المسلم مع الناس فلها ألوف وألوف من الدقائق والتفاصيل .

فهل كان ذلك إلا لأن الإسلام أول دين عُنِىَ عنايةً صريحة بالشؤون المدنية ؟

قد يقال : وكيف جاز أن يُسفّ المسلمون بعد التحليق ؟ .

وأجيب بأن المسلمين لم يُسفّوا إلا بعد أن فُتِنوا وزُلزلوا وتوهموا أن المدينة ليست من شؤون الدين .

أليس مما يعيب الرجل المسلم فى هذا العصر أن تكون له مطامح سياسية واقتصادية ؟

إخلعوا النّير عن أعناقكم يا مسلمى هذا الزمان ، ويا عرب الزمان ؟

لقد فَضَحنا « أشراف » مصر حين طالبوا بحقهم فى التحرر من الجندية .

وفضحَنا « عربان » مصر حين طالبوا بامتيازهم فى التخلص من الجندية .

فماذا يريد أولئك وهؤلاء ؟

محمد هو أول نبىّ وآخر نبىّ حمل السيف .

ومحمد هو أول نبى وآخر نبى عرف قيمة الإرادة الذاتية فقضى بأن واجب المرء أن يخاطب ربه بلا وسيط .

ومحمد أول نبى وآخر نبى كَرِه لأتباعه القرار والاطمئنان .

« البحر وراءكم ، والعدو أمامكم » فأيان تذهبون ؟

غيروا ما بأنفسكم ، يا مسلمى هذا الجيل ، ويا عرب هذا الجيل واحترسوا ثم احترسوا من أن يكون لمخلوق فوقكم سلطان أنتم الأعلوْن ، وإن كنتم مضطهدين ، ولن تمر أعوام قبل أن تأخذوا مكانكم فوق هامة الوجود الصحيح .

ولله العزة ولرسولة وللمؤمنين .

* * *

الإسلام بين العقل والروح(*)

للدكتور زكى مبارك

قلت مرة : إن النضال بين الإسلام والنصرانية أتاح فرصًا كثيرة لمبادرة نفيسة تغذّى القلوب والعقول ، وتكشف عن آفاق ما كان يُنتظر أن تُكشف عن آفاق ما كان ينتظر أن تكشف .

لو أراد اللّه أن لا يقع ذلك النضال .

والمجادلة لا تُذمّ إلا إن صدرت عن سوء نية ، لأنها عندئذ تكون عملاً من أسوأ الأعمال ، أما إن صدرت عن رغبة فى الفهم والتحقيق ، فهى عمل مقبول دعا إليه جميع الحكماء فى جميع البلاد .

وأنا ماضٍ فى تبديد شبهة وجّهت إلى الإسلام ألوف المرات ، وسأقضى على تلك الشبهة قضاءً مبرمًا . سأقتلع جذورها فلا تنبت بعد اليوم ، وسأقوّض جدرانها فلا يقوم لها بناء إلى آخر الزمان .

فما هى تلك الشبهة ، ولا أقول التهمة ، ترفعًا بالمجادلين ؟

هى قولهم إن الإسلام شريعة مدنية ، وليس عقيدة دينية ، فهو فى نظرهم مجموعة قوانين ، وليس دينًا يهتم بتأصيل المعانى الروحية فى صدور المؤمنين .

وزادوا فقالوا : إن الإسلام لم تشع فيه الروح إلا حين عرف التصوف ، والتصوف فى رأيهم نزعة مسيحية العرق ، وليس لها فى الإسلام أصول .

وأسارع فأقرر أنه لا يضير الإسلام أن يكون مجموعة قوانين ، فسنرى بعد لحظات معنى هذا من الوجهة الروحية ، وهى مثار الاعتراض .

وأقرر أيضًا أن المعانى الإسلامية المقبوسة من المسيحية ليست سرقات ، حتى يعيرنا بها فريق من الناس ، وإنما هى ميراث أخذناه باستحقاق ، لأن الإسلام بنص القرآن هو الوارث لجميع الشرائع السماوية ، والمؤلفون المسلمون ينقلون أقوال سيدنا موسى وسيدنا عيسى باحترام ، تقربًا إلى اللّه ، لأن اللّه أوصى سيدنا محمدًا بإعزاز جميع الأنبياء والمرسلين .

وإذا كان التصوف الإسلامى منقولاً عن أصول مسيحية ـ ولنسلمّ جدَلاً بهذا ـ فما كان التصوف مما اتفق عليه جميع أئمة المسلمين ، فقد ثار عليه رجال من أقطاب الباحثين، وعدُّوه خروجًا بالإسلام عن صبغته الأساسية ، وهى الصبغة التشريعية .

(*) مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٤/١/١٧ .

ومعنى هذا أن الهدية مردودة إلى مهديها الأول ، على فرض أن التصوف هدية ، وعلى فرض أنه بعيد من الروح الإسلامى .

إسمعوا يا أيها المجادلون بلا بصيرة وبلا يقين .

أنتم اعترفتم بأن الإسلام يعرف العقل ولا يعرف الروح ، بدليل أنه فى نظركم ليس إلا مجموعة قوانين .

وهنا الخطر كل الخطر ، الخطر عليكم لا عليه ، فالخطأ فى الحكم المدنى أو الجنائى لا يحتمل الجدال ، لأن نقضه أسهل من السهل ، بسبب ارتكازه على العقل ، فلو كانت القوانين التى أذاعها الإسلام واهية الأساس ، لثار عليه المشرّعون فى جميع بقاع الأرض ، وعدّوة أسطورة بدوية منقولة عن سراب الصحراء .

ولا كذلك الخطأ فى الحكم الروحى لأن الحكم الروحى غير محدود بحدود ، فمن حق كل روحانى أن يسفّه من يخرجون عليه ، بحجة أنهم محجوبون عن الروح ، وذلك باب يدخل منه الدخلاء والأصلاء على السواء .

وإذن يكون الإسلام تحدَّى جميع الديانات ، تحداها بالعقل قبل الروح ، تحداها بما لا يجوز فيه الخطأ ، وهو التشريع ، تحداها بالنبى الأمىّ ، ليعرف من لا يعرف أن وحى السماء فوق إيحاء الكتاب .

ماذا أقول ؟ هل جدت الشبهة ؟ وكيف والكلام إلى هنا يؤيد القول بأن الإسلام دين العقل ، وليس دين الوجدان ؟

أفترع الحديث فأقول :

إن التهمة صحيحة ، تهمة الإسلام بأنه لا يقصر اهتمامه على الشؤون الروحية ، وإنما يوزع اهتمامه على كثير من الشؤون العلمية والاجتماعية والمعاشية ، وهنا المطعن الذى لا ينفع فيه علاج (؟!) .

اسمعوا ، ثم اسمعوا ، يا أيها المجادلون .

كل ما يعرف المسلمون من العلوم والفنون والآداب والقوانين ليس إلا وسائل لغاية صريحة هى خدمة القرآن ، والقرآن وحى من اللّه ، وبخدمة القرآن نتقرب إلى اللّه .

علوم النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع علوم تساعد على فهم القرآن ، فهى وسائل أدبية لغاية دينية ، فنحن نتقرب بها إلى اللّه .

وعلم الفقه ينظم المعاملات بين الناس ، ليعرفوا سبيل النجاة من غضب اللّه ، فنحن بعلم الفقه نتقرب إلى اللّه .

وعلم الحساب يساعد على تحديد الأغراض الاقتصادية بين الناس ، فنحن بعلم الحساب نتقرب إلى اللّه .

وعلم الفلك يساعد على تحديد المواقيت ، فنحن بإدراك دقائقه نتقرب إلى اللّه .

وعلم التاريخ يخلق العظة بالحوادث ، وقد رآه القرآن من وسائل الترغيب والترهيب ، فنحن بعلم التاريخ نتقرب إلى اللّه .

لا موجب للاطناب ، ففى أول كل كتاب نجد الراجز يقول :

إن مبادى كل فن عَشرَهْ   الحد والموضوع ثم الثمرهْ

إلى آخر ما قال ، ولا موجب للنص على أن علماء المسلمين لم يدركوا للعلم غاية غير خدمة الشريعة الإسلامية ، فذلك واضح فى جميع مؤلفاتهم ، حتى علم الحساب . وقد راعى هذا المعنى أستاذنا محمد بك إدريس فنص عليه فى مقدمة كتاب الحساب لطلبة الأزهر الشريف

جميع العلوم والفنون وسائل لخدمة الدين الإسلامى ، والتكسب أو التسبب له فى الإسلام آداب ، مع أن الظاهر يوهم أنه بعيد من الروح .

كل خطوة تخطوها فى صباحك أو مسائك ، لها فى حياتك المعاشية صلات بحياتك الدينية ... بهذا يوصيك الإسلام ، لأنه دين العقل والروح .

إن الحج وهو فريضة دينية ، أبيحت فيه المنافع المعاشية ، لأن اللّه يرى أن جميع الفضائل وسائل إلى رفاهية المعاش .

وهل ننسى أننا نطيع اللّه لننعم بالفردوس ؟

المزية الصحيحة للإسلام هى دعوته إلى أن نسيطر على جميع بقاع الأرض ، لنحقق الصلة بيننا وبين اللّه بإقامة دعائم العدل فوق جميع البقاع ، ولنحقق إرادته السامية فى أن تكون الكلمة العليا للّه وللمؤمنين .

مزية المسلمين أنهم لا يقابلون اللّه وجهًا لوجه ، كما يتوهم المسيحيون ، وإنما يقابلونه فى مخلوقاته من الأنهار والبحار ، والجنّة والناس ، والحقائق والأباطيل .

وأين اللّه ؟ هل رآه من يدعون أنهم أبناؤه ، صادقين أو كاذبين ؟

المسلم هو الصورة الحقيقية للمؤمن .

المسلم هو خليفة آدم ، وقد جعل اللّه آدم خليفة على الأرض ، وللأرض آداب لا تعرفها السماء ، لأن فيها تكاليف لم يسمع بها سكان السماء .

المسيحى يخاطب اللّه فى ذاته فيستريح ، والمسلم يخاطب اللّه فى مخلوقاته فيتعب ، والتعب شارة الرجال .

وأنا مسلم ، لأن الإسلام يوجب على أبنائه أن يذكروا اللّه فى جميع الشؤون .

أنا مسلم بالرغم منى ، لأنى لا أرى دينًا يفوق ما فى الإسلام من تكاليف ، والتكاليف هى الأساس لتجربة أخلاق الرجال .

أنا مسلم بالعقل وبالروح ، والدين عند اللّه هو الإسلام ، لأنه الصورة النهائية للحسن والصدق فى التشريع .

حاولت أن أرتاب فى الإسلام فلم أستطع ، حاولت بالعقل وبالروح فى حدود ما أطيق ، وأين أنا مما أطيق ؟

الآن آمنت بأن الإسلام دين العقل والوجدان .

* * *

البلبل الذبيح(*)

للمغفور له الدكتور زكى مبارك

بعث إلى المجلة بهذه الكلمة المرحوم الدكتور زكى مبارك قبيل وفاته بأيام يرثى المرحوم الأستاذ على محمود طه ، وقد أخرناها انتظارا لأى مناسبة تدعو إلى نشرها والمناسبة اليوم هى حفلة تأبينه التى أقامتها نقابة الصحفيين فى هذا الأسبوع وقد وصفناها فى غير هذا المكان .

* * *

أخى الأستاذ الزيات :

أرجو أن تكون بخير وعافية ، وأن تجد فى المنصورة الغناء ظلالاً أجده فى مصر الجديدة . وأرجو أن تكون تناسيت حزنك على البلبل الذبيح وهو الشاعر على محمد طه.

آخر العهد به يوم كان وكيلا لدار الكتب المصرية وكنت زميله هناك ، وكنت أفرح بلقائه فرح الحبيب بلقاء المحبوب .

أظلمت الدار من بعده ، فنقلنى معالى الدكتور طه حسين إلى منصبى الأول وهو تفتيش المدارس الأجنبية فاسترحت من رؤية مكتب على محمود طه خاليًا ، فقد ذوى الورد الذى كان يضعه فى مكتبه كل صباح .

ومع أن الأعمار بيد اللّه فأنا أذكر أن الشاعر مات بالمرض الذى مات به أبى وهو ضغط الدم ، فقد كان أبى لحميا لا يسيغ الطعام بدون لحم ، وكذلك كان الشاعر على محمود طه فقد كان لحميا بصورة تفوق الوصف .

دخلت دار الكتب فوجدت قنديل بك يبكى ، وسألت عن السبب فعرفت أن شقيق الفقيد حضر ليخبر مدير الدار أن الشاعر مات ، فبكيت أنا أيضًا حتى شرقت بدموعى .

أعطانا المدير إجازة لنشهد جنازته، ولكن أخاه نقله بسيارة إلى المنصورة وطنه الأول.

بين الكفر والإيمان

من حق الشاعر أن يكفر باللّه ، وإن كان من واجبه أن يؤمن باللّه ، ولا أدرى كيف كنت حين نظمت القصيدة الآتية وأنا أخاطب البلبل الذبيح :

يا ماضيًا لبلاد ليس يشهدها   من يرثيها وجفن العين وسنان

(*) مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٥٢/٤/٢١ .

جميـع مـن يرثيهـا كلهـم نفـر   حجـوا إليهـا وهـم بـالموت عميـان

إن الحيـاة وهـذا المـوت يطلبهـا   فـى شرعة الصدق تزويـر وبهتـان

قـالوا سنلقى غـدا مـا سوف يفرحنـا   فى جنة عندهـا البواب « رضـوان »

فيهـا الفواكـه مـن تيـن ومـن عنـب   وفـى جوانبهـا حـور وولـدان

هـذا جميـل ، ولكنـى بـلا أمـل   ففـى حيـاتى ضـلالات وكفـران

إن الـذى أسـكت الغريـد أسـكته   وفـى مشيئته جـور وطغيـان

إنـى إلى النـار مـاض خـالد أبـدًا   ففـى مسـالكها للشـعر ميـدان

قـالوا سينصب فـى يـوم الحساب لنـا   عنـد المهيمـن قسـطاس وميـزان

المـوت نـوم فـلا صـوت ولا خـبر   خلـوا فـؤادى فـإن النـوم سـلطان

هـذا « علـى » مضـى لم يبكـه أحـد   ولا أفـاض عليـه الحـزن فنـان

أوحى إلى الشعر ما أوحى ومن عجب   أن يصـدر الشعـر وحيًا وهو شيطان

أما بعد فهذه قصيدتى فى رثاء البلبل الذبيح الذى لم يرثه أحد من الشعراء ، وكان يجب أن يرثيه زميله أحمد رامى .

كان البلبل يمر بالقهوة مرور الطيف ليتحدث معى ، وكان يأنس بلقائى ، وكنت أتحداه أن يساجلنى فلا يستطيع ، لأنه لا يقوى على الارتجال ، فقد كان يتأنق فى شعره كما يتأنق فى هندامة ، والشعر فى ذاته تأنق .

فى سهرة بمنزل توحيد بك السلحدار ومعنا الأستاذ الزيات أخذ البلبل ينشد أشعاره ، وكان قوى الذاكرة ، فقلت : أنا أخذت راية الشعر من أيديكم ، فيقول : لن تستطيع يا دكتور ، أخرجت من جيبى ورقة وقرأت الأبيات الآتية :

عجـب النـاس مـن بقـاء أديـب   رغـم بغـى الخطـوب والأيـام

أنا أيضًا عجبت مـن طـول عيشى   فـى زمـان مجتـح بـالظلام

إن يومًـا يمـر مـن غـير غـم   هـو طيف يمـر فـى الأحـلام

لا صديـق يـرد دينـى عليـه   لا حبيـب بقـى بعهـد الغـرام

قـد سـئمت الحيـاة أو سـئمتنى   فرمتنـى بكيدهـا الهـدام

قـال لى صـاحبى : تواضـع قليـلا   تجـد الـرزق صافيًـا كـالمدام

قلـت : رزق من الريـاء يوافـى   هو عنـدى من الطعـام الحـرام

قال البلبل : هذا شعر نفيس .

وزارنى الأستاذ مرة ثانية فى القهوة فرآنى مكروبًا فسأل عن حالى فأنشدته قول زكى مبارك .

يا سائـــلا مـــا الحـــال الحـــال أنـــت الحـــال

وسألنى عن أسباب كربى فقلت : كان لى موعد غرام فى مشرب تريومف بمصر الجديدة وهو يطل على الصحراء فانتظرنى المحبوب دقائق وانصرف فصرخت بهذه الأبيات :

دقائق أضجرتك فطرت عنى وغادرت المكان بلا انتظار
فما حالى وقد مرت شهور شربن الصبر من طول اصطبارى
جلست أسامر الصحراء وحدى وأشرب لوعة مزجت بنار

قال البلبل : وهذا أيضًا شعر نفيس .

كان الشاعر على محمود طه يكره الشاعر محمد الهراوى ، وكانت بينهما مهاجاة تذكر بالمهاجاة بين عبد اللطيف النشار وعتمان حلمى ، وهما شاعرا الإسكندرية ، وكان البلبل مغرمًا بمكايدة الهراوى ، فأمضى معه إلى القهوة فيقول الهراوى : اشعارك يا سيد على من فتات موائد الشعراء الأجانب !

فيقول البلبل : وأنت يا سيد محمد لا تدخل السينما ولا تشرب الخمر ، فكيف تكون شاعرًا ؟

فيقول الهراوى أنا قلت :

هـم أحلوا دم الأنام شرابًا كيف لا نستحل ماء الكروم

فيقول البلبل : هذا بيت جميل .

ديوان الهراوى

الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف بك يشهد بأن لجنة التأليف والترجمة والنشر قامت على قدميها بما جنت من أرباح « سمير الأطفال » وكان مقررًا على جميع المدارس الأولية، ومع ذلك بخلت اللجنة بطبع ديوان الهراوى .

ودعوت أخاه الدكتور حسين الهراوى لطبع الديوان فوجد النفقات غالية .

فهل يمكن إنقاذ هذا الديوان قبل أن يضيع ضيعة أبدية ؟

الشبيبى فى مصر :

فى العدد المقبل سأنشر فى الرسالة قصيدة حييت بها معالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى زميل الأستاذ الزيات فى المجمع اللغوى ، وقد نظمتها فى الإسكندرية والبحر يضرب أمواجًا بأمواج :

محطة الرمل جننتنى وصيرتنى بلا صواب
بها ظباء بغير عد ولا بيان ولا حساب
عشرون ألفًا وألف ألف أطلت فى حبهم عذابى

فى تأبين الدكتور زكى مبارك .

المجد الطموح الجرىء

للأستاذة زينب الحكيم

عرفت الدكتور زكى مبارك بالسماع به والقراءة له فى بادئ الأمر ، فقد كان له جيل من القراء والمعجبين ، كما كان له حلقة من المنافسين المحنقين .

فلما رأيته .. وجدته رجلا متقشفا أشد ما يكون التقشف ، فوقعت فى حيرة شديدة، لأنى عرفته غير هذا فى كتابه « النثر الفنى » الذى كنت سأشترك فى تقريظه بعد أيام قلائل ، وحدث أن اجتمعنا فى الندوة ، وتجلت شخصية زكى مبارك ، وفاض علمه واطلاعه فى الردود المفحمة التى واجه بها كل ما دار حول كتابه وكسب المعركة . ولا غرابة فى ذلك فهو ابن الأزهر المجتهد المستوعب ، وابن الجامعات المصرية والفرنسية ، وابن جامعة الحياة العملية والصحافة . رجل نابه من الريف ينزح إلى القاهرة للتعلم ، لم يتملق عظيما ولم يستجد ثريا لينجح فى دراساته أو لينال رزقه ... إنما هو رجل نجح نجاحا عزيزا مشرفا ؛ فإذا لم يكن فى حياة الدكاترة زكى مبارك إلا هذا ، وإلا أنه شق طريقه بالنحت بإبرة فى صخور الحياة الصلدة لكفاه فخرا وخلودا ، فكيف بنا وزكى مبارك له فلسفة ، ولقلمه مدرسة ، ولنفسه طموح وجموح وثورة ؟! أودع كثيرا من هذا كله مؤلفاته العديدة ، ومقالاته العتيدة .

* * *

زكى مبارك[*]

الأديب الذى أحب العراق

للأستاذ نجدة فتحى صفوة

سيسأل قوم من زكى مبارك ... وجسمى مدفون بصحراء صماء

فإن سألوا عنى ففى مصر مرقدى ... وفوق ثرى بغداد تمرح أهوائى

لم تكن خسارة الأدب العربى فى وفاة الدكتور زكى مبارك - رحمه الله - هينة ، ولا بالتى يمكن أن تعوض .

وقد قال الأستاذ الزيات فى رثائه الرائع للمرحوم المازنى « .. فإذا أضيف إلى ذلك أن المازنى كان أحد الكتاب العشرة الذين يكتبون لغتهم عن علم ، ويفهمون أدبها عن فقه ، ويعالجون بيانها عن طبع ؛ وأن هؤلاء العشرة البررة متى خلت أمكنتهم فى الأجل القريب أو البعيد ، فلن يخلفهم فى هذا الزمن الثائر الحائر العجلان ، من يحمل عنهم أمانة البيان ، ويبلغ بعدهم رسالة الأدب ، أدركنا فداحة الخطب الذى نزل بالأمة العربية يوم توفى هذا الكاتب العظيم »[1] .

وهذا كاتب آخر من أولئك « العشرة البررة » فقدته اللغة العربية يوم فقدت المجاور الأزهرى ، والناقد الألمعى ، والباحث المتعمق ، والشاعر المتغزل ، ربيب سنتريس ، وحبيب باريس ، وطبيب ليلى المريضة فى العراق » (الدكاترة) زكى مبارك !

ولا ريب أن أدب زكى مبارك سينال ما يستحقه من دراسة الباحثين وعناية المؤرخين، ويحتل مكانه اللائق به بين أدباء جيله ، واترك لأصدقاء زكى مبارك أن يرثوا الصديق الوفى ، ولتلاميذه وعشاق أدبه أن يدرسوا الكاتب البليغ ، ولزملائه ومعاصريه أن يترجموا للفلاح الذى دفعه جده وطموحه من القرية إلى الأزهر ، ومن الأزهر إلى الجامعة ، ومن القاهرة إلى باريس ، ومن الخمول إلى الصف الأول بين أدباء هذا الجيل ..

وإنما هذه تحية من عراقى إلى الأديب المصرى الذى أحب العراق ، فأحبه العراقيون ، ومنح هذا البلد قطعة من قلبه ، وجانبا من أدبه ، فبادله أهله المحبة والإعجاب ، وقابلوه بالرعاية والإكرام ..

تحية وفاء إلى تلك الروح اللطيفة المرفرفة فوق بغداد ..

---

[*] مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٥٢/٥/٥ .

[1] الرسالة . العدد ٨٤٢ الصادر فى ١٢ سبتمبر ١٩٤٦ .

ترجع صلة الدكتور زكى مبارك بالعراق إلى عهود دراسته الأولى يوم عنى بالأدب العباسى وشغل نفسه أعواما طويلة بأدباء العراق ، فبعثت هذه الدراسة فى نفسه محبة العراق ، واسترعى تاريخه الحافل تفكيره وألهب خياله . وقد خاطب العراقيين ذات مرة فى بعض محاضراته العامة قائلا : « وأنا فى الواقع تلميذ بغداد قبل أن أكون تلميذ القاهرة أو باريس ، فإن رأيتم صراحتى فلا تلومونى ، فاللوم على أسلافكم الذين شرعوا مذاهب العقل والمنطق » .

حتى إذا دعى - رحمة اللّه - إلى التعليم فى دار المعلمين العالية ببغداد سنة ١٩٣٧ رحب بذلك قائلا : إن من العقل أن أعرف جوانب من الشرق بعد أن عرفت جوانب من الغرب وصح عندى أن الهجرة إلى العراق قد تشرح دقائق الأدب فى العصر العباسى وليس من المقبول أن يصح لمثلى أن يصف باريس عن علم ، ويصف بغداد عن جهل» .

وشد رحاله إلى بغداد ، فكان لمصر فيها سفيرا أدبيا ممتازا ، وأحدثت زيارته فيها حركة أدبية ونشاطا فكريا بما كان يبثه علمه - على عادته أيان كان - فى صحافة العراق ومجتمعاته وأنديته من حيوية وحركة . « وما هى إلا أشهر قلائل » كما يقول « حتى كنت على صلات بمختلف الطبقات فى بغداد ، وحتى صححت لنفسى أخطاء كثيرة فى فهم الأدب والتاريخ »

قضى زكى مبارك فى العراق تسعة أشهر حافلة بالعمل زاخرة بالإنتاج ، ولم يقف نشاطه فى حدود عمله الرسمى ، أو دروسه فى دار المعلمين العالية ، وإنما تجاوزه إلى تأليف ستة مجلدات عن العراق[1] وكتابة مئات المقالات ، وإلقاء عشرات المحاضرات . وقد عنى - رحمه اللّه - بشؤون العراق الفكرية والثقافية عناية عظيمة ، فدرس الأدب العراقى عن فهم وروية ، وكتب عن المرأة العراقية ونهضتها ، وتبنى فكرة إنشاء الجامعة العراقية ، وتحمس لها أكثر من العراقيين ، ودعا إليها فى كل مناسبة - وأحيانا بدون مناسبة أيضا - ولعله كان أول من دعا لها ووجه إليها أنظار المسؤولين ، وحملهم على التفكير الجدى فيها . وتطوع - رحمه اللّه - لتصحيح ما كان خاطئا من الآراء والمعلومات عن العراق فى البلاد العربية ، فكان على قوله « من صور العراق فى مصر ، ومن صور مصر فى العراق » وكان رسول الأخوة العراقية المصرية ، أدى بقلمه مالا تؤديه سفارات ولا معاهدات ، قال فى المصريين - وهو شاهد من أهلها - : « إن المصريين يفدون إلى العراق وليس فى صدورهم ثروة غير الحب ، ومن أجل هذا يحبهم العراقيون ، فإن سمعتم أن مصريا شقى فى العراق فاعلموا أنه مصرى مزيف » .

---

[1] وهى « ليلى المريضة فى العراق » فى ثلاثة مجلدات و « وحى بغداد » و « ملامح المجتمع العراقى» و « عبقرية الشريف الرضى » .

كما قال فى أهل العراق - وهو الخبير العارف بهم - « إن العراقيين يحبوننا أصدق الحب ، فليعرفوا جيدا إننا نحبهم ونتمنى لهم كل خير ، وننظر إلى بلادهم نظر الأخوة الصادقة التى لا تضمر غير العطف والصدق » .

وطلب إليه أن يلقى فى بغداد محاضرات أدبية عامة ، فاختار لموضوعها شاعرا عراقيا إكراما للعراق ومجاملة لأهله ، ولما رآه من شبه بين شخصية الشريف الرضى وشخصيته فى تدفق الإحساس وكآبة العاطفة وغدر الزمان ، فأدى بذلك خدمتين جليلتين ، الأولى للأدب العربى ، إذ أحيا ذكرى هذا الشاعر العظيم الذى لم ينل شعره ما يستحقه من عناية ودراسة . والثانية للعراق لما جره الحديث من ذكر العراق ووصفه وتاريخه . وكان - رحمه الله - بما عرف عنه من اندفاع الشعور وحدة العاطفة ورقة الطبع قد درس الشريف الرضى ودعا الناس إلى دراسته ودلهم على مواطن العبقرية والعظمة فى شعره . ولكنه كان أول من صدق أقواله فيه ، وزادته دراسته للشريف الرضى إعجابا به ، حتى قال عند تقديمه المحاضرات مجموعة فى كتاب ، على طريقته المعروفة : « إن الشريف الرضى فى كتابى ، أشعر من المتنبى فى أى كتاب ، ولن يكون المتنبى أشعر من الشريف إلا يوم اؤلف عنه كتابا مثل هذا الكتاب ! » .

وفى بغداد نظم قصيدة ألقاها فى (نادى القلم العراقى) يقول إنها أعظم ما نظم فى حياته عنوانها « من جحيم الظلم فى القاهرة إلى سعير الوجد فى بغداد » ومطلعها .

وفدت على بغداد والقلب موجع فهل فرجت كربى وهل ابرأت دائى؟

وقال - رحمه الله - فى « وحى بغداد » :

« وأخشى ألا أظفر بكلمة رثاء يوم يشيعنى الناس إلى قبرى ، فذاكرة بنى آدم ضعيفة جدا ، وهم لا يذكرون إلا من يؤذيهم ، أما الذى يخدمهم ويشقى فى سبيلهم فلا يذكره أحد منهم بالخير إلا وفى كلامه نبرة تشير إلى أنه يتصدق بكلمة المعروف » .

كلا يا صديق العراق ومحبه !

فلن ينساك العراقيون ، وهم إن ذكروك لم يحسنوا إليك ، وإنما أحسنوا إلى أنفسهم ، ولم يتصدقوا بكلمة المعروف ، بل ردوا دينا لك فى أعناقهم . وإنك لم تبعد عن الحق يوم قلت :

« وستمر أجيال وأجيال ، ولا ينسى أهل بغداد ، أن مدينتهم عاش فيها رجل أحبها أصدق الحب ، اسمه زكى مبارك »

القاهرة — نجدة فتحى صفوة

الفهـــرس

هـذا الكتـاب

طبع على نفقة صالون الشيخ محمد صالح باشراحيل الأدبى يرحمه الله .

وهذا الكتاب يضم أسماء وأسماء نذكر منها حسب الحروف الأبجدية :

إبراهيم عبد القادر المازنى ، إبراهيم عبده ، أحمد أمين ، أحمد حسن الزيات، أحمد رامى ، أحمد شوقى ، أحمد ضيف ، الشريف الرضى ، أم كلثوم، المسيو بلانشو ، توفيق الحكيم ، جميلة العلايلى ، حافظ إبراهيم ، خليل مطران، المسيو دى كومنين ، زينب الحكيم ، سعد زغلول ، سليم البشرى ، سهير القلماوى ، طه حسين ، عائشة التيمورية ، عباس محمود العقاد ، عبد الرحمن شكرى ، عبد المجيد اللبان ، عبد الوهاب عزام ، على ماهر ، على مبارك ، على محمود طه ، عمر بن الخطاب ، عمر بن عبد العزيز ، قاسم أمين ، لطفى جمعة ، محمد أحمد جاد المولى ، محمد تيمور ، محمد حسين هيكل ، محمد رضا الشبيبى، محمد حسنين مخلوف ، محمد السباعى ، محمد المهدى ، محمد عبده ، محمود تيمور ، مصطفى النحاس ، مصطفى عبد الرازق ، مصطفى صادق الرافعى ، مصطفى لطفى المنفلوطى ، مكرم عبيد ، منصور فهمى ، نجدة فتحى صفوة ، نجيب الهلالى ، هدى شعراوى .

الناشر

سعيد جودة السحار

الثمن ٥ جنيهات

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٨١٧٤

الترقيم الدولى : I.S.B.N : 977 - 11 - 1481 - 6